شهيرات النساء في العالم الإسلامي

قدرية حسين

تقديم: أميمة أبو بكر

شهيرات النساء فى العالم الإسلامى

قدرية حسين

الكتاب : شهيرات النساء فى العالم الإسلامى

تأليف : قدرية حسين

الطبعة :طبعة ثانية ٢٠٠٤ – طبعة أولى ١٩٢٤

الناشر : مؤسسة المرأة والذاكرة – القاهرة – ٢٠٠٤

٤ ش عمر بن عبد العزيز ، المهندسين. تليفون فاكس: ٣٣٥٧١٣٠

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٤/١٦٤٠٦

الترقيم الدولي : **977 - 5895 - 14 - 6**

مطبعة : **Promotion Team** – ت : ٣٣٦٧٤٤٩

شهيرات النساء فى العالم الإسلامى

تأليف : قدريـــــة حســـين

تعريب : عبد العزيـــز الخانجـى

تقديم : د. أميمـــة أبـــو بكـــر

المحتـــويـــات

● تقديم : د.أميمة أبو بكر ٩

● كلمة المعرب ١٩

● كلمة الأميرة ٢١

● **الجزء الأول:**

١- أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى:

- الفصل الأول ٢٥
- الفصل الثانى ٢٩
- الفصل الثالث ٣٦
- الفصل الرابع ٣٨
- الفصل الخامس ٤٠
- الفصل السادس ٤٢

٢- أم المؤمنين السيدة عائشة:

- الفصل الأول ٥١
- الفصل الثانى ٥٣
- الفصل الثالث ٥٨
- الفصل الرابع ٦٣
- الفصل الخامس ٧١
- الفصل السادس ٧٦

- الفصل السابع ٧٨
- الفصل الثامن ٨٣

٣- العباسة بنت المهدى (أخت الرشيد):

- الفصل الأول ٨٧
- الفصل الثانى ٩٠
- الفصل الثالث ٩٢
- الفصل الرابع ٩٨
- الفصل الخامس ١٠٤
- الفصل السادس ١٠٩
- الفصل السابع ١١١
- الفصل الثامن ١١٦

٤- الملكة عصمة الدين (شجرة الدر):

- الفصل الأول ١٢٣
- الفصل الثانى ١٢٦
- الفصل الثالث ١٣٠
- الفصل الرابع ١٣٦
- الفصل الخامس ١٤٢
- الفصل السادس ١٥٠

● الجزء الثانى:

كلمة الأميرة ١٥٦

٥- سيدة النساء فاطمة الزهراء:

- الفصل الأول ١٦١

- الفصل الثانى ١٦٤
- الفصل الثالث ١٧٥
- الفصل الرابع ١٧٨
- الفصل الخامس ١٨١

٦- تاج الرجال رابعة العدوية رضى الله عنها:

- رابعة العدوية ١٨٧

٧- الخنساء:

- قبل الإسلام ١٩٧
- بعد الإسلام ٢٠٧

٨- أميرة المؤمنين زبيدة (بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور):

- الفصل الأول ٢٢٥
- الفصل الثانى ٢٢٩
- الفصل الثالث ٢٣٢
- الفصل الرابع ٢٣٤
- الفصل الخامس ٢٤٠
- الفصل السادس ٢٤٣
- الفصل السابع ٢٥٠
- الفصل الثامن ٢٥٢

٩- الأميرة صبيحة (ملكة قرطبة):

- الفصل الأول ٢٥٨
- الفصل الثانى ٢٦٢
- الفصل الثالث ٢٦٥
- الفصل الرابع ٢٦٧

- الفصل الخامس ٢٧٦
- الفصل السادس ٢٨٠
- الفصل السابع ٢٨٥
- الفصل الثامن ٢٨٨
- الفصل التاسع ٢٩٥

الخاتمة ٣٠٦

تقديم
لماذا قدرية حسين؟

الأميرة قدرية حسين هى بنت السلطان حسين كامل الذى أقيم سلطاناً على مصر عام ١٩١٤، بعد تنحية آخر الخديويين عباس حلمى. ويبدو مما وصلنا من كتاباتها أن الأميرة كانت لها إسهامات أدبية معروفة وآراء هامة حول "مسألة المرأة"، التى شغلت الساحة الثقافية بمصر فى مطلع القرن العشرين(١) . وقد تخصص الكاتب والمحقق الشهير عبد العزيز أمين الخانجى فى تعريب كتاباتها من اللغة التركية، كما تولى أحمد زكى باشا (١٨٦٧ - ١٩٣٤) - وهو أديب وباحث مصرى وجامع ومحقق للتراث العربى، وكان سكرتير أول لمجلس النظار - تولى جمع كتبها وتحمس لها، وشجع عبد العزيز الخانجى على تعريب كل ما يقع تحت يده من إنتاجها(٢) . تقوم "مؤسسة المرأة والذاكرة" بإعادة طباعة هذا الكتاب الذى نشر بالعربية عام ١٩٢٤، والذى يحتوى على جزأين أصليين بينهما فى التأليف حوالى عامين لعدة أسباب:

أولاً: للتذكير بعمل كانت له أهميته ضمن هذا النوع من الكتابة التاريخية/الأدبية، التى راجت فى ذلك الوقت بسبب السياق الثقافى والاجتماعى العام المعنى بدور المرأة فى المجتمع وإبراز نشاطها. ورغم أن أعمال قدرية حسين مترجمة أو معربة، إلا أنها أخذت مكانها فى الحياة الثقافية المصرية العربية، وترتبط أفكارها ودوافعها بالإنتاج

النسائى الآخر الموجود على الساحة. وبذلك تكون هذه الكتابات جزءاً من هذا التاريخ الثقافى الشامل، بصرف النظر عن المكانة الاجتماعية الخاصة للمؤلفة(٣) .

ثانياً: الكتاب صوت نسائى آخر كان متاحاً لقارئ العربية، ينضم إلى أصوات عائشة تيمور(٤) وملك حفنى ناصف وزينب فواز - وكلهن كانت لهن إسهامات خلاقة فى تشكيل الحياة الثقافية للأمة فى تلك الفترة، وآراء مهمة حول مواجهة المرأة المصرية والعربية لتحديات ثالوث: التحديث والتغريب والتهميش. ونحن هنا نستكمل مهمة إلقاء الضوء على هذه الأصوات النسائية التى عادة إما تكون غير معروفة أو غير معترف بأهميتها وقيمتها التاريخية، مقارنة بأعمال لمفكرين آخرين نالوا كل الاهتمام والتسليم بأنهم وحدهم غيروا مسيرة الفكر والتاريخ. (٤)

ثالثاً: وأخيراً، فإن الكتاب يشكل فرصة ممتازة لطرح قضايا فكرية محددة، أو التعريف بإشكاليات لا تزال مطروحة حتى الآن وبعضها لم يحسم بعد. وهذا يجعل من موضوعاته والآراء المتضمنة فى سير النساء، مناسبة لإعادة تحليله ونقده من منظور الحاضر وبهدف استشراف المستقبل.

وقد احتفظنا فى هذه الطبعة بالهوامش الأصلية التى أضافها المعرب أسفل الصفحات للشرح أو التعليق أو الإشارة إلى المراجع المستخدمة أو الإختلاف مع رأى للأميرة المؤلفة.

قضايا الكتاب :

١- من أول القضايا التى يثيرها الكتاب بحكم سياقه التاريخى، وموقع المؤلفة المنتمية إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة بمصر، هى تلك المتعلقة بالانتماء الوطنى والدينى. فمن أول صفحات الكتاب تظهر فكرة الهويات المتضافرة - الهوية المصرية والهوية الإسلامية: "البلاد الآهلة بالإسلام هى وطننا الدينى، والعلم الأخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث هو لواؤنا الملى" (٢١). وهذه محاولة لدمج الهويتين دون تقديم واحدة

على الأخرى، بل الجمع بينهما تحت مظلة الانتماء الحضارى للدين والوطن. فلعلنا نتذكر أن السياق السياسى والظرف التاريخى الذى ظهر فيه الكتاب – أى عشرينيات القرن الماضى – فرض إشكالية الصراع بين الانتماء الوطنى والانتماء الإسلامى، واحتدم الجدل بين الأحزاب والمثقفين والعلماء حول تناقض الرابطتين، فاستقطبت الأحزاب كل فى ناحية. وزاد من الأزمة بالطبع، انهيار الخلافة العثمانية التى هى آخر كيان محدد أو شكل سياسى لجامعة إسلامية فى العصر الحديث، والتنافس حول منصب الخلافة مع استمرار الاحتلال البريطانى لمصر، والمطالبة المستمرة بالاستقلال للأمة المصرية، والرغبة فى النهوض بالمجتمع والتحديث والتمدن، مما عرض البلاد لأزمة هوية وخلق مأزقاً ثقافياً وفكرياً(٥) .

وقدرية حسين ذات الجذور التركية، تقدم نفسها على أنها ذات انتماء مصرى وطنى واضح، تشارك فى الجدل الدائر حول النهضة النسائية والتحديث فى مصر. لا تشير قدرية مطلقا إلى أى هوية أو انتماء تركى، ولكنها مضطرة للإشارة فى المقدمة – فى اقتضاب شديد – إلى "أبناء لسانى"، ثم تسهب فى سيرة الخنساء العربية قبل وبعد إسلامها على السواء، وتستشهد بأبيات مطولة من شعرها المدون فى المصادر التاريخية المعروفة، لتستدل على عبقريتها البلاغية والأدبية، بل أنها تقدم هذه الشخصية النسائية العربية الصميمة كنموذج وقدوة للانتماء والشجاعة والريادة، وتجعلها رمزاً على لواء الشرف الوطنى والدينى، وتبرز مزج الفكرة الوطنية بالعقيدة:

..." لو نعمل على وقاية اسمنا وشرفنا والمحافظة على لوائنا لتكون أجسادنا ذرات منفصلة من وطننا، وقلوبنا قلعة منيعة ومحصنة بأسوار من الإيمان. أما لواؤنا الأخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث فليخفق على الدوام فوق برج هذا الحصن المنيع".(٢١٩)

والمؤلفة ليست فقط معنية بتعريف الشخصية الوطنية المتوازنة بين "المصرية" و"الإسلامية" من خلال الانتماء الحضارى للأمة، ولكن أيضاً بين الشرق والغرب، فهى

تقدم نقدها للشرق والغرب معاً وتتمنى "أن نغترف من مناهل المدنية الغربية، ولكن لا يليق بنا نحن المسلمات أن نضحى فى سبيل هذا الواجب بجميع الشرق وعاداته الجميلة وتقاليده الحسنة" (ص١٤٣). ثم تتوقف كثيراً لتعقد المقارنات أو المقابلات بين الشرق الأوسط الإسلامى وبلاد الشرق الأقصى حين تضرب مثلاً باليابان كنموذج مثالى لدولة شرقية احتفظت بشخصيتها وقوميتها واعتزازها بتاريخها مع استفادتها بأساليب المدنية العصرية. وتلمح بنقدها لمسار المشروع القومى الحديث متأرجحاً بين الشك فى شخصيتنا وبين الجمود، أو عدم القدرة على القيام بمهمة التحديث على أسس سليمة: "فأصبحنا مثل سفينة بدون غاية أو أمل، فطوراً إلى اليسار وطوراً إلى اليمين" (ص ٢١٨)، أو مثل "تارك الصلاة المقيم بين جامعين" (ص١٤٣) - أى مأزق تحديد الهوية وغياب مشروع نهضوى محدد الملامح مبنى على الشخصية الحضارية للشرق.

٢- إضافة إلى الذى سبق تتبنى قدرية حسين مرجعية إسلامية عامة تجاه قضية عدم الإنصاف للمرأة فى الثقافة والمجتمع، بل وتهميش تاريخها أيضاً. فالواضح من اختيار سير لنساء متميزات فى التاريخ الإسلامى المبكر والوسيط، يدل على أن معيار الحكم على هذه المشكلات ومنطلقات النقد الموجه ستكون بالقياس على مبادئ إسلامية هى فى الأصل عادلة وإنسانية ورحيمة. وهى تفتتح مقدمة الكتاب بالتأكيد على قيم المساواة والعدالة والأخوة بين أصحاب الدين الواحد، الذين هم فى الواقع "أسرة واحدة" (ص٢١)، لا يتميز فرد من أفرادها عن الآخر إلا بتقواه، فتتذكر الآيتين الكريمتين - "إنما المؤمنون أخوه" و"إن أكرمكم عند الله أتقاكم" . فالأساس والبداية هما المساواة التامة والمعيار الإيمانى هو التقوى. يؤسس العمل إذن لقيمتى الإيمان والتقوى كأصول أو كخصائص أساسية للرؤية الإسلامية، وبالتالى كشروط ومقدمات لمقاربة موضوع المرأة - سواء فى الماضى أو الحاضر.

وهنا يأتى دور هوية أخرى تحت النظر، وهى الهوية النسائية مع عرض لهموم

المرأة والمجالات التى تم إقصائها منها. وكما أوضحنا فقد سبق لأصوات نسائية أخرى منذ أواخر القرن التاسع عشر أن طرحت هذه الأمور وناقشت حياة المرأة ومشكلات السيطرة على ميزان الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء فى الأسرة والمجتمع. كلهن فعلن ذلك من منظور نقدى مختلف بموضوعية واتزان دون تحامل عنصرى أو شعور بالدونية تجاه الثقافة الوطنية من ناحية، أو انبهار تام بالنموذج الغربى وفقدان للشخصية من ناحية أخرى. تسير قدرية حسين على هذا النهج، إلا أنها تركز بالتحديد على حق المرأة فى المجال العام ومشكلات ولاية الحكم والإدارة وظهورها فى الأدوار المجتمعية والسياسية العامة دون الطعن فى طبيعتها الأنثوية وقدراتها. والسؤال الذى تثيره هذه النظرة الكلية إلى أعمال النساء وهو الذى لا يزال تحت المناقشة حتى الآن: هل يستلزم رصد الهموم والمشكلات الخاصة بالنساء – بصدق ودون "تسييس" للقضية – وجود "وجهة نظر للمرأة" أو "هوية نسائية"؟ وهل ممكن أن تقدم هذه الهوية النسائية فى إطار دينى – أو إسلامى بالتحديد؟

٣ – مسألة وجهة نظر المرأة تقودنا إلى قضية أخرى أساسية فى هذا الكتاب، قضية مزدوجة: ما المقصود بتاريخ النساء؟ ثم كيف تكون قراءة/كتابة المرأة لهذا التاريخ مختلفة؟ لقد جمعت قدرية حسين فى كتاب شهيرات النساء سيراً لمجموعة من النساء فى التاريخ الإسلامى والعربى، اختارتهن بدقة وقامت بتصوير حياتهن مؤكدة على تفاصيل بعينها ويتخللها تعليقات وتحليلات تعكس وجهة نظرها فى كثير من القضايا، خاصة تلك المتعلقة بالمرأة المسلمة فى العصر الحديث. أى أنه من النماذج المبكرة للكتابة النسائية عن تاريخ المرأة ومحاولة لمقاومة إقصاء أخبار وإنجازات النساء فى التأريخ بالتركيز على هذه الأدوار والتنبيه إلى إشكالية الإقصاء وأسبابه. مثله فى ذلك مثل العمل الموسوعى الرائد لزينب فواز "الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور" (١٨٩٩)، وهو أول قاموس أعلام نسائى تكتبه امرأة بهدف توظيف التاريخ والسير لطرح مشروع فكرى معين.

اكتسب هذا النوع من الكتابة التاريخية/الأدبية حول حياة نساء متميزات وناشطات فى الشرق والغرب انتشاراً وشيوعاً فى تلك الفترة، حتى أصبح بمثابة باباً ثابتاً فى معظم الصحافة النسائية وعُرف بقسم "سير الشهيرات" وراجت موضوعات عن "المرأة المسلمة" أو "المرأة الشرقية". أى أن هذا المحور بالذات صار نوعاً من أنواع الخطاب المستخدم للدفع بقضايا دور المرأة فى المجتمع والحياة العامة ومكانها فى المشروع القومى المطروح [٦]. فقد أُعتبر أداة فعالة - من خلال الأدلة التاريخية - فى تغيير القناعات الاجتماعية والثقافية حول هذا الدور العام للمرأة والدعوة إلى التحديث والنهضة النسائية. وكما تقول قدرية حسين فى آخر سطور كتابها: "لا أقصد أن أكتب تاريخاً، وإنما الغرض الذى أرمى إليه هو النهضة النسائية فى عصرنا هذا (ص ٣٠٦). والدليل على ذلك أن المؤلفة لم يكن همها الأول إدراج أكبر عدد من التراجم التى تعنى ببيانات الميلاد والوفاة والسفر والتعليم وخلافه. ولكن تناولها كان انتقائياً لعدد محدود من النساء وفى اختيار الزاوية أو جوانب السيرة التى يتم تسليط الضوء عليها. وكذلك فإن تعليقات وتعقيبات المؤلفة نفسها وتدخلاتها السردية ذات أهمية قصوى ودلالة لأنها تبرز صوتها كشاهدة على التاريخ تتفاعل معه فى حاضرها.

إن فكرة استخدام قراءة التاريخ لتمكين النساء فكرياً وثقافياً فى الحاضر وزيادة الثقة فى أنفسهن وقدراتهن ظل تأثيرها فى الجزء الأول من القرن العشرين، حيث أخذ الكثير بعد ذلك عن سير زينب فواز وقدرية حسين وساروا فى نفس الاتجاه لتأسيس خطاب مضاد للتيار المتشكك فى مشروعية وأهمية انخراط المرأة فى الأنشطة الحياتية العامة. وتأثر الأميرة بالمشروع التاريخى الفكرى لزينب فواز واضح ومعرفتها للموسوعة أيضاً يظهر فى إشارات قليلة فى الهامش إلى "الدر المنثور"، كأحد المصادر المستخدمة، أى أن من أهدافها أيضاً، زيادة مرئية النساء فى الثقافة العربية والإسلامية ودمج إنجازاتهن المهمشة إلى الصورة الكلية للتاريخ، فتقول أن "معرفة بطلات الماضى أساس لرقى نساء الحاضر"، وهى تأمل أن تكون "حلقة الوصل" بين

هذا التراث النسوى ونساء اليوم (ص ١٥٦-١٥٧).

يظهر الكتاب وعياً قوياً لدى المؤلفة بالتاريخ ودوره فى الحاضر لتغيير الواقع الاجتماعى، وبالحاجة إلى الخيال التاريخى لملء الفجوات ومساحات الصمت خاصة فى تفاصيل التاريخ الاجتماعى للنساء، فنلاحظ مثلاً وجود هاجس دائم عند قدرية - هاجس النقص فى التاريخ الرسمى المدون وغياب التفاصيل الدالة التى تمكن من سبر غور الشخصيات وأزماتها، لذا على ناقل التاريخ أن يكمل الصورة ويلجأ إلى استخدام الخيال الفنى والأدبى. فتتساءل فى كل سيرة تعرضها عن ندرة التفاصيل والتأريخ لجوانب أخرى من هذه الحياة، وتعتب على المؤرخين عدم اهتمامهم بتسجيل الكثير عن شهيرات الإسلام وبطلاته، فحياتهن محاطة بالغموض والإبهام لأن:

"الأقدمين كانوا يعتبرون هذه من المسائل التى لا يجوز إذاعتها كما هو ظاهر من كتبهم. إننا لنعلم أسماء سيدات عديدات لهن ذكر عاطر وشهرة فائقة، فإذا حاولنا أن نحيط بأحوالهن إحاطة تامة وأن ندرك دقائق سيرهن إدراكاً كاملاً كلفنا أنفسنا ما لا نستطيع". (ص ١٦١).

أى أن الكاتبة تتعرض لما نسميه حالياً بقضية التهميش فى التاريخ "الرسمى" للأمم والشعوب، فى مقابل ما أسميناه سابقاً "تاريخ النساء" - الحلقة المفقودة فى التاريخ الشامل للإنسانية. وهى تشير دوماً إلى غياب الاهتمام التاريخى المناسب ببعض الشخصيات والقصص، مثل قصة العباسة وجعفر البرمكى: "هل كانت حياتهما الغريبة - تلك الحياة التى ذهبت ضحية الغرور والاستبداد موضوعاً تافهاً فى آثارنا القومية؟ (ص ٨٩). كما تعلق على ضياع إنجازات النساء فى التاريخ: "كان لشهيرات الأمس عقلية رصينة وغاية ثابتة فى الحياة ومع ذلك فقد ظلت ألوان المساعى التى بذلنها مخفية وراء ستور الإهمال" (ص١٦٢).

من المهم إذن إبراز هذه الجوانب المهملة من السرديات فى الذاكرة الجماعية من خلال رؤية المرأة المؤرخة أو قارئة التاريخ عندما تتوجه إليه من منظور الحاضر وبحكم

موقعها الاجتماعى والثقافى الحالى. فنجد مثلاً تركيز قدرية على شخصيات عامة فى التاريخ الإسلامى أو شخصيات كانت لها سلطة قوية فى مجال ما أو حاكمات لعبن أدواراً مؤثرة فى السياسة والحكم والحياة العامة، ولهن مواجهات أو مواقف جريئة فى بعض الأحيان وأقوال مأثورة تنم على قوة الشخصية والصلابة والعناد. هناك مغزى بلا شك وراء تأكيد الكاتبة على سير هؤلاء الحاكمات والسياسيات، فنلاحظ مثلاً أنها وجدت فى سيرة شجرة الدر الفرصة للتطرق إلى قضية تولى المرأة الحكم فى الإسلام، فتقول:

"إذا استثنينا بلاد الهند، فهى المرأة الأولى فى الإسلام التى تقلدت الملك وأدارت دفة الحكم بمهارة ودراية. لم يكن من المألوف المعهود فى بلاد الشرق أن تحكم المرأة وتتولى زمام بلادها بنفسها مباشرة..." (ص ١٢٣). فهى تنقد فكرة أن "النساء لا يتربعن على منصات الحكم فى بلاد المشرق ولا يوثق بهن إلى حد تسليم أزمة الإدارة لأيديهن..." (ص١٤٢).

وهكذا تمضى قدرية فى محاولة تقديم تفسيراتها وتحليلاتها الخاصة لبعض الأحداث أو الشخصيات التاريخية المعروفة أو على الأقل إضافة رؤية جديدة على هذه الأحداث، وهى تلفت النظر إلى جوانب مختلفة من شخصيات تقليدية مثل السيدة عائشة والسيدة فاطمة ورابعة العدوية والخنساء وشجرة الدر. فهى بهذا تعيد بناء دور المرأة كفاعلة ومؤثرة وصانعة للتاريخ ذات جرأة وإيجابية وليست فى دائرة الانعزال أو الاحتجاب أو الانطواء. وفى الوقت نفسه تدعو القارئ إلى إعادة تقييم المعايير الثابتة الخاصة بالتأريخ الرسمى(٧).

وفى النهاية، تكتسب أفكار هذا الكتاب أهمية وقيمة عند وضعه فى سياق الصورة الكلية لمسيرة القرن العشرين، وصولاً إلى بداية الواحد والعشرين، فلا يزال النقاش قائماً حول أحسن السبل التى ممكن أن تسلكها مجتمعاتنا العربية للتحديث والإصلاح وحول الشخصية الوطنية المتوازنة. وكأن هذا الكتاب الذى عبر منذ ثمانين عاماً عن أزمة الهوية فى عصر الأميرة المصرية قدرية حسين، والتى أرادت فيه أن

تستخدم السير التاريخية للمصالحة بين الانتماءات وهوياتنا المتشابكة ولتثبيت الهوية الحضارية الجامعة لهذه الأمة ثم لتقويه الوعى النسائى - وكأن الكتاب يخاطبنا اليوم وسط الجدل المثار مرة أخرى حول تضارب الهويات: بين المصرية والقومية والعربية والإسلامية والفردية، والشك فى الهوية الثقافية لمجتمعاتنا وفرض الاختيار بينها وبين التقدم والعدالة والكرامة الإنسانية.

د. أميمة أبو بكر
أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن - جامعة القاهرة

الهوامش :

١- نُشر لها أيضاً عامى ١٩١٩ و١٩٢٠ طبعات ثانية (بعد نفاذ الطبعات الأولى) كتابان: "خواطر الأميرة" و"السراب"، وهما عبارة عن خواطر فلسفية ونظرات فى الحياة كُتبت بأسلوب أدبى وفى صيغة أقوال مأثورة أو مقالات صغيرة تم وصفه حينئذ أنه "كالشعر المنثور". وقد كتبت الجرائد وقتها تمتدح هذه الكتب (المقتطف والسفور والوطنية والأخبار والاجيبشن جازيت والأكسبريس)، وتثنى على "النهضة الكتابية لنساء مصر"، وعلى هذا الإنجاز "لسيدة وطنية"، وعلى "خواطر عقل راجح نبيل من عقول بنات الشرق"، ومن المصريات المتعلمات الشهيرات فى عالم الكتابة والأدب.

٢- تم تصدير طبعة ١٩٢٤ من كتاب "شهيرات النساء" إلى جانب كلمة المعرب والأميرة بخطبة أحمد زكى، التى ألقاها فى المجمع العلمى المصرى - مارس ١٩٢٢، وكانت قد نشرتها جريدة "الأهرام".

٣- من الجدير بالذكر أن التعليقات فى الصحف تنم على أن هذه الكتابات أخذت مأخذ الجد وأثارت الجدل، حتى أن جريدة "الأخبار" فى عددها رقم ١٢١، الصادر ١٩ يونيو ١٩٢٠، أفردت لكتاب "السراب" عموداً للتحليل، ولكنه انتقد رأياً ورد لقدرية حسين عن نقدها لحكام الشرق والإسلام السالفين، لأنهم "من أهل الغرام بالهدم والتدمير" و"بأيديهم معاول الهدم والتخريب"، وهى تصف ذلك بأنها عادة مذمومة ومرض مزمن، وتأسف أنه يبدو لها "أن كل فرد من المسلمين مريض بهذا الضعف القومى، لأنه مولع بالذم، وما الذم إلا

ضرب من الهدم والتخريب". تردّ جريدة "الأخبار" أنه كان على الأميرة أن تراجع رأيها فى السلف، وأنها عممت، فليس كل الولاة والسلاطين فى الماضى مدمرين هادمين، فهناك أمثلة كثيرة فى تاريخ دول الإسلام من السلف الصالحين الهداة البناة.

٤- كتبت قدرية حسين مقدمة لطبعة لجنة نشر المؤلفات التيمورية (١٩٥٢) "حلية الطراز: ديوان عائشة التيمورية" الذى تم إهدائه فى أول صفحاته إلى الأميرة، تمتدح فيها نبوغ عائشة الشعرى وتشير إلى أنها تذكر أن الشاعرة المجيدة كانت تأتى إلى سراى عابدين لزيارة جدتها ثم إلى سراى الجيزة لزيارة والدتها السلطانة ملك، لتقرأ لها تحفاً من "روائع شعرها ورفيع أدبها" (ص ٤). وأهم شئ أثبتته الأميرة فى تقديمها أن عائشة تمكنت من أن تفرض نفسها على عهد صعب العيش فيه للنساء، خاصة الشاعرات والمؤلفات، العيش فى جو من التحفظ والأستار وتعذر الوسائل. وهى فى النهاية تدرك تطور مسيرة النساء: "ستظل ابنة القرن التاسع عشر فخراً لبنات القرن العشرين، وما يلحق به من العصور" (ص ٥). ("حلية الطراز: ديوان عائشة التيمورية" – القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربى، ١٩٥٢).

٥- راجع هذا الكتاب الذى يرصد بالتفصيل كافة روافد الشخصية الوطنية المصرية فى ذلك الوقت

Israel Gershoni and James Jankowski, Egypt, Islam and the Arabs: The Search for Egyptian Nationhood, 1900 - 1930 (New York: Oxford University Press, 1986).

٦- انظر دراسة مارلين بوث عن الصحافة النسائية وبالتحديد هذا النوع من الكتابة التاريخية وأدب السير فى تلك الفترة:

Marilyn Booth, May Her Likes Be Multiplied: Biography and Gender Polities in Egypt (Berkely: University of California Press, 2001).

٧- نلاحظ وجود محاولة مماثلة فى آخر القرن العشرين للكاتبة المغربية فاطمة المرنيسى فى كتابها السلطانات المنسيات نساء رئيسات دولة فى الإسلام (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٤).

كلمة المُعرب

باسم الهادى إلى سواء القصد، وباسم أنبيائه المرسلين والهداة المخلصين وطلاب الاستقلال والحرية المجاهدين فى كل عصر ومصر، أتقدم إلى قراء العربية فى مصرنا المحبوبة وفى الأمصار العربية الأخرى بهذا الكتاب الذى وفقنى الله إلى تعريبه. وأنا قبل كل شئ لا أجد مناصا من الاعتراف بتشجيع المشجعين من أبناء قومى عندما أقدمت على ترجمة رسائل الأميرة قدرية حسين، أمد الله حياتها، ومتع العالم الشرقى بثمار أفكارها، ولولا ثقتى بتقديرهم لمجهود هذا العاجز الضعيف، وعطفهم عليه فى جميع ما ترجمه، لما أقدمت على هذا العمل الذى أظننى دونه.

وما أظننى فى حاجة إلى أن أعرف قراء هذا الكتاب عن مؤلفته وسابق جهودها وفضلها، فما هى بالسيدة المجهولة عندهم، وتاريخ حياتها الأدبية معلوم مشهور لدى الناس أجمعين.

الأميرة قدرية حسين كاتبة تتمشى فى كتابتها مع روح العصر، مع كثير من التربية الدينية الشرقية، وهى تشترك فى مجهوداتها مع روح الديمقراطية الاسلامية الحديثة. يتبين ذلك من خواطرها ومن مقالاتها ورسالاتها التى كان لقراء العربية نصيب وافر مما عربته لهم،وهى تكتب باللغتين اللتين تحسنهما: التركية والفرنسية، وتكاد لا تعلن عما تكتب إلا إذا تنبه له بعض الأدباء.

ويقضى علىَّ واجب الأدب أن أذكر أن المرحوم ولى الدين بك يكن لقد كان فى مقدمة الذين تنبهوا إلى رسائلها القيمة، فعرب لها كتاب خواطرها (نه لرم) وأسماه (ما هو وما هى)، غير أنه لم يطبع، وكنت إذ ذاك ملازما للخزانة الزكية، أمد الله فى حياة صاحبها أستاذى البحاثة سعادة أحمد زكى باشا، فنشرت بين نفائسها على طائفة صالحة من كتب سمو الأميرة، وبادرت إلى تعريب خواطرها دون أن أعرف أن

المرحوم ولى الدين بك يكن سبقنى إلى ذلك. وقد كان سعادة زكى باشا من أول المشجعين لى على المضى فى تعريب كتب الأميرة، رغبة فى نشر مآثر الأمراء والأميرات من البيت الملكى الكريم.

القاهرة فى ١١ ربيع الأول سنة ١٣٤٣

عبدالعزيز أمين الخانجى

كلمة الأميرة

اجتمعنا معشر أهل التوحيد تحت اللواء المحمدى المبارك، نازلين عند قوله عز وجل: (إنما المؤمنون أخوة)، فرفعنا ستور الجنسية، وأزلنا حوائل القومية، فأصبحنا جميعا منذ ذلك اليوم بنعمة الله إخوانا، أسرة واحدة، تجمعهم فكرة واحدة، فما أجمل هذا النداء الإلهى الذى ضمن لنا السلام والوئام!

أميزنا عند الله أكثرنا استقامة لقوله الجليل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، فيا لله من جمال هذا الدستور الذى يغرى الأمة بمكارم الأخلاق!

البلاد الآهلة بالإسلام هى وطننا الدينى. والعلم الأخضر نو الهلال والنجوم الثلاث هو لواؤنا الملى. لنا ماض مجيد ينحدر حتى أعماق أربعة عشر عصرا، ولنا تاريخ مملوء بالعظائم، وقد كانت لنا حضارة تزرى بحضارة الرومان، ولنا ذكريات طيبة تبعث فى النفس الطمأنينة. مضت علينا أيام رأينا فيها شمس المعارف تشرق فى ديارنا فأبصرنا بنور العلم ما حولنا، ووقفنا بقدرة الفن على كل حال وشأن لنا، فيا للسعادة لم نثبت فى موقفنا، لم نتمسك بأهداف العلم، تلك فرصة سنحت لم نقتنصها - فيا للحسرة!...

غربت شمس المعارف فى شرقنا، وبزغت فى غربهم، فأمسينا فى ظلام دامس وغشيت أبصارنا عن ماضينا حتى كدنا ننسى تاريخنا المجيد فيا للأسف!...

تعكس مرآة ماضينا صوراً شتى لرجال التاريخ ولعظائم الأعمال عندنا، كما تشهد بذلك الآثار الباقية فى أيدينا، مما هو محفوظ فى مكاتب الشرق والغرب، فالأسفار مشحونة بذكر عظمائنا وحوادث أيامهم ووقائع أزمانهم، وفى نشر تلك الوقائع وعرضها على أنظار القوم عظمة بالغة وعبرة فائقة، يرينا كيف كان حالنا، وما صرنا إليه فى يومنا!..

لا أريد لقومى أن ينظروا إلى الغرب نظرة سطحية، تريهم الأشياء على غير حقيقتها، كمن يرى الأشباح البعيدة عنه على غير حجمها الطبيعى. لا أريد لقومى أن يروا فى الغرب كل شئ، مستسلمين إليه فى كل شأن، بل أردت أن أذكرهم بمجدهم السالف وعظمتهم الماضية، وأن يعتقدوا بأن حق تحصيل العلوم لا يسقط بمضى الزمن. أردت لهم كل ذلك؛ ليتشبهوا بعظماء الرجال من ماضيهم الزاهى المشرق، فإنهم بذلك يجلون أنفسهم، ويرفعون من قدر ذواتهم ويتذوقون معنى الحياة.

بهذا الدافع الإنسانى قام فى ذهنى أن أجمع حوادث الشهيرات من نساء السلف وتراجم أحوالهن، مستعينة على ذلك بالمآخذ المهمة والمراجع الموثوق بها، فأوصلنى البحث إلى تراجم أحوال الكثيرات من النساء ممن اشتهرن بالفضل والكمال فى أصقاع مختلفة من البلدان الاسلامية، سواء من العرب أم من الترك أو الهند أو جاوة أو العجم إلى غير ذلك.

لابد للإنسان أن يجنى ثمار ما يبذره من بذور الخير إن قليلا وإن كثيرا، وقد يصل إلى ما يريد بالجد والسعى. بهذه الروح، داومت تتبعاتى وأبحاثى حتى صيرنى البحث والاستقراء إلى وقائع ذات بال، لنساءكن مثال الفضيلة، جديرات بالتقدير، لعبن أدوارًا هامة فى التاريخ الإسلامى. وسيكون هذا الجزء – هو أول الأجزاء – بمثابة مقدمة مباركة للأجزاء الأخرى التى عزمت على إصدارها. اثنتان من بطلات هذا الجزء من أمهات المؤمنين وهما: والدتانا السيدتان خديجة الكبرى وعائشة الصديقة، رضى الله عنهما زوجتا الرسول صلى الله عليه وسلم، فخر الكائنات توجت بهما هذا الجزء تبركا وتيمنا بسيرتهما الطاهرة، ولأن لهما حق التقدم على غيرهما من كل الوجوه.

الثالثة بنت خليفة وأخت خليفة، وأعنى بها العباسة بنت المنصور وأخت الرشيد. والرابعة أول ملكة فى الإسلام، وأعنى بها الملكة المصرية شجرة الدر، تلك التى قرئ اسمها على المنابر فى خطب صلوات الجمعة. فهذا الأثر الذى شرعت فى إنجازه مدفوعة بعامل الخير قد تم لغاية حميدة، وما أطلبه من الجزاء أن يكون له بعض الأثر فى نفس أمتى ومن الله التوفيق.

- ١ -

أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى

الفصل الأول

مسكين أنت أيها الشرق... إنك لمظلم الجوانب، قاتم النواحى فى كل شأن من شئونك، تمر عليك الأعوام والأحقاب فتزداد حاجتك إلى النور.

أيليق بأهل التوحيد، بالقوم الذين يشع نور الإسلام من جوانب قلوبهم أن يطفئوا مصابيح العلم فى ديارهم، أيحسن بهم أن يدعوا دورهم وربوعهم فى ظلام دامس، وأن يفرطوا فيما كان لهم من شرف الحال وجلال القدر؟

كان المنتظر منهم أن يزيدوا الشعلة الكامنة فى نفوسهم ضراما؛ لتشرق بأنوار العرفان وتسطع بأضواء العمران، ولكن هيهات أضاعوا منزلتهم الأولى ومكانتهم السابقة فى حلقات العلم وميادين الأخلاق.

كان لهم صرح ممرد من المجد والفخار، ولكنهم أهملوه، ولم يعملوا على تثبيت دعائمه. بل أخذوا يهدمون بأيديهم صرح سعادتهم، ثم بدأوا بعد ذلك يتقهقرون عن ميدان العمل والنشاط خطوة فخطوة.

أجل، لقد فقد الشرق شخصيته الأولى، ونسى كيانه وماضيه، فتدهور غافلا من مصيبة لأخرى، متسكعا فى دياجير الظلام إلى أن هوى، فهوى مجد الإسلام على أثره فى وهدة السقوط. كان التدهور مدهشا خطيرا، ارتعدت له أعصابنا، وتولتنا من أجله عوامل الارتباك. فتشتتت الآمال والرغبات، وانقلبت المشاعر والتأثرات رأسا على عقب.

لا نرتقب اليوم مدداً، ولكننا لا نرضى أن نحيا بلا أمل. فأين نجد السلوى؟ وفى أى خزينة من خزائن الكنوز الخالدة نعثر على الأمل؟ وبأى متاع مبهج مضىء نروح عن النفس؛ ليذهب عنها الحزن؟

أية طريق نسلك؟ أنمشى فى التجدد من طريق الفناء أم نعود إلى ذكريات أيام السعادة لنلمس وجه الحياة؟

أنعمت النظر كثيرا فى هذه المسائل، وقتلت الوقت بحثًا ودراسة، لأننى لم أشأ أن أبقى تحت عبء الضربة التى لحقت أمتى، أردت أن أمسح عن نفسى غبار الأيام المتداولة والأحقاب المتطاولة، فأخذت فى البحث والتنقيب - كما هو الواجب على مسلمى عصرنا - عن وجوه الأمل والتسلية حتى عثرت على ضالتى المنشودة بين صحف الماضى.

فها أنا أبدأ اليوم بهذا الواجب نحو العالم الإسلامى، أبدأ بتصوير ما عثرت عليه من وجوه التسلية والأمل فى طيات تلك الصحف، لتكن دروس عظة واعتبار.

أول وجه من تلك الوجوه التى أتشرف اليوم بتصويرها هى الناصية الأولى التى أشرقت بنور الإسلام، هى أول نجمة تلألأت فى شرف سمائه، فكانت نجمة الخير والأمل، نجمة البركة والفيض! هى أمنا أم المؤمنين، السيدة خديجة الكبرى.

أما الاتصال بتلك الشخصية العالية والانجذاب إلى جلالها فى مثل هذه الأيام السوداء، لما يضئ جوانب النفس بما تصلها من أشعة البهجة والإيناس. وعلى القارئ أن يدرك ما يخالجنى من المشاعر، وما أكون فيه من طوفان معنوى وأنا أسرد لقرائى تلك السيرة الطيبة المملوءة بمعنويات خالدة.

سيدة النساء خديجة الكبرى، نموذج من أطهر نماذج الإسلام وأعظمه خطراً وأجله شأنا، ومع ذلك فترجمة حياتها المباركة مبعثرة فى صحف شتى وكتب عديدة من كتب السير. ولذلك أرى أن التصدى لذكر سيرتها العبقة وشرح خلالها العطرة بالتطويل والتفصيل، من دواعى الشرف لأنها تاج فخارنا.

أدركت سيدة النساء أواخر عهد الجاهلية، وكانت من أشرف نساء قريش نسبا وأوفرهن مالاً وأرجحهن عقلا وأصبحهن وجهًا، تجمع فى تلك النفس العالية كل مزية مشرقة. وخصلة باهرة (١). أبوها (خويلد) من أشراف قريش ورجالاتها البارزة. أما

(١) روضة الأحباب.

أمها (فاطمة) فيتصل حبل نسبها بالشجرة النبوية المباركة، وبذلك أصبحت أم المؤمنين أقرب الزوجات المطهرات إلى الرسول نسبا. كان لها مكانة سامية بين قومها لصباحة وجهها وجمال نفسها، فخطبها لأول مرة (عتيق بن عابد)، فتزوجته ثم مات عنها، فتزوجت شريفا آخر هو (أبو هالة)، ولدت منه بنتا اسمها (هند) إلا أنه لم يعش طويلا، وترملت مرة ثانية(١)

ظلت أم هند فى نضارة الشباب (٢) تحف بها أسباب الرفاهة والعز، تقطن منزلا فخما ذا طابقين وحولها العبيد والجوارى، فترمقها الأنظار وترمق ما هى فيه من عز ورفاهة، ويتكاثر حولها طلاب يدها من أعيان قريش ووجوهها، فترفض كل طلب من غير أن تفضل أحدا على أحد، وقد كانت بعيدة النظر عالية الهمة ترسل أموالها فى تجارة إلى الشام فى مواسم معلومة، فتشترى ما يروق لها من أمتعة الهند واليمن وسائر الأمصار؛ لتبيعها بالربح الجزيل، فكان الداخل إليها يراها ترفل فى حلل فاخرة من منسوجات الهند، ربة دار مؤثث بالرياش الجميلة والمقاعد الفخمة المطعمة بصنوف العاج والأبنوس والصدف من صناعة دمشق وغيرها من مراكز الصناعة فى تلك الأيام.

---

(١) علمنا من المراجع التاريخية التى كنا نستعين بها أثناء تعريبنا للكتاب أن السيدة خديجة تزوجت عتيق بن عابد المخزومى وتزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وولدت من هذا الأخير ولداً سمته هنداً على عادة العرب إذ كانوا يضعون للذكور أحياناً اسماء الإناث فهند هذا هو ربيب النبى صلى الله عليه وسلم أخو فاطمة الزهراء لامها عليها السلام قد عاش وأدرك الإسلام وأسلم. روى عنه ابن اخته الحسن بن على حديث وصف النبى صلى الله عليه وسلم المشهور فى الشمائل وكان هند وصافًا وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبى صلى الله عليه وسلم وقد قتل مع على كرم الله وجهه يوم الجمل.

(٢) روضة الاحباب.

هبت عاصفة من عواصف الاضطراب فى نفس السيدة خديجة على أثر حلم رأته ذات ليلة، فقد رأت فيما يراه النائم شمسا عظيمة تهبط إلى منزلها من سماء مكة فيغمر ضوءها ما يحيط المنزل من أماكن وبقاع:

قامت من نومها مضطربة هائجة، وسارعت نحو دار ابن عمها (ورقة بن نوفل) وقد كان حبرا عالما بتأويل الأحلام وتعبير الرؤيا، وما كادت تفضى إليه بقصة رؤياها حتى أخبرها ووجهه يتهلل بشرا أن تلك الأنوار علامة مجئ خاتم النبيين ودخولها المنزل، أى دار بنت عمه خديجة دليل على أنها تتزوج منه.

للقارئ أن يتصور مبلغ التأثرات النفسية التى تملكت ذلك القلب النقى الطاهر. أصبح خاتم الأنبياء بعد هذه الحادثة محور آمالها ومحط أفكارها. بدأت تفكر فى حلمها الجميل، وتنتظر بكل ما أوتيت من صبر وجلد، هذا النبى العظيم. وبينما نساء قريش مجتمعات فى عيد لهن بالكعبة الشريفة إذ تمثل لهن رجل من اليهود، فلما قرب نادى بأعلى صوته:

- يا نساء أهل مكة قد قرب ظهور خاتم النبيين، فمن منكن ستكون زوجته؟

فكذبنه ورمينه بالحصى، وكانت بينهن خديجة فلم ترمه كما فعلن، إنما ظلت فى مكانها واجمة لا تستطيع حركة من كثرة ما انتابها من ضربات القلب.

رأت ما عملته النساء الأخريات، فاجتهدت أن تملك روعها، إذ كانت ترتعد ويرقص قلبها الطاهر، وهى تفكر فى آمالها وأحلامها.

هل أدرك النسوة اضطراب أمنا السيدة خديجة، وهن ترمين الرجل بالحصى؟ إنها لبشارة عظمى، أحلتها من نفسها العالية مكان الإجلال. إنها لبشارة كبرى رأت العالم من ورائها فى طرفان من الأنوار والأشواق.

الفصل الثانى

لمحمد بن عبدالله، أمين قريش وفخر الكائنات منزلة سامية فى نفس عمه أبى طالب، تفوق مكانة أولاده. الذين من صلبه. كان يجالسه ويؤاكله ويأنس به كل الأنس.

وهما فى مجلس من تلك المجالس، ومعهما عتيقة أخت أبى طالب وعمة النبى، وقد فرغوا من طعام العشاء، فقام الأمين إلى شأن من شئونه، وإذا بعمه يلتفت إلى أخته يقول لها مدفوعا بعوامل الإعجاب والتقدير.

– لقد شب محمد وصار رجلا، وآن له أن يتأهل فماذا ترين فى ذلك؟

– فأجابت؟

– إنه فقير وخديجة مثرية تتاجر بأموالها وتؤجر أناسا يخرجون بتجارتها إلى الشام، فليتها تعطيه بعض المال فيتاجر به ويعمل على نمائه حتى تتوفر لديه نفقات العرس.

– فاستصوب العم هذا الرأى، فاستدعى ابن أخيه وقال له:

– ها هى ناقتى أهبك إياها يا محمد، وليتك تتقدم إلى خديجة إنها تفضلك على غيرك، وسترسلك مع رجال ركبها إلى الشام فتؤب إلينا رابحا(١).

أما الأمين فكان جوابه لعمه:

– إذا شاءت خديجة أرسلت تطلبنى:

فأدركت العمة من حوارهما أن محمدا لن يسعى فى الأمر بنفسه، لما هو عليه من عزة النفس، ولذلك عولت على أن تقوم هى بما يكفل النجاح. وقد تم لها ما أرادت،

(١) روضة الأحباب.

إذ أن خديجة ما كادت تسمع ما دار بين العم وابن أخيه حتى تذكرت رؤياها وداخلها سرور خفى لا تعلم مصدره. خيل إليها أن محمدا الأمين هذا، هو خاتم النبيين فأجابت سؤال عتيقة، وشفعت ذلك بطلب إرساله إليها.

عندما توجه الأمين إليها كانت فى حالة أنيقة وعلى أريكة بديعة، فتحادثا طويلا ولم يخرج من عندها إلا على قبول منه بالسفر، ورضى منها بإعطائه ضعف ما تعطيه لغيره.

اغتبط النبى صلى الله عليه وسلم بحسن وفادتها له وجميل مقابلتها، ونقل إلى عمه ما دار بينهما من الحديث فأجابه:

- أبشر برزق عاجل ساقه إليك المولى

المقابلة الأولى بين أمين قريش وفاضلة قومها خديجة كان لها أثر كبير فى نفس أمنا أم المؤمنين، فقد امتدت الجاذبية إلى قراره نفسها، فأحكمت عرى قلبها بسلوك السحر والدهشة. فملامح النبى وأطواره وكلماته السحرية العذبة نفذت خلال قلبها الطاهر، وألقت عليها وحى الحب الخالص، كما تلقى الشمس أشعتها الأولى من خلال النوافذ وقت الصباح.

اشتهر النبى فى ذلك العهد بصباحة الوجه وكرم الأخلاق وأدب النفس، فأينما سار وحينما أقبل قالوا "ها هو محمد الأمين"(١)، ولم يكن ذلك خافيا على السيدة خديجة، فقد كانت تسمع عن أدبه الجم وجماله الرائع، ولكنها فى مقابلتها الأولى له وهى تحادثه وتحاوره وتتملى من مشاهدة طلعته البهية انجذبت إليه بكليتها، وتبطنت أعماق قلبها باحساسات خفية تومىء إليها أنها أمام شخصية بارزة، وأن الرجل الماثل

(١) الامير محمد على

أمامـها بنظراته الحادة التى تأسـر القلوب وتأخـذ بمجامع النفس هو العظيم المنتظر، خاتم الأنبياء والرسل(١).

نرى خديجة بعد ذلك تدعو عبيدها ومواليها لتعطيهم التعليمات والأوامر بشأن ركبـها المسـافر للشام، ثم تعطف على مـولاها ميسـرة، وقد كانت تثق به ثقـة شديدة وتركن إليه فى مسائلها الخطيرة، فتوصيه بالامـتثال إلى محمد الأمـين فى أوامره والنزول عند رأيه أثناء الطريق(٢)

تهيأ الركب للسفر وأعد القوم معداتهم، فالتحق النبى صلى الله عليه وسلم بهم فى اليوم المقرر فسافروا على الطائر الميمون ووجهتهم دمشق الشام. وقد حدث ما أثار إعجاب القوم واستفز دهشتهم، ذلك أنهم رأوا غمامة تظلل رأس سيد الكائنات كلما اشتدت حمأة القيظ فتجعل طريقه بردًا وسلامًا. فتهامسوا فيما بينهم عن سر ذلك وحكمته، وهم الذين يقطعون الطريق ونيران الشمس تلفح وجوههم وتؤذى جسومهم. ولقد كان النبى متلطفا معهم مقبلا عليهم بجميع ما طبع عليه من رقة الشمائل وكرم الأخلاق، فافتتنوا به أيما افتتان. أما ميسرة، مولى خديجة، فكان لا يدرى كيف يصنع ليجامل عزيز مولاته.

أجل لقد سحر القوم بتلك الأخلاق الفاضلة وجذبهم إلى نفسه العالية، ونفذ إلى أفئدتهم بمعنويته المشعشعة الباهرة، حتى بدأوا بسذاجة فطرتهم وصفاء قلوبهم، يلمسون من خلال أطواره وحركاته، ميزة خاصة لا توجدفى غيره من الرجال.

كان لا يزيد إذ ذاك عن الخامسة والعشرين، لكنه كان إذا تكلم خلته شيخًا دربته الأيام وحنكته التجارب، وعندما وصلوا فى طريقهم إلى مقربة من موقع يقال له (سوق بصرى) أناخ الركب ليستريح من وعثاء السفر، فانتحى النبى صلى الله عليه

(١) السيرة الحلبية.

(٢) السيرة الحلبية.

وسلم ظلال شجرة قريبة من موقعهم، وجعل يجيل نظره فيما حوله متأملا متفرجا فتركه ميسرة ليزور بعض معارفه فى المدينة، وبينما هو فى الطريق إذا براهب من تلك الجهة يدعى نسطورا اقترب إليه وحياه سائلا عن الشخص الجالس تحت ظلال الشجرة قال:

- من قريش من أهل الحرم فأجاب الراهب:

- لا ينزل تحت هذه الشجرة إلا الأنبياء. أفى عينيه حمرة؟

- نعم

- فهرول الراهب نحو النبى وهو يردد قوله

- ليتنى أدرك وقت نبوته

وعندما اقترب منه تأمله طويلا ثم عاين النقطة التى بين كتفيه، وهى علامة النبوة وقفل بعد ذلك إلى صومعته مسحورا مأخوذ اللب على أثر ما وقف عليه وما تحققه من أن فتى القوم المتفىء ظلال الشجرة هو خاتم النبيين المنتظر.

* * *

ثم نرى النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الحادثة الهامة منهمكا فى تجارته منصرفا إلى بيع ما بين يديه بدراية ونشاط يعودان عليه بربح طائل، فوق ما كان يرجو ويؤمل.

لم تكن هذه المرة الأولى فى تجارته، بل سافر قبلها مرتين فى تجارة ومعه عمه أبو طالب، إلا أنه لم يربح فيها قدر الذى ربحه هذه الدفعة، فسر من فوزه سرورا عظيما، حيث علم أنه يعود إلى خديجة التى تلطفت معه كثيرا بربح وافر يقوم لديها مقام الذى أسدته إليه، فأسرع بالعودة إلى مكة ليزف إليها هذه البشرى، غير أن الإبل كانت قد أنهكها السير وأصبح اثنتان منها لا تقويان على الاستمرار مع الركب، فلا

مناص من الإناخة ريثما تستعيدان قواهما، فأسقط فى يد ميسرة ولم يدر ماذا يصنع لأنه أراد التعجيل بالعودة، حيث كان يرى أنهم تأخروا كثيرا عن ميعاد عودتهم.

رأى النبى وهو يراقب القوم بسكون وهدوء، ما هم عليه من ارتباك وقلق، فقام نحو الإبل، ووضع يده الطاهرة على الناقتين التعبتين وقرأ بعض الأدعية، وما كاد ينتهى من دعائه حتى انتفضتا متأثرتين بمغناطيسية خارقة للعادة ودبت فيهما (١) روح النشاط، سارية فى تلك العضلات المنهوكة سريان النار فى الهشيم، وعاد الركب إلى المسير بعد أن عاد النشاط إلى الابل، وسار القوم فى طريقهم هادئين واجمين مطرقين، وقد بهرتهم تلك المعجزة وسدت عليهم طرق التفكير. ماذا عساهم يقولون عن رجل يظهر مثل هذا الاعجاز؟ ماذا عساهم يرون فى رجل يزيل الأوصاب والمتاعب عن الأحياء بكلمة صالحة ينطق بها فمه؟ إنه الكمال المجسم، إنها القدرة التى تفوق قدرة البشر.

رأوا منه مالا يصدقوه لو - حدثهم به محدث. رأوا بأعينهم معجزة بهرت نفوسهم فأيقنوا تمام اليقين أن الشاب الذى رافقهم طول طريقهم بشخصيته البارزة، خارقة من خوارق قريش.

كانت الأصالة ظاهرة فى تلك الشخصية العالية، بارزة تتجلى فى سكونه وحركته، فأينما سار وحينما أقام اجتذب القلوب وسحر النفوس بنظرات فياضة ووجه مشرق ومزايا قل أن تجتمع فى إنسان.

أدرك القوم من أهل الركب، بأخلاقهم الصافية ونفوسهم الفطرية ما فى أحواله وأطواره من ميزة ظاهرة، واعتقدوا أنه لا يشابه أحداً من الناس فى صفاته وأخلاقه وأنه خارقة من خوارق قريش. إلى هذا الحد انتهت مداركهم ولو كانوا من نوى البصيرة لعلموا أن رفيق طريقهم لم يكن خارقة من خوارق قريش وحدها، وإنما هو

(١) السيرة الحلبية.

معجزة العالم بأسره، هو من اختاره المولى لتبديد ظلمات الجهل المتكاثفة تحت سماء ذلك العصر، ليصل بالناس إلى الهدى ونور العلم والإرشاد.

عندما وصل القوم (وادى فاطمة) طلب ميسرة من النبى صلى الله عليه وسلم أن يتقدمهم إلى خديجة، فحث مطيته نحو مكة فلما وصلها سار نورا إلى دارها. أما هى فكانت قلقة لغياب القافلة طول تلك المدة، فتوسلت إلى مولاتها نفيسة (١) أن تصعد معها إلى الطابق الأعلى من الدار، لتحدثها وتسرى عنها بعض ما لها من القلق والاضطراب. ولما اشتد بها القلق قامت إلى النافذة ترقب الطريق وتتأمل فيما حولها ويدها على مقعد بديع الصنع نظرت طويلا إلى المنفذ المؤدى إلى مكة فلاحت لها فى الأفق نقطة سوداء لم تتميزها فى بادئ الأمر، تقترب نحو مكة ثم تبينتها جيدا فعلمت أنها مطية يعلوها مسافر تقترب نحو دارها، فأدركت أنه الأمين. وقد لفت نظرها وهى تتأمل قدومه، غمامة تظلله مسرعة معه، ولم يكن فى السماء وقتئذ سحب أخرى سوى تلك الغمامة التى لا تفارقه أينما توجه، لتقيه حرارة الشمس فأثار المنظر مكامن الدهشة والاستغراب فى نفسها الطاهرة.

وبعد أن وصل إليها النبى صلى الله عليه وسلم وافضى إليها ببشرى ربحها الجزيل، علا وجهها البشر والإيناس، وطلبت منه أن يعود إليها بميسرة فعاد ثانية إلى مطيته يحثها نحو وادى فاطمة وقامت هى إلى سطح دارها لتراقبه سائرًا فى الصحراء والغمامة فوقه تنثر ظلال السلام حوله، تقف إن وقف وتسير إن سار. ولما وصل ميسرة حكى لها ما رآه من البراهين والكرامات (٢) وما تعرفه فى صحبته من البركات مع حسن السمت والهدى والدل، وبما قاله الراهب عنه، فما لبثت أن تاهت فى بحار التفكير وكلما لج بها الفكر انتقلت من حال إلى حال.

---

(١) علمنا من المصادر التى بين أيدينا أنها صديقتها وهى لعلى بن أمينه.

(٢) السيرة الحلبية

ما شاهده ميسرة وقصه عليها آيات بينات على أنه الرجل المنتظر، الخالد الذى سيرفع من شأن العصر. وشهادة الراهب والسحابة التى رأتها رأى العين، أمور زادت من أفكارها وآمالها حتى أصبح ذلك الوجه المبارك المشرق لا يغيب لحظة عن أنظار خيالها. أما شبح تلك الشخصية الكبيرة فقد غمر لبها وقيد روحها بسلاسل الجاذبية إلى أن استولى على عرش قلبها النبيل.

كانت تناهز الأربعين، أى أنها قطعت مرحلة لا يستهان بها فى طريق الحياة ولكنها مازالت فى نضارة الحياة، عليها مسحة من الجمال. وكان أثر جاذبيته منذ المقابلة الأولى بليغا راسخا لم تتمكن من محوه والتملص من قيوده، وقد زاد احتكاكها به أثر هذا الإحساس شدة، كلما تقابلت معه بعد ذلك، إلى أن كان يوم عودته من الشام، فإذا بتلك العاطفة وذلك الانجذاب قد تعمقا فى القلب، وتشبثا فى الروح فتحولا إلى حب شديد.

لقد فتن الرسول الهادى أم المؤمنين بلطفه وشخصيته النافذة وأخلاقه العالية، فوهبته قلبها وتعلقت نفسها الطاهرة بسلك محبته بكل ما فيها من قوة وجلد، وما كادت يدها تصل إلى هذا السلك النورانى حتى اهتز كيانها بقوة غريبة، وانقلبت حياتها الهادئة الساكنة إلى سلسلة من الأيام، حلقاتها مرائر الآمال والأحلام.

الفصل الثالث

جلست أم المؤمنين ذات يوم تغامر بحارا من التفكير(١) والتأمل، ثم انتفضت فجأة ونادت مولاتها نفيسة، وقد تمكن منها الشوق الشريف كل التمكن، وأخبرتها أنها سترسلها إلى دار محمد بن عبدالله فسألتها عن سبب الرسالة فأجابت:

- لتعرفى هل له ميل للزواج أم لا؟

فقامت على أثر ذلك تزور محمداً فى بيته.

جاءت نفيسة هذه ابن عبدالله وبعد حديث قليل قالت له:

- ما يمنعك أن تتزوج؟

فاعتذر لها بقلة المال اللازم للقيام بشئون العائلة. فأجابته:

- فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟

فلما سمع النبى ذلك أجابها:

- ومن هذه التى تصفينها؟

فأجابته فى الحال:

- خديجة بنت خويلد

فرد عليها صلى الله عليه وسلم:

- وهل يصح مثل هذا الأمر؟

- ما عليك أنك لو قبلت أعدك بإقناعها

---

(١) روضة الأحباب.

قالت له ذلك وصمتت تنتظر ما سيبدو منه، ولكنه ظل ساكتًا لا يجيب. فرجعت وقد رأت منه هذا الحال، تحمل إلى سيدتها بشرى القبول.

كانت ميمونة النقيبة فى رسالتها فالله يعلم كم أجزلت السيدة خديجة كرامتها!... لقد نزلت هذه البشرى بردًا وسلامًا على قلبها، فسرعان ما عينت موعد العقد فى الحال، وأرسلت نفيسة إلى دار الأمين ثانيا، تخبره بالحضور إليها فى اليوم المعين فقبل الرسول ذلك مسروراً، وبدأ الطرفان منذ ذلك اليوم فى معدات العرس.

كانت السيدة خديجة وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتقابلان قبل يوم الزفاف، وقد استأذن الرسول ذات يوم عمه فى الذهاب إلى دار خديجة فأذن له، ثم أرسل وراءه مولاته عتبة لترى ماذا يفعلان وفيم يتحادثان؟ فتعقبته امتثالا لأمر مولاها وكان النبى قد وصل قبلها، فأخذت السيدة خديجة يد الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعته على صدرها فوق قلبها الخافق ثم قالت له بتأثر.

– بأبى وأمى أنت أقسم أننى لا أفعل هذا لريبة أو لسوء، وإنما أطلب من المولى أمرًا أرجو أن يتحقق، وهو أن تكون نبيه المرسل وإذا اختارك الله لهذا الأمر الجليل عرفت قدرى ورفعت شأنى ودعوت إلى الله من أجلى، فكل ما أطلبه من الله هو أن يجعلك لى.

فأجابها سيدنا محمد بقوله:

– والذى نفس محمد بيده لأتذكرن جميل صنعك معى إذا تم لك ما تشتهين وإما إذا كان رسوله المختار غيرى، فإنك تصلين إلى غرضك إن شاء الله ما دمت تفعلين كل هذا فى سبيل الرسول.

هذا ما دار بينهما من الحديث نقلته عتبة إلى مولاها أبى طالب كما رأته وسمعته.

الفصل الرابع

أقبل القوم من بنى هاشم يوم الإملاك - وهو يوم العقد - وفيهم كريم فتيانهم ونجيب عشيرتهم، محمد بن عبدالله، يحف به عماه أبو طالب وحمزة (١) فنزلوا من بنى عمهم أكرم منزل وأسناه، حيث قابلهم واحتفى بهم عمرو بن أسد، عم السيدة خديجة. وبعد أن اكتمل عقد اجتماعهم قام أبو طالب بن عبدالله، سيد قريش وإمامها فقال:

"الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضئ معد (٢) وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخى هذا، محمد بن عبدالله، لا يوزن به رجلا إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وإن كان فى المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل وعارية مسترجعة. وهو والله يُعد له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد رغب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة، وقد بذل من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشا (٣).

ثم قام على أثر ذلك ابن عمها ورقة بن نوفل، وهو الذى فسر لها رؤياها الجليلة فقال

"الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت. فنحن سادة العرب وقادتها. وأنتم أهل ذلك كله. لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم فاشهدوا على معاشر قريش أنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن

---

(١) السيرة الحلبية.

(٢) ضئضىء الشىء معدنه.

(٣) النش عشرون درهما وهو نصف الاوقية ويروى انه اصدقها عشرين بكرة.

عبدالله(١)".

وكان ورقة فى موقفه هذا، ينطق بلسان عمرو بن أسد، عم خديجة فالتقيت إليه أبو طالب وقال:

- يا ورقة ادع عمها يشاركك فى العقد

فنهض عمرو بن أسد فقال:

"اشهدوا على معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد".

وهكذا صادق القوم على زواج النبى صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد. وكان الرسول جالسا بجانبها أثناء العقد، فلما انتهت الصيغة طلبت إليه أن ينحر جزورا من البقرات التى أصدقها عمه أبو طالب مهرا فذبح أحداها فى الحال، وأطعم القوم وأمرت خديجة نساءها فرقصن وغنين.

أما الرسول صلوات الله عليه فقد أفعم صدره سرورا حتى أن أبا طالب عندما لاحظ حالته الروحية حمد المولى كثيرا.

(١) ويروى أنه انتهى من خطبته بقوله وقد جهزتها بأربع مائة مثقالاً ذهباً.

الفصل الخامس

سعادة يالها من سعادة، تلك الحياة الطيبة الصالحة التى أمضاها النبى الهادى، فخر العالمين، مع سيدة النساء خديجة أم المؤمنين. كانت خديجة فى بيتها مع زوجها الجليل، فخر الكائنات المثل الأعلى فى المودة والمودعة والمواساة والترفع عن الكلفة وبذل المعونة، تقوم بأداء واجباته وقضاء لوازمه بجلال خاص بها، وتجتهد فوق ذلك كله، بكل ما آتاها الله من ذكاء وفطنة، وبكل ما جبلت عليه من شفقة ورقة أن تجعل أيام حياته تمر بلذة ساحرة وأنس لا مثيل له.

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى نظرها، شخصا فذا، يستحق العبادة والتقديس، وما كانت تشاهده فيه من درجات الكمال يزيد من قدر صفاته النادرة ومزاياه الجمة رفعة. هذه الحالة الروحية دفعتها إلى بذل النفس والنفيس فى سبيل مرضاته وما فيه سعادته، وأن تبدد بيدها الكريمة ما قد يتلبد فى سماء حياته من سحب الهموم والأكدار.

إن الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة الفطرية التى امتاز بها الرسول فى تلك الأيام، فى بيئة عم فيها الجهل والميل مع الأهواء، لما يلفت الأنظار ويستهوى الألباب.

كان نبينا المعظم المثل الأعلى والمعجزة الكبرى فى نظر الجميع، وليس فى مقدور امرأة متوسطة الذكاء أن تشارك مثله فى الحياة تقطع معه مراحل العمر.

ولقد كان رسولنا الهادى ومرشدنا الأعظم موفور الحظ، سعيد الطالع، إذ رزقه الله امرأة كخديجة ذات شخصية عالية تدرك جلال قدرة وعظيم استعداده ومواهبه، فتعمل فكرها لترفع معنوياته وتشاركه فى نورانيته وتملأ بمهارتها كل جوفاء من حياته. كانت السيدة خديجة فى نظره النغمة الحلوة التى لا تنساها الأذن والابتسامة العذبة التى لا يمحى خيالها من صفحة الذهن.

مضت حياتهما المشتركة فى وئام وسلام فقضيا خمساً وعشرين ربيعا لم يعكر صفوها عتاب صغير أو نكد طفيف.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخص زوجته باحترام كبير(١) فلها فى نفسه أسمى منزلة وفى قلبه أسمى مكان، لا يفتأ يعترف بشكرها، حتى أنه لم يخطر على باله طول معاشرته لها أن يتزوج سواها، مع أنها كانت أكبر منه سنا، وله منها صلوات الله عليه وسلم، ثمانية أولاد، أربعة ذكور وأربعة إناث وهم: القاسم والطيب والطاهر وعبدالله، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

(١) كتاب السير للويسى.

الفصل السادس

عندما بلغ نبينا الهادى ومرشدنا الكبير فخر الكائنات ورسولها الخطير، الأربعين من سنى حياته(١)، كان يرى الضوء والنور ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً. صار يرى الرؤيا الصالحة فى النوم وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ولقد يئست روحه العالية من أن تجد فيما حولها ما يروى أوارها من معرفة فاطرها الذى اشتد شوقها إليه، بل لعلها غلب لعله ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة فى كل رؤية وكل سمع ولذلك رأينا محمداً قد حبب إليه الخلوة والانفراد، وكان لغار "حراء"(٢) الحظ من هذه الروح الحائمة على حبيبها، تذكر الله وتطيل التأمل والفكر.

ففى يوم من أيام عزلته وقد تناهى صفاء قلبه بما اعتمده من الخلوة، انفض ختام السر المكنون وانكشف الغطاء عن الأمر المصون، جاءه الأمين جبريل برسالة الملك الجليل، فألقى عليه الآية الأولى(٣) من الكتاب المنزل.

رجع الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم من "حراء" ممتقع اللون، مرتجف الصدر، يعلوه الاضطراب الوجل الحائر وهو يقول:

- زملونى زملونى

فزملته السيدة خديجة حتى ذهب عنه الروع وهى مستغربة لما حدث ثم فتح عينيه الشريفتين فقال لخديجة بعد أن قص عليها الخبر:

---

(١) قصص الانبياء.

(٢) كانت عبادته فيه الفكر وقيل الذكر وهو الصحيح واختلفوا بأى الشرائع كان يدين تلك الأيام فقيل بشريعة نوح وقيل إبراهيم وهو الظاهر وقيل موسى عليهم السلام وقيل غير ملتزم شريعة أحد وهو المختار لظاهر قوله تعالى «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» واتفقوا أنه صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنما ولم يقارف شيئا من قاذورات الجاهلية «المعرب».

(٣) اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الاكرم.

– لقد خشيت على نفسى

فأجابت

– والله مـا يخـزيك الله أبدا أنك لتصل الرحم، وتحـمل الكل، وتكسب المعـدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وبعد أن هدأ روعه واطمـأنت نفسـه، انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن عمها فقالت له خديجة:

يا بن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة:

– يا ابن أخى ماذا ترى؟

فأخبره الرسول خبر ما رأى، فقال له ورقة:

– أبشـر يا مـحـمـد أنت خـاتم الأنبيـاء الذى أخـبـر به عـيـسى بن مـريم، وهذا الناموس الذى أنزله على موسى يا ليتنى فيها جذعا(١) يا ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك وإن أدرك يومك أنصرك نصرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

– أو مخرجى هم؟

فأجاب:

– نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وكان ابن عم خديجة هذا قد شبع من الأعوام وارتوى من حديث الآنام، تعلم العبرانية وقرأ بها الأسفار، وعرف بها الأديان ورضى بدين ابن مريم (عليه السلام) دينًا وقد صـدقت نبوءته وتحقق كل مـا أخبره به.

فتر الوحى بعد ذلك فترة طويلة بعد ورود جبريل الروح الأمين فى المرة الأولى فكان النبى يعتزل فى الغار مترقبا لذلك الجسم المهيب بشوق عظيم، ولكن بدون جدوى

(١) أى شاباً.

فيحزن لهذا الأمر حزنا شديدا. إلا أن السيدة خديجة التى كانت تقرأ صفحات قلبه وتعلم مكنونات ضميره وحالته الروحية تبذل كل ما فى وسعها لمواساته ودفعه إلى الصبر والطمأنينة.

كانت تؤيده وتؤازره وتشرح صدره وتخفف عنه أعباء الهم والحزن، تجالسه وتعاشره لتبدد عنه سحب الشك والريبة، تفاكهه وتحادثه برقيق الكلام وحلو الحديث مداواة لآلام نفسه، تسوق إليه العظات والعبر تطمينا لخاطره.

لقد أحبت بعلها حبا عميقا كبيرا بلغ من عمقه وخطورة شأنه أن أحاط الرسول بسياج يقيه من كل شر أو أذى، فكانت لروحه ظلا ظليلا ولقلبه بردا وسلاما. فلا بدع بما نراه فى هذه السيدة من الصفات التى تساعد على استقبال أمور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوج ذلك الرجل الذى سيأتيه أعظم الأمور، تشد أزره وتأخذ بيده. أما هو فكان يقابل كل هذه الصداقة الخالصة باحترامها ومودتها وإكرامها الإكرام الجزيل.

امتد أجل تلك الفترة إلى ثلاثة أعوام مضت بين مرائر الشبهة وآلام النفس، لم يتيسر للنبى الهادى رؤية جبرائيل عليه السلام أثناءها، وإنما كان يتراءى له ملك آخر هو إسرافيل يمده بالإرشاد والتعليم.

ثم عاوده الروح مرة أخرى والنبى صلى الله عليه وسلم معتكف فى حراء، غارق فى بحار التأمل والفكر، وقال له: "يا أيها المدثر قم فانذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر".

فكانت هذه الآية الشريفة مبدءاً للبعثة المحمدية وعلى أثرها تعلم الرسول الوضوء والصلاة ودعا السيدة خديجة إلى الإسلام فآمنت به، وكان وجهها أول وجه مبارك أشرق بنوره.

وكثر تردده صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلى (حراء) ونزول الآيات عليه، وكان كلما نزلت آية قرأها على السيدة خديجة لتثبت قلبه وتروح نفسه وتؤيد أمره. وجعل

يدعو من يأتمنه من أهل مكة سرا إلى أن آمن به كل أصدقائه ومحبيه ودخلوا فى زمرة الصحابة المكرمة حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" فامتثل صلى الله عليه وسلم بما أمر به، وأظهر دعوة الحق فكثر أنصاره واشتد حنق المشركين من قريش عليه فأجمعوا الشر له وعرض عمه أبو طالب للشر دونه، فلما رأت قريش ذلك، اجتمع أشرافهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا له:

إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيه. فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردًا جميلا. ومضى رسول الله على ما هو عليه فشرى الأمر بينهم وبينه حتى تولدت إحن وضغائن. ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وأعذروا إليه فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم، واشتد قولهم فى ذلك فعظم على أبى طالب فراق قومه ولم يطب نفسا بخذلانه النبى صلى الله عليه وسلم، ثم كلم الرسول فظن صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه تركه، والعجز عن نصرته، فقال:

– يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيا، وكان أبو طالب يحب ابن أخيه حبا جما، ولم يكن قد أسلم بعد، فما كاد يراه حزينا حتى قام إليه وألحق به يقول:

– يا ابن أخى قل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشئ أبدًا، وأنا على قيد الحياة.

أما أمنا خديجة الكبرى فقد ضحت فى سبيل الدعوة كل مال ونفوذ، فتؤازره وتثبت قلبه وتقوى حالته المعنوية؛ لتنسيه ما يلحقه من أذى المشركين.

كانت إذ ذاك فى الخامسة والستين، من سنى حياتها وكانت أكبر مسلمات مكة شأنا وأعلاهن نفوذا. كانت منبع الأمل الفياض تسكب معانى النشاط والعزيمة فى روح بعلها المبارك. ولكن قد آن لهذا المنبع الطاهر أن ينقطع عن فيضه الغزير شيئا فشيئا

حتى كان فى أواخر تلك السنين العشر الشداد من البعثة على سرير الاحتضار شخص عزيز جدا ترفرف روحه حائمة فى هذا المحيط الصغير إلى أن كان جاذب من أمر الله وسنته قضى بطيرانها إليه وأمر الله أعلى وإليه المصير.

هذه الروح، هى روح السيدة خديجة، تلك التى كان لانتقالها إلى جوار ربها وقع الصواعق فى الدار النبوى، تلك التى ماتت وتركت رسول الله فى حزن ووحشة.

* * *

دفنت السيدة خديجة بالحجون فى مكة، ونزل النبى صلى الله عليه وسلم فى حفرتها. وقد كان وفاتها عقب موت عمه أبى طالب، فأثر فيه ذلك تأثيرا شديدا.

كان يشعر بفراغ كبير فى الحياة، ولم يكن إذ ذاك من يستطيع أن يملأ هذا الفراغ. كان صلى الله عليه وسلم يقول عن زوجته إنها خير النساء فى الإسلام كما أن مريم خير نساء عالمها.

وقد أثنى صلى الله عليه وسلم على خديجة ما لم يثن على غيرها، وإنى لأسوق هنا حديثا مرفوعا عن زوجته الثانية السيدة عائشة دليلا على مكانة السيدة خديجة أم المؤمنين من نفس زوجها أكرم الكائنات صلى الله عليه وسلم.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد على السيدة خديجة حتى خشى عليه، إلى أن تزوج السيدة عائشة بنت أبى بكر بعد ثلاث سنوات من وفاة السيدة أم المؤمنين.

قالت السيدة عائشة: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها، وكان إذا ذبح الشاة يقول أرسلوا إلى أصدقاء خديجة، فذكرها يوما من الأيام، فأخذتنى الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزًا أبدلك الله خيرا منها، فغضب ثم قال: لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها، امنت بى إذ كفر الناس،

وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء، قالت عائشة فقلت فى نفسى: لا أذكرها بعدها بسُبة أبدًا" وذكرت ذات مرة فقال "إننى لأحب حبيبها، الوفاء من الإيمان".

ها هو حديث السيدة عائشة، كل كلمة منه آية بينة تنطق بعظة بالغة. فليس لى ما أقوله سوى أن من يتأمل قليلا فى سيرة هذه السيدة الطاهرة، وفى محبة الرسول لها قبل مماتها واحترام ذكراها بعد وفاتها، يدرك لأول وهلة ما امتازت به من شخصية بارزة ونفس عالية.

كانت تزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم خمسة عشر سنة، ولكنه مع ذلك أنزلها من نفسه المكانة السامية فى الحياة، وحفظ جميل ذكرها بعد الممات. فيا لله من تلك الجاذبية الشديدة والشخصية العالية! وهل أستطيع بعد ذلك كله إلا أن أختم سيرتها العبقة بالحديث النبوى الجليل:

الوفاء من الإيمان!

- ٢ -

أم المؤمنين السيدة عائشة

الفصل الأول

الهجرة النبوية

السيدة عائشة، هى بنت أبى بكر الصديق، من أعلام قريش عزة وجاها، وأحد الأربعة المقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإسلام، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية.

عقد الرسول صلى الله عليه وسلم عليها فى العام الثالث من انتقال زوجة السيدة خديجة إلى دار الخلد والبقاء. إلا أنه لم يدخل بها فى عامه ذلك لأن الزمان والمكان لم يسمحا بتلك السعادة إذ ذاك.

* * *

نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، إذ كانوا يخشون بأسه ويهابون سطوته، فلا يستطيعون إظهار البغض له علانية، مع أن مراجل قلوبهم كانت تغلى حقدا عليه، ونفوسهم الشريرة تضمر له ألوان السوء والكيد. ولما ماتت خديجة رضى الله عنها بعده بثلاثة أيام تضاعف حزنه صلى الله عليه وسلم.

فى مثل هذا الوقت العصيب، أى فى الآونة التى اشتد فيها حزن الرسول صلى الله عليه وسلم على فراق هذين الحبيبين، جهر المشركون بعداوته وأطلقوا العنان لحقدهم الكامن، يثور ثورة البركان، حتى أصبحت الإقامة فى مكة على هذه الحال مشقة ليس بعدها مشقة. بدأ المشركون يناوئون الرسول وأتباعه المقيمين فى مكة ولا يدعون وسيلة من وسائل الأذى والإقلاق دون إيصالها إليهم، وقد جربوا كل ما فى استطاعتهم من صنوف الكيد والأذى، لإرجاع النبى عن دعوته والحيلولة بينه وبين

رسالة ربه إلى الخلق، فقد كان كل واحد منهم حريصا على الفتك به واستئصاله والفراغ منه لو يقدر على ذلك. وقد دام الحال على هذا الوجه من الشدة والقساوة ثلاثة أعوام، فضاق الصحابة ذرعًا ولم يروا بدًا من الالتجاء إلى المدينة المنورة، فساروا إلى دار السلام مهاجرين أرسالا أحادا وثلاثا.

ومن الغريب أنه بينما كان المسلمون يلاقون مثل هذا الاضطراب فى مكة، إذا بهم يتكاثرون ويحتشدون فى المدينة، ولما كانت الدعوة قد وصلت كثيرا من القبائل وآمنوا بالرسول كانوا يكرمون وفادة المهاجرين فى طريقهم إلى المدينة، ويبذلون لهم المعونة والتعضيد، ولم يتخلف من أتباعه صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق، فإنهما حبسا أنفسهما على صحبة الرسول.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام ينتظر أمر ربه بالهجرة دون أن يظهر ذلك ،وكان أبو بكر رضى الله عنه قد تجهز للمهاجرة إلى المدينة وألح على النبى بأن يأذن له بذلك فقال له:

- "على رسلك وإنى لأرجو أن يؤذن لى"

فاحتبس أبو بكر الصديق لذلك.

ولما رأت قريش ما لقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من طيب الحال وحسن الجوار فى المدينة والمعونة، التى بذلتها لهم القبائل التى آمنت رهبوا ذلك وحذروا خروج رسول الله وكان أخوف ما يخافونه، هجرة النبى إلى المدينة، فيلتف حوله عصبة من المؤمنين يكونون نواة قوة إسلامية كبرى، فاجتمعوا فى دار الندوة كعادتهم وتشاوروا فى أمره فقر رأيهم على أن يجمعوا من كل قبيلة شريرا فيقتلونه دفعة واحدة فيفترق دمه بين القبائل، فافترقوا على ذلك بعد أن أقام الذين اختاروهم لهذا العمل على باب الرسول، فخر الكائنات، فى تلك الليلة.

الفصل الثانى

جاء جبريل الروح الأمين، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقصد المشركين، وبلغه أمر الهجرة واصطحاب أبا بكر الصديق معه، فقال النبى لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه.

"نم على فراشى ونسج ببردى هذا الحضرى الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شئ تكرهه".

ولما قعدوا على بابه لذلك، خرج عليهم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حفنة من التراب، فجعل ينثره على رؤوسهم، وهو يتلو صدر سورة يس وبينما هم ينظرون إلى بعض بعيونهم، وقد أذاها التراب أتاهم آت فقال لهم: ما تنتظرون؟ قالوا محمدا. قال لهم: خيبكم الله، قد خرج والله عليكم محمد ما ترك رجلا منكم إلا وقد وضع على رأسه ترابا، فتفقدوا ذلك فوجدوه كما قال. ثم دخلوا منزل الرسول ونظروا إلى الفراش فوجدوا عليا عليه السلام مسجى بالبرد، فظنوه النبى صلى الله عليه وسلم، فبقوا حينئذ متحيرين حتى أصبحوا، فقام على عليه السلام فحين رأوه قالوا أين محمد، فأجابهم بقوله لا أدرى: فاشتدت حيرتهم وأسقط فى يدهم(١).

وقد أثر اختفاء الرسول على هذا الوجه فى نفوس المشركين وحنق لذلك وجوه قريش، فأخذوا عليه بالرصد والطلب، وأطمعوا من يجده ويأتيهم به بمائة ناقة وبذلك خرج الأشرار والسوقة إقتفاء أثره صلى الله عليه وسلم.

أما الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم، فقد اختفى فى مكان بعد خروجه من منزله. وفى اليوم التالى أقبل نحو دار أبى بكر الصديق نحو الظهيره متقنعا

(١) نزل فى ذلك قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

فاستأذن صاحب الدار كما نقتضيه الآداب الإسلامية، فقام إليه أبو بكر رضى الله عنه يقول:

وإنما هم أهلك قال:

- قد أذن لى فى الخروج. فسأله أبو بكر.

- وهل أنا معك؟ قال:

- نعم

فبكى أبو بكر حينئذ فرحا وقال:

- بأبى أنت وأمى يا رسول الله فخذ إحدى راحلتى هاتين. فأبى الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بالثمن. واستأجر أبو بكر دليلا، ودفعا إليه راحلتيهما وواعداه مكانا يبعد نحو ساعة عن مكة، وفى ساعة معينة من ساعات المساء خرج الرسول فخر الكائنات ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه، واعتصما بغار فى جبل ثور على مسافة ساعة من مكة، وما كادا يلجان الغار، حتى أوحى الله إلى عنكبوته، فنسجت خيوطها على بابه وأعقب ذلك يمامتان بنتا عشا فوق خيوط العنكبوت وباضتا فيه.

وقد وصل القوم فى بحثهم عنهما إلى جبل ثور، وقاربوا الغار ووصل جماعة منهم، بينهم رجل يدعى أميه بن خلف باب الغار، فقالوا لبعضهم: لندخل هنا يا قوم. فأجابهم أميه:

ما أسخف عقولكم - إن العناكب قد نسجت خيوطها هنا، قبل أن يولد محمد، وأنظروا إلى اليمامتين لو كانا هنا لما أفرخت اليمامتان، فرجع القوم على أثر ذلك إلا أن الرسول والصديق كانا قد أبصرا بأقدام القوم، فاغتم أبو بكر لذلك وقال:

- لو أصابنى بأس يا رسول الله لما همنى ذلك، أما لو لحقك ضر لا سمح الله فتهلك جميع أمتك

– فقال له الرسول يريد تسليته:

– لا تحزن إن الله معنا.

وعندما قفل القوم راجعين وابتعدوا عن الغار قال له الصديق:

– يا رسول الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا فقال:

– أسكت يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما؟

مكث النبى صلى الله عليه وسلم وصديقه فى الغار ثلاثا يبيت عندهما عبدالله بن أبى بكر، وهو غلام شاب ثقف يدلج من عندهما وقت السحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، ثم يأتيهما حين يختلط الظلام ليخبرهما بأحوال قريش وحركاتهم. وكان على مقربة من جبل ثور أحد موالى أبى بكر رضى الله عنه، يرعى قطيعا من الغنم فيأتيهما بحليبها يتغذيان به.

وبعد الثلاث، جاءهم الدليل بالراحلتين فارتحلوا وأخذ بهم من طريق السواحل ما زالوا كذلك حتى جاءوا موقعا يسمى (قديد) ومروا على خيمة رجل يسمى أبو معبد ولم يكن بها سوى زوجه وأمه، فسألوا زادا عند (أم معبد) فلم يصيبوا عندها شيئا فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى خيمتهم، وسألها هل بها من لبن؟ قالت:

– هى أجهد من ذلك إنما خلفها عن الغم الجهد

فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها فى شاتها فتعاجت عليه ودرت، ودعا بإناء يربط الرهط فحلب وسقاها وسقى أصحابه، وشرب آخرهم ثم ملأه وغادره عندها.

ولما عاد أبو معبد إلى خيمته ورأى الرهط سألها ما هذا فقالت لا أدرى إنما حضر هنا رجل مبارك مسح بيده ضرع الشاه، وهو يقرأ بعض الأدعية فدرت لبنا كما

ترى. فأجابها:

- لابد وأن يكون فى الأمر بعض الحكمة صفى لى شكل هذا الرجل.

فوصفت له النبى صلى الله عليه وسلم، وما رأته عليه من المهابة والجلال فقال: هو النبى الذى ظهر من قريش ليتنى كنت هنا فابايعه على الإيمان.

* * *

وبعد متاعب جمة ومصاعب شتى ومعجزات باهرات، وصل الرسول صلى الله عليه وسلم قرية (قباء)(١) القريبة من المدينة المنورة، فلبث فيها بضع أيام يستريح من وعثاء السفر، وأسس مسجد قباء وهو أول مسجد فى الإسلام ووفد عليه وهو مقيم بهذه القرية، الأنصار الكرام، يتشرفون بنور طلعته ويهنئونه بسلامة الوصول إليهم. وكان بينهم حسان بن ثابت، شاعر المدينة المفلق، فمدحه بقصيدة بليغة. ووصل سيدنا على إلى زمرة الركب فى قباء بعد أن سلم ما كان فى عهدته من الأمانات إلى أربابها كما أوصاه الرسول، وتحرك الرسول منها فى يوم الجمعة ومعه مائة نفر من أهل الإسلام فأدركته الصلاة فصلاها فى بطن وادى (رانو ناء)، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة(٢) وختمها بخطبة بليغة قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه!

«أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مخافتين، بين عاجل قد مضى لا يدرى ما لله صانع له، وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فو الذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار».

---

(١) قباء بالضم هى مساكن بنى عمرو بن عوف من الانصار وقيل لبث الرسول فيهم أربع عشر ليلة وقيل ثلاثاً وقيل خمساً وأهل قباء يقولون أن مسجدهم هو الذى أسس على التقوى.

(٢) ورد فى كتب السير أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ موضع مصلاه مسجداً وسمى مسجد الجمعة.

وبعد أن قرأ خطبة أخرى ركب يريد المدينة، وكان كلما حاذى أومر على دار من دور الأنصار اعترضوه ولزموا بزمام ناقته يقولون: هلم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوة والمنعة" فيقول لهم.

- خلو سبيلها فإنها مأمورة

وقد أرخى لها زمامها وما يحركها، وهى تنظر يمينا وشمالا والناس حولها حتى بركت حيث بركت على باب مسجده، ثم ثارت وهو عليها، فسارت حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى، ثم التفتت يمينا وشمالا ثم ثارت وبركت فى مبركها الأول وألقت جرانها بالأرض وأرزمت فنزل عنها وقال: هذا المنزل إن شاء الله تعالى.

فاحتمل أبو أيوب رحلة وأدخله بيته. وعلى هذا الوجه الجميل أرضى الرسول جميعهم، ولم يصدع خاطر أحدهم. ولم يفرح أهل المدينة بشئ مقدار فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث صعد الرجال والنساء يوم قدومه فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون: جاء محمد. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان قرب المنزل الذى نزل فيه رسول الكائنات قطعة أرض فضاء، فشيد عليها مسجداً وابتنى فيه لنفسه المقدسة غرفا، وكان أهل المدينة إذ ذاك فى طوفان من السرور لا يدعون سبيلا من السبل التى فيها مرضاته إلا سلكوه فآخى بينهم وبين المهاجرين فآووهم فى منازلهم وقاسموهم فى أموالهم وآثروهم بأقواتهم وتلقوا المكاره دونهم وصار أحدهم أرأف بنزيله وأخيه فى الدين من أخيه فى النسب، واتخذوا ذلك الإخاء والولاء لحمة وسببا أعلى من كل سبب.

بهذه النتيجة العظيمة، وبهذه العاقبة الحميدة انتهت تلك الحادثة الخطيرة فى الإسلام. الهجرة.

الفصل الثالث

(زفاف عائشة الصديقة رضى الله عنها)

عند ما وصل أهل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إلى المدينة، نزلوا فى (بنى الحارث بن الخزرج) وفى الشهر الثامن من الهجرة النبوية، قام الرسول ومعه جماعة من الأنصار فشرف دار صديقه فى الغار، ودخل على السيدة عائشة رضى الله عنها وقد كانت هذه الزوجة الثانية المباركة من أزواج النبى، الصادق الوعد الأمين، صبية حسناء ذات غضارة ونضارة.

وإليك وصف حفلة زفافها من حديث لها قالت:

"تزوجنى النبى صلى الله عليه وسلم فأتتنى أمى وإنى لفى أرجوحة ومعى صواحب لى فأتيتها لا أدرى ما تريد منى، فأخذت بيدى فأوقفتنى على باب الدار فإذا نسوة من الأنصار فى البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتنى إليهن فأصلحن من شأنى، فلم يرعنى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين"(١)

وكانت معهما فى الحجرة (أسماء بنت) عمر فحدثت تقول: - لم يكن فى وليمة السيدة عائشة من الطعام سوى قليل من اللبن، شرب الرسول بعضه ثم مديده الكريمة بالإناء إلى عائشة فخجلت ولم تتناوله، فقلت لها لا تدرى ما يعطيه لك النبى صلى الله عليه وسلم وشربت أسماء ما تبقى.

---

(١) روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داوود والنسائى وفى هذا الحديث معان كثيرة منها استحباب الدعاء بالخير والبركة لكل من الزوجين وفيه استحباب تنظيف العروس وزينتها لزوجها واجتماع النساء لذلك وفيه جواز الزفاف نهاراً (المعرب).

على هذا النحو من البساطة والصفاء وقلة الكلفة تم زواج النبى صلوات الله عليه وسلم من السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها فى الشهر الثامن من الهجرة.

كانت عائشة صبية صغيرة ذات ملامح جذابة، وكانت فى عنفوان الصبى حتى أنها فى أوائل زواجها كانت لم تنقطع بعد عن لعبها مع صواحب لها. وهى فى انعكافها على ألعابها وانشغالها بعرائسها، وإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يدخل غرفتها على حين فجأة، فاستحيين رفيقاتها وتوارين فى الحال، أما السيدة عائشة فرمت عرائسها على الفراش وأسدلت عليهن مئزرا، فلعب الهواء بالمئزر وظهرت أطراف اللعب فاقترب الرسول منها وسألها ما هذا؟ فقالت:

- هى لعبى

- وسلم مبتسمًا.

وكانت أم المؤمنين عائشة، لبيبة فطنة، شاعرة، خطيبة يلقبها الرسول صلى الله عليه وسلم بالحميراء، ويحبها محبة أكيدة، وكان من دواعى سروره صلى الله عليه وسلم أن يرضيها ويعمل ما فيه سرورها، حتى توثقت محبته لها وازدادت مكانتها فى قلبه الطاهر.

كان الرسول يصلح نعله ذات يوم وكان الحر قد بلغ أشده، فتندى جبين الرسول وتلألأت قطرات العرق تتدحرج على خده. وكانت السيدة عائشة وهى تعجن الدقيق تشاهد هذا الحال بحيرة ووله، فالتفت إليها الرسول يقول:- ماذا دهاك؟

فأجابت:

- لو رآك الشاعر عروة بن الزبير، لكنت المعنى بقوله يا رسول الله فسألها أى قوله فأجابت حين يقول:

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد

لوامى زليخا لو رأين جبينه لآثرن بالقطع القلوب على الأيدى

فترك الرسول ما بيده، وقام إليها يقبلها من عينيها، وهو يقول ما معناه:

"قد سررتنى، سرك الله يا عائشة"

وقال لها الرسول ذات يوم وهو جالس عندها (ما معناه):

إننى أعلم وقت غضبك منى حيث تقولين إذ تحلفين ورب إبراهيم "أما إذا كنت راضية عنى فتحلفين برب محمد" فأجابت أننى يا رسول الله إذا غضبت أغفلت اسمك فأما حبى لك فلا يتغير.

كان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى أكثر أوقاته بجانب زوجته المحبوبة عائشة، وكان الناس أملا فى الحصول على رضى الرسول ينحرون بهداياهم يوم عائشة وكان الوحى ينزل عليه صلى الله عليه وسلم، وهو بجانبها، فلذلك كانت السيدة عائشة تشاركه فى تأثراته النبوية إذ كانت واقفة على دقائق أحواله وحركاته وكل شأن من شئونه.

وقد شكا زوجات النبى من تحرى المسلمين يوم عائشة لهداياهم فاجتمعن إلى أم مسلمة التى تقدمت بذلك إلى الرسول ورجته أن يخطر الناس بذلك فقال لها:

"لا تؤذوننى فى عائشة فإنه والله ما نزل على الوحى، وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها".

لم تيأس أم مسلمة من هذا الإخطار النبوى، بل عادت إلى تحقيق أملها وتوسلت هذه المرة بفاطمة الزهراء التى جاءت إلى أبيها تخبره بذلك إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم سألها هل تحبين من أحبه، فلما ردت عليه بالإيجاب قال لها إذن أحبى عائشة. قد كانت لعائشة منزلة سامية فى نفسه حتى كان صلى الله عليه وسلم يقول لزوجته الطاهرة أن حبه لها كالعروة الوثقى، لا انفصام لها. فكانت السيدة عائشة

تسأله من حين لآخر، اطمئنانا على مكانة هذه المحبة فتقول: كيف حال العروة يا رسول الله فيجيبها: إنها على حالها لم تتغير ولم تتبدل. وقد أثرت تعاليمه العالية فى نفسها الكريمة ووجدت منبتا صالحا حتى تشرب قلبها النبيل مبادئ الزهد والقناعة فكان عروة بن الزبير يقول عنها:

"رأيتها تتصدق بسبعين ألف درهم فى سبيل الله، وهى فى قميص خلق" وأخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت:

"أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها وهى يومئذ صائمة، فقلت لها أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه، فقالت لو كنت أذكرتنى لفعلت"

* * *

للسيدة عائشة ميزة خاصة وشرف وجلال بين مخدرات العالم الإسلامى، لم تتوفر لسواها من السيدات فقد كانت أديبة لبيبة، عالمة، خطيبة، شاعرة، من أفقه الناس وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا فى العامة. وعنها يقول عروة بن الزبير:

"ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة" يا له من فخار تحوزه السيدة عائشة، تلك التى استطاعت فى فترة كبيرة من حياة الرسول الشريفة أن تدخل عليه السرور والراحة وتغمر قلبه بالغبطة والأنس فكانت أمام عينيه الشريفتين التمثال المجسم للسعادة. وما كان ينقصها فى حياتها تلك إلا أن تكون أما لئلا تحرم من التكنى باسم طفلها إلا أن فخر الكائنات لم يدع سبيلا إلى غمها من هذا القبيل فكناها بابن أختها عبدالله بن الزهير إذ كان قد درج فى البيت النبوى الشريف، وشب بين أحضان العائلة النبوية المطهرة.

افتتن الرسول بخصالها الممتازة فتعلق قلبه الطاهر بحبها حتى كان أنس بن مالك يقول: "أول حب ظهر فى الإسلام حب الرسول صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين عائشة" أما أم المؤمنين فكانت تتباهى بهذا الحب وتقول فضلت على نساء الرسول

صلى الله عليه وسلم بعشر: فذكرت مجئ جبريل بصورتها، ثم قالت ولم ينكح بكرا غيرى ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى، وأنزل الله براءتى من السماء، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه، وقبض بين سحرى ونحرى فى بيتى وفى ليلتى، ودفن فى بيتى.

كانت من أحب خلق الله إليه هى وأبيها الصديق. كيف لا وقد أضاءت حياة الرسول بعلمها وجمال نفسها حتى صارت الجوهرة اللامعة فى عقد تلك الأيام السعيدة المباركة. لقد كانت تاج الفخار فى زمانها وخزينة السرور لسيد الكائنات! فطوبى لتلك النفوس العالية التى تترك أثرا من السعادة والأنس والصفاء فى محيطها التى تعيش فيه وفى الأحياء التى تشاركها والأشياء التى تلامسها، ولقد تظل ذكرى تلك النفوس خالدة بعد زوال رسومها، لتصور لنا جلال "الماضى" وتنفخ فى صورة "الحال" روح الخيال.

الفصل الرابع

(حديث الافك)

فى هذا الحديث وما أنزل الله فى شأنه عظة وذكرى لقوم يعقلون

فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة له مع قبيلة بنى المصطلق فى جهة (قدير) على مقربة من آبار (مر يسيع)، وكان معه من نسائه (١) السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها، فلما قفلوا ودنوا من المدينة، آذن الرسول ليلة بالرحيل وكانت السيدة عائشة محمولة فى هودج، إذ كانت آية الحجاب قد نزلت، فقامت حين أذن بالرحيل، ومشت لقضاء حاجة حتى جاوزت الجيش، فلما قضت من شأنها أقبلت إلى الرجل، ولمست صدرها فإذا عقد لها من جزع (٢) قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها وحبسها ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بها، فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركبه، وهم يحسبون أنها فيه وكان النساء إذ ذاك خفافا، فلم يستنكر القوم حين رفعوا، خفة الهودج فاحتملوه وساروا ووجدت السيدة عائشة عقدها بعد ما استمر الجيش، فجاءت منزلهم وليس فيه أحد وتيممت منزلها الذى كانت به وظنت أنهم سيفقدونها ويرجعون إليها، فبينما هى جالسة غلبتها عيناها فنامت.

وكان صفوان بن المعطل المسلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها، فرأى سواد إنسان قائم فاقترب منها، وعرف أم المؤمنين حين رآها حيث كان يراها قبل نزول آية الحجاب، فاستيقظت السيدة عائشة باسترجاعه حين عرفها،

---

(١) كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها معه (المعرب).

(٢) بفتح الجيم وسكون الزاى خرز فيه سواد وبياض.

وخمرت وجهها بجلبابها، فأفهمته حقيقة الأمر فهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها وانطلق يقود بها الراحلة إلى أن أتيا الجيش.

هنا يبدأ حديث الأفك، وفى هذا الحادث أخذ أصحاب الأفك يفيضون كما شاءت أهواؤهم السيئة وكان أشدهم نفاقا وأكثرهم خوضا، عبدالله بن أبى سلول ومن الصحابة حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وغيرهم، وقد تداول الناس هذا الحديث وشاع فى الأندية حتى بلغ مسامع الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق رضى الله عنه وأم رومان والدة السيدة عائشة وكانت السيدة أم المؤمنين لم تشعر بعد ما يفيض فيه الناس حيث ما كادت تصل المدينة حتى لزمت فراشها لحمى أصابتها وقد رابها فى وجعها أنها لا ترى من النبى صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كانت تراه منه حين تشتكى إنما كان يدخل فيسلم ثم يقول

- كيف تيكم (١)؟ ثم ينصرف

كانت هذه المعاملة تريب السيدة أم المؤمنين، ولا تشعر بالشر حتى نقهت، فخرجت هى وأم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزهم وكانوا لا يخرجون إلا ليلا وذلك قبل اتخاذ الكنف قريبا من البيوت، فأقبلت هى وأم مسطح حين فرغا من شأنهما يمشيان، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت

- تعس مسطح، فقالت لها السيدة عائشة

- بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا

- فقالت

- يا هنتاه ألم تسمعى ما قال؟

---

(١) تيكم بكسر الفوقية إشارة إلى المؤنث مثل (ذلكم) للمذكر

- فسألتها السيدة عائشة ما قال. فأخبرتها بقول أهل الإفك فازدادت مرضا على مرضها ولما رجعت إلى البيت ودخل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لها كعادته:

- - كيف تيكم.

- قالت له:

- أتأذن لى أن آتى أبوى؟

فإذن لها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما أتت إلى بيته أبيها قالت وهى ترتعد:

يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به؟

فقالت:

يا بنية هونى على نفسك الشأن، فوالله لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها.

فقالت:

سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا؟

ثم بكت السيدة عائشة تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم وكان أبوبكر رضى الله عنه إذ ذاك فى الطابق الأعلى مشغولا بتلاوة القرآن، فما كاد يسمع بكاء ابنته ونوحها حتى نزل إليها وطيب خاطرها قائلا:

صبرا يا بنية عسى أن ينزل الله فى شأنك آية

وقد زاد من حيرتها كتمان الأمر عنها، فازداد مرضها حتى أصبحت لا تستطيع القيام من فراشها.

ولما بلغ الأمر إلى رسول الله عقد مجلسا من أهله وأصحابه المقربين، يستشيرهم، وكان بينهم (على بن أبى طالب) و(أسامة بن زيد) وسيدنا عمر وعثمان

وغيرهما من كبار قريش وبعض السيدات، وكان من عادة الرسول أن يعقد مثل هذه المجالس العائلية كلما قضت الضرورة بذلك. فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال:

هم أهلك يا رسول الله ولا نعلم بهم والله إلا خيرا

وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال:

يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال

أى بريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك؟

فقالت له بريرة

لا والذى بعثك بالحق نبيا أن رأيت منها أمرا أغمصه(١) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن(٢) فتأكله.

أما سيدنا عمر الفاروق فقد أجاب بوقار ورزانة ما معناه أن الرسول قد تزوج عائشة بأمر الله، وأنه لا يريبه شئ من عائشة وقال عثمان إن هذه الإشاعة من أعمال المنافقين، وأنه لا يصدق شيئا من ذلك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبى سلول فقال وهو على المنبر:

"من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهل بيتى، فوالله ما علمت فى أهلى إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه شرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى"

فقام سعد بن معاذ أحد بنى عبدالأشهل فقال

(١) أغمصه بفتح الهمزة وكسر الميم وبالصاد المهملة أى أعيبها به.

(٢) الداجن بالمهملة والجيم الشاة التى تألف البيوت ولا يخرج إلى المرعى.

يا رسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ:

كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على ذلك

فقام أسيد بن حضير وهو إبن عم سعد، فقال معاذ لسعد بن عبادة:

كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

وتبادر الحيان، الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

ولما وصل الخبر إلى السيدة عائشة بكت يومها ذلك، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، ثم بكت ليلتها المقبلة فأصبح عندها أبواها وقد بكيت ليلتين ويوما حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وبينما أبواها عندها وهى تبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معها، وبينما هم على تلك الحال، إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلم ثم جلس ولم يجلس عندها من يوم قيل لها ما قيل، وقد مكث شهرا لا يوحى إليه فى شأنها بشئ فتشهد رسول الله حين جلس ثم قال:

– أما بعد يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله فإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته استعصى دمعها لاستعظام ما بغتها من الكلام وقالت لأبيها.

– أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال.

- قال أبوها:

- والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالتفتت لأمها تقول مثل قولها لأبيها فأجابتها كما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه. فالتفتت إذ ذاك السيدة عائشة وأجابت بقولها

- إنى والله قد علمت أنكم سمعتم ما تحدث الناس به حتى استقر فى نفسكم وصدقتم به، فلئن قلت أنى بريئة والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله ما أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون"

وبعد أن أتمت مقالتها تحولت، فاضطجعت على فراشها وهى تعلم أنها بريئة وأن الله مبرئها ببرائتها، وقد حدث ما كانت ترجوه فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ما فارق مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى انزل الله عليه الوحى، فأخذه ما كان يأخذه من البرجاء (١) حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان (٢) من العرق فى يوم شات(٣) من ثقل القول الذى أنزل عليه، ثم سرى عنه وهو يضحك. فكان أول كلمة تكلم بها أن قال:

- أبشرى يا عائشة أما الله فقد برأك

- فقالت لها أمها قومى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابت:

- لا والله لا أقوم ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى وكان ما أنزله الله عز وجل. "أن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم" العشر الآيات من سورة النور فى براءة السيدة عائشة، وقد أراد الرسول صلوات الله عليه أن يأخذ بيد عائشة، إلا أنها رفضت محتدة، حتى انتهرها أبوبكر والدها. أما الرسول فسار من وقته إلى المسجد وجمع أصحابه الكرام وقرأ عليهم خطبة جامعة وتلا عقبها سورة النور.

---

(١) الشدة والضيق (٢) اللؤلؤ (٣) شدة البرد.

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ينفق على "مسطح بن أثاثه" لقرابته منه وفقره. فقال. والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة ما قال، فأنزل الله تعالى. "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة" الى قوله "غفور رحيم" فقال أبو بكر:

- بلى أنى والله لأحب أن يغفر الله لى

- فأرجع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه. وجمع الرسول عقب نزوله آية البراءة أصحاب الإفك وأمر بحدهم للقذف.

* * *

قد سبب عقد السيدة عائشة هذا، قيلا وقالا، حتى لم يبق أحد لا يعرف قصة هذا العقد المكون من أحجار اليمن، وكانت أم المؤمنين عائدة مع رجال الجيش من غزوة أخرى، فنزلوا فى موقع قريب من المدينة يدعى (صلصل)، ففقدت عقدها مرة ثانية فاهتم الرسول بالأمر وأوقف جميع القافلة للتحرى عنه، مع أنهم كانوا فى موقع قاحل لا ماء فيه ولا نبات، فعطش رجال الجيش ولم يجدوا ماء للوضوء ولحقهم كرب شديد وقد بحثوا كثيرا دون جدوى حتى اضطروا للقيام إلا أن أم المؤمنين عثرت عليه تحت راحلتها (١) فغضب رجال القافلة، وشكوا ما لحقهم من الضر إلى أبيها أبى بكر الصديق رضى الله عنه. فاستفزته الحمية وقام من فوره يقصد بيت الرسول لينهر ابنته، وليضع حدا لحوادث العقد، تلك الحوادث التى تتكرر وتوجب الاضطراب. وما كاد يصل حيث يريد حتى وجد الرسول نائما على ركبة ابنته أم المؤمنين، فاقترب منها وبادرها بالتوبيخ وقارص الكلام وهى ساكتة: لا تبدى ولا تعيد، احتراما للرسول صلوات الله عليه وسلم وهو فى تلك الحالة. إلا أن الرسول سرعان ما بشر أبا بكر بنزول آية التيمم وعندما تلاها على أصحابه الكرام علموا أن السبب فى نزولها هو أبو بكر رضى الله عنه.

---

(١) السيرة الحلبية.

من أحب انسانا أحب حبيبه. فكم جيدا زينت تلك العقود المصنوعة من جزع اليمين!. ولكنها كانت أمتعة للزينة، ليس لها أثر من ذكرى التاريخ، فظلت مهملة الذكر فى صحائف الحوادث. قد تكون للحلى أيضا درجات من الميزة بقدر ما يكون للتأثرات والمشاعر من الأهمية بالنسبة لموقع أصحابها فى الحياة أن حوادث أيامنا لها من الأهمية والمكانة بقدر الاهتمام الذى يبذله أصحاب هذه الحوادث نحوها. فعقد السيدة عائشة كان حيلة ذات قيمة بقدر امتياز السيدة نفسها وخطرها فى الحياة وإلا لما كان شغل صفحة كبيرة من التاريخ الاسلامى.

الفصل الخامس

(حجة الوداع)

قد زال ما كان بين الرسول وزوجته من الجفاء بسبب حادثة العقد، فعاشا فى أنس عميق وراحة حقيقية. كانت السيدة عائشة الأنيس الوحيد لروح الرسول فلم يعتور حبه لها أدنى شائبة فى وقت من الأوقات. لم تبد سحابة واحدة فى سماء سعادتها، منذ السنة السادسة حتى الحادية عشر من الهجرة. لقد وقفت حياتها فى سبيل الرسول وبذلت ذات نفسها وذات مالها فى طريق الدين وفى سبيل إيصاله الى درجة الكمال.

أما الاسلام فكان آخذا فى الانتشار والشيوع بسرعة مدهشة محيرة للعقول. وكما أن الزهرة الطيبة التى يتعهدها المرء بالتربية فى أرض خصبة لا تلبث أن يعبق أريجها المعطر مع الريح، كذلك الإسلام كان يذيع ويشيع فيمتد فى الممالك والأمصار ويستولى على القلوب فيشتد نفوذا وتشبثا يوما بعد يوم.

كان لأريجه أثر سحرى، يجذب القلوب ويأسر النفوس، فيكبلها بروابط وثيقة لا ينفصم عراها. فأخذ عدد الأتباع يزداد بسرعة تفوق حد الوصف وخاضوا غمار غزوات عديدة فى سبيل تأييد كلمة الله، خرجوا منها ظافرين غانمين تخفق فوق رؤسهم ألوية النصر.

رسخت عقيدة الإسلام فى تلك القلوب الصافية وقوى إيمانهم فاندفعوا بقوته إلى الأمام يحطمون ما يعترض سبيلهم من حواجز وموانع.

ووقفت المدنيات القديمة حيرى، أمام هذه العقيدة الجديدة، لا تبدى ولا تعيد، ثم ما لبثت أن طأطأت لها الرأس، ومدت لها يد الإخلاص والأمان. كان التيار جارفا فلم يستطع أن يقاومه إلا القليلون.

فى مثل هذا العهد الزاهر من الدعوة الاسلامية، أى فى السنة العاشرة من هجرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، أعلن الهادى، فخر الكائنات أتباعه أنه سيزور مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فتوافدت القبائل والعشائر من الجهات زرافات ووحدانا على المدينة المنورة، ينتظرون اليوم الموعود. ولأيام قلائل خلون من ذى الحجة خرج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطريق بعد صلاة الظهر ومعه أهل بيته وأصحابه وأربعون ألفا من حجاج المسلمين، فوصل مع هذا الجمع الحاشد إلى مكة المكرمة فى اليوم الرابع من ذى الحجة، وبعد أن ابتهل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه وطلب المغفرة وحسن المآب تقدمت إليه القبائل الوافدة من الجوار الأخرى، فأدوا الجميع فريضة الحج.

لاحظ الرسول أثناء سفره أن البعير الذى يحمل هو دج السيدة عائشة يسير بسرعة كبيرة لخفة جسمها ولقلة أحمالها، بينما كان البعير الحامل لزوجه الأخرى السيدة صفية، يسير ببطء وهوادة لسمنها ولكثرة أحمالها، فأمر الرسول بأن ينقل حمل السيدة عائشة إلى رحل السيدة صفية وأحمال هذه إلى رحل الأخرى جاء إلى عائشة يستسمحها لهذا العمل فغضبت من ذلك وأجابته بكلمات قاسية فلم يجاوبها الرسول إلا أن الحادثة وصلت مسامع أبى بكر، فهرول نحو ابنته وصفع خدها، فما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم يرى هذه المعاملة القاسية حتى أخذ صديقه، فأجابه ألم تسمع ما قالته لك فأفهه فخر الكائنات أن الذى دفعها إلى ذلك هو غيرتها، وأن المرأة إذا غارت لا تدرى ما تقوله، بل تكيل القول جزافا وكان يوم عرفات يوم الجمعة، فأدى الرسول فريضة الحج مع مائة ألف ونيف من المسلمين وعقب الصلاة خطبهم هذه الخطبة البليغة.

"الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى

الله، واخصكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير. أما بعد أيها الناس، اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة أو السقاية والعمد قود(١) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائه بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس إن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله. وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم. ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان، ألاهل بلغت اللهم اشهد أيها الناس إن لنساءكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق: لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خير ألا هل بلغت اللهم اشهد أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لإمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن

(١) القود القصاص ، أى القاتل عمدا يقتل.

أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت الله اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت الله اشهد. أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله، قد استمع جمع حاشد من المؤمنين هذه الخطبة وكان عددهم كبيرا، فلا يصل صوته المبارك إلى جميعهم فأخذ ربيعة بن أمية أحد أصحابه الكرام، يكررها عليهم بصوت جهير.

وبعد الإنهاء من الخطبة أذن بلال ثم أقام صلوات الله عليه وسلم الصلاة وصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، وفى مساء ذلك اليوم نزل عليه قوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا" قالوا ولما نزلت هذه الآيه علم أبو بكر بقرب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فبكى.

وبعد أن خطب الناس، وألقى على جماعة المسلمين نصائح عديدة سواء فى مكة أم فى طريقه إلى المدينة أنبأ صلى الله عليه وسلم، وهو فى موقع قريب من المدينة بقرب صعوده إلى الرفيق الأعلى وعند وصوله إلى المدينة، مرض الرسول مرض الموت، وأول ذلك أنه خرج من جوف الليل إلى البقيع فدعا للأموات واستغفر وتضرع كالمودع وأصبح مريضا من يومه.

ولما رجع من البقيع وجد السيدة عائشة تتوجع من صداع ألم برأسها، وهى تقول:

- "وارأساه"

فقال لها الرسول:

- ذاك لو كان وأنا حى فاستغفر لك وأدعو لك.

فقالت:

– واتكلتاه والله إنى لأظنك تحب موتى، ولو كان ذلك لظللت أخر يومك معرسا ببعض أزواجك.

فابتسم الرسول وبذلك تمكنت من إدخال بعض السرور على قلبه.

وكان بين يديه ركوة أو علبه فيها ماء فكان يدخل يديه الماء فيسمح بها وجهه.

كان الرسول هادئا ساكنا فى أشد أوقات مرضة، ينام باهتا مغمضا، ثم لا يلبث أن يفتح عينيه الشريفتين فيدعو ويستغفر، وكانت السيدة عائشة تلازمه على الدوام ولا تفارقه لحظة واحدة، وكان وهو على ركبتها يسمع بلال مؤذنا للصلاة فيقوم بقدر جهده وطاقته يصلى بالناس، ولما اشتد عليه وطأة المرض، وكان ذلك قبل وفاته بثلاثة أيام، عجز عن الخروج إلى الصلاة واجتمع الناس فى المسجد، وأذنوه بها فهم بالخروج فعجز فقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، فصلى بهم أبو بكر رضى الله عنه حتى إذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول والمؤمنون صفوف فى الصلاة كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم سترة الحجرة فنظر إليهم وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم ضاحكا فبهت الصحابة وهو فى الصلاة من شدة مانالهم من الفرح بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن الرسول خرج للصلاة فأشار إليهم بيده الكريمة أن أتموا صلاتكم وعندما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم حجرة عائشة فى يومه ذلك نام متمددا واضعا رأسه الشريفة على فخذها، ولما جاءه جبريل يستأذن فى دخول عزرائيل عليهما السلام غشى عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، ثم قال اللهم الرفيق الأعلى فأتم الملك أمر ربه ورفع تلك الروح العالية إلى أعلى عليين، حيث الرفيق الأعلى وهو فى حضن زوجه أم المؤمنين وما كادت تشعر بذلك حتى أجهشت فى البكاء.

الفصل السادس

عندما توفى رسول الله صلى ﷺ، كانت أم المؤمنين عائشة فى الثامنة عشرة من سنى حياتها. فانزوت فى كسر دارها مع جواريها تقطع مراحل العم فى هدوء وسكون، وتفنى دقائق الحياة فى تلاوة القرآن وعبادة الديان.

كانت على جانب كبير من الذكاء، تلم بمسائل كثيرة من الفقه، كما أنها على نصيب وافر من سائر العلوم، كانت أحب زوجات الرسول، وقضت معه شطراً كبيراً من الحياة. فلا غرو إذا وعت فى حافظتها ما كانت تسميه وتراه من ضروب الأحكام الدينية والمعاملات الشرعية، ولا عجب إذا رأينا الصحابة وعيون الأنصار يتخذونها المرجع فى أحكام الدين ومسائل الشرع الشريف، وقد ضربت بسهم وافر فى الفتاوى الشرعية. فكانت إذا ذكرت أمام (عطاء بن أبى رباح) قال :

«كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة» وعنها يقول عروة «ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة».

بلغت الأحاديث التى روتها السيدة عائشة ألفين ومائتين حديثاً وعشر. من ذلك مائة وسبعون حديثاً أجمع الاتفاق عليه، وأخذ منها البخارى أربعة وخمسين حديثاً.

أما فضلها وحسن رأيها فيكفى أنها كانت المرجع لأمثال عمر ومن إليه من فحول الصحابة. أما فصاحتها فيكفى أن يزكيها مثل معاوية بقوله «لم أسمع خطيباً أبلغ ولا أفصح من عائشة» وقال بن قيس : «سمعت أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان بن عفان فلم أجد فى أقوالهم الجزالة والعذوبة التى تترقرق فى كلام عائشة»، وكانت تروى الشعر وتعلم وقائع العرب وحروبهم وسيرهم حتى أنه ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا. وفى حديث للنبى ﷺ عن أبى موسى أنه قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وعندما أسس سيدنا عمر بن الخطاب ديوان بيت

المال فى زمان خلافته وخصص مرتبات سنوية لزوجات الرسول ﷺ ، فكان يعطى كل واحدة منهن عشرة آلاف درهم إلا عائشة، فقد جعل لها اثنى عشر ألفا. وقد عارض بعض الناس فى هذا الامتياز الصادر من رجل العدل عمر، دون أن يفهموا الغرض منه وسألوه عن السبب فأجابهم: «ذلك لأن عائشة كانت محبوبة الرسول»

أما هى فكانت تبذل ما لديها من مال ونشب فى وجوه البر والخير وتهوين حاجات أهل العوز والمساكين، وفى سبيل إعلاء كلمة الدين.

كانت تزور الكعبة فى كل عام ثم تعود إلى المدينة، فهذه الزيارات التى دامت إلى السنة الرابعة والثلاثين من الهجرة هى فترات الحركة فى حياتها الساكنة، فقد مضت أيام حياتها على نسق واحد من النظر فى شئون الخير والإحسان ومن التفرغ إلى العبادات وحل ما يستعصى على المسلمين من الأحكام والمعاملات.

كان لأهل المدينة عاطفة حب شديد واحترام عميق نحو شخصها المحبوب إذ كانوا يقدرون ذكاءها ويباهون بحسن رأيها، ويرون فى زوجة الرسول المعززة بين ظهرانيهم، الذكرى الخالدة التى تذكرهم بأيام السعادة.

الفصل السابع

(وقعة الجمل)

كانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت من المدينة إلى مكة، ليالى حوصر عثمان بن عفان، ثم رجعت من مكة إلى المدينة، فلقيها فى الطريق، عند موقع يقال له (السرف) بعض أولاد خالها، وهو عبيد بن أبى سلمة، فقالت له:

- ما وراءك؟

فقال:

- قتل عثمان.

قالت:

- فما صنع الناس بعده؟

أجاب:

- بايعوا عليا

قالت:

- ليت هذه انطبقت على هذه، إن تم الأمر لصاحبك ثم رجعت إلى مكة وهى تقول:

- قتل عثمان والله مظلوما والله لأطلبن بدمه

فقال لها الرجل:

- لا والله . إن أول من أمال حروفه لأنت! والله لقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر(١)

(١) كان ذلك لقبا لعثمان بن عفان.

الفصل السابع

(وقعة الجمل)

كانت عائشة رضي الله عنها قد خرجت من المدينة إلى مكة، ليالى حوصر عثمان بن عفان، ثم رجعت من مكة إلى المدينة، فلقيها فى الطريق، عند موقع يقال له (السرف) بعض أولاد خالها، وهو عبيد بن أبى سلمة، فقالت له:

- ما وراءك؟

فقال:

- قتل عثمان.

قالت:

- فما صنع الناس بعده؟

أجاب:

- بايعوا عليا

قالت:

- ليت هذه انطبقت على هذه، إن تم الأمر لصاحبك ثم رجعت إلى مكة وهى تقول:

- قتل عثمان والله مظلوما والله لأطلبن بدمه

فقال لها الرجل:

- لا والله . إن أول من أمال حروفه لأنت! والله لقد كنت تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر(١)

(١) كان ذلك لقبا لعثمان بن عفان.

عدد كبير من أهل البصرة حتى بلغ عدة جيشها ثلاثين ألفا. فلما انتهى ذلك إلى أمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجهه. قام فخطب الناس وأعلمهم الحال وقال: «إنها فتنة وسأمسك الأمر ما استمسك بيدى. ثم بلغه ما هم فيه من الجموع والتصميم على الحرب. فنهض إليهم فى جيش من المهاجرين والأنصار. وكان معه من أهل المدينة اربعة آلاف : ثمانمئة منهم من الأنصار وأربعمائة من الذين بايعوه تحت الشجرة المشهورة. وكان أكثر أهل البصرة مع جيش عائشة. فالتقى الجمعان بظاهر البصرة فى مكان يسمى (الخريبة) وجرت خطوب وحروب. ففى بعضها التقى على كرم الله وجهه والزبير فقال له

- يا زبير ما أخرجك؟

قال

- أنت ولا أراك أهلا لهذا الامر

فقال سيدنا على

- أتذكر لما قال رسول الله ﷺ لتقاتلنه وأنت ظالم

قال

- اللهم نعم ولو ذكرت لما سرت مسيرى هذا. ووالله لا أقاتلك ابداً ثم انصرف عازما على ترك الحرب ولكن قابله للأسف فى الطريق رجل يدعى (عمير بن جرموز) فقتله. وأتى عليا برأسه فغضب لذلك وقال:

- بشر قاتل الزبير بالنار.

وتقابل سيدنا على مع طلحة أيضا فقال له:

- يا طلحة تطلب بدم عثمان؟ فلعن الله قتلة عثمان. ما بايعتنى؟

قال:

- بايعتك والسيف على عنقى.

ولما تراءى الجمعان كان عسكر عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم، عشرين ألفا، فقبل أن تنشب الحرب، وعظهم أمير المؤمنين، وندبهم إلى الصلح وبذل لهم كل ما ليس عليه غضاضة من جهة الدين، فمالوا إلى الصلح شيئا وباتوا على ذلك ولكنه نشب القتال بين القبيلتين فى الغداة ودامت الحرب يوماً وليلة، وأصاب سهم عاثر رجل طلحة فأعطبه، فدخل البصره رديفا، وقد امتلأ خفه دما فمات من النزيف بدار خربة من دور البصرة، وقبره اليوم بالبصرة فى مشهد محترم عندهم(١)

وأما عائشة رضي الله عنها فإنها كانت على جمل فى هودج وقد ألبس هودجها الدرع والنسائج الحديد، وهى تراقب حركة القتال وقد ترامى جندها على الموت، حباطة لها، وذياداً عنها حتى لقد قتل حولها المئات والألوف، وقطعت على زمام هودجها سبعمائة يد وكلما نزعت عنه كف نزعت إليه أخرى، وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال حتى كأنه القنفذ، وما أصاب قوائمه من السيوف. وقد ظلت السيدة عائشة فى محفتها حتى المساء، وقد وضع فى مكان بعيد عن الناس. وكان أخوها - محمد ابن أبى بكر - من أصحاب على كرم الله وجهه فأمره أن يمضى إلى أخته وينظر هل هى سليمة ثم أدخلها ليلا إلى البصرة فى دار عبدالله بن خلف، وظلت هناك حتى بدء شهر رجب بأمر الإمام على وقد أحسن إليها كرم الله وجهه غاية الإحسان، وجهزها بكل ما ينبغى لمثلها، وأذن لها بالرجوع واختار لها اربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات لأجل مؤانستها فى الطريق وسيرها صحبة اخيها - محمد بن أبى بكر مكرمة وقد شيعها ولدا الامام - الحسن والحسين رضى الله عنهما، فلما كان يوم رحيلها، حضر الإمام وحضر الناس فقالت عائشة رضى الله عنها»:

---

(١) تاريخ ابن الوردى.

«يا بنى(١) لا يعتب بعض على بعض أنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم، إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتى لمن الأخيار» وقال على كرم الله:

«صدقت والله. ما كان بينى وبينها إلا ذاك، وانها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة»

ثم سارت وشيعها الإمام أميالا. وتوجهت هى إلى مكة وأقامت بها إلى الحج وانصرفت إلى المدينة.

(١) وإنما قالت ذلك لأن نساء النبى هن أمهات المؤمنين.

الفصل الثامن

لو استثنينا وقعة الجمل لرأينا أن السيدة أم المؤمنين قطعت الرحلة الطويلة من الحياة – من السنة العاشرة للهجرة إلى الثامنة والخمسين منها – فى العبادة وتلاوة القرآن والتضرع، وفى وجوه البر والمواساة ورواية الأحاديث وتخريج المسائل الفقهية.

على هذا المنوال البديع سارت السيدة عائشة فى حياتها الجميلة، تلك الحياة التى وقفتها على سبيل إعلاء كلمة الله. من أجل ذلك أحبها الناس، ومن أجل ذلك كان يتباهى بها أهل مكة، ويفتخر بشخصها الكريم أهل المدينة.

أقر علماء زمانها وفحول الرجال من معاصريها نبوغها وتفوقها حتى ذاعت شهرتها فى الممالك والأمصار

صفحة حياتها الخالدة، تلك الصفحة المشرقة من صفحات الإسلام انتهت وقائعها فى العام الثامن والخمسين من الهجرة.

وكان وصيتها عندما وافاها القدر المحتوم أن ينزلها (ذكوان) مولاها فى قبرها ثم يعتق نظير هذه الخدمة

وما كادت تلك الروح الشريفة تصعد إلى بارئها، حتى علا النحيب واشتد بكاء من فى الدار، فأرسلت أم سلمة جارية لها تستوضح الأمر وما كادت تنقلب إليها بالخبر المشئوم حتى بكت هى أيضاً، ثم قالت: «كانت عائشة من أحب الناس إلى الرسول بعد أبيها الصديق»

توفت إلى رحمة ربها فى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان المكرم، ودفنت فى تلك الليلة ومشى جميع أهل المدينة فى جنازتها، وقد صلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه أما الذين نزلوا قبرها فهم عبدالله وقاسم ولدا محمد بن أبو بكر، وعبدالله بن عبد

الرحمن، وعروة وعبدالله ولدا الزبير رضى الله عنهم.

ماتت هذه السيدة الفاضلة عن خدمات جليلة وحسنات شهيرة حببتها إلى الأمة الإسلامية فخلفت العالم وراءها فى ظلام دامس لا مثيل له..

شعر أهل المدينة بعظيم رزئهم وجليل خطبهم، كما أحسوا بيتم حالهم بعد أفول تلك النجمة العالية من بينهم، فبكاها الكل، بكاها الرجال قبل النساء، والشيوخ قبل الشباب إذ كانت قد شملتهم جميعا بأردية فضلها وأغطية برها وخيراتها.

إن المخدرات الاسلامية فى تلك الأزمان السعيدة، أى من بدء عهد الإسلام، كن قد ارتقين إلى مستوى عصرهن الراقى فوهبن أنفسهن العالية إلى أعمال الخير والفضل حتى النفس الأخير، فكان عمر إحداهن عصر قائم بنفسه، وترجمة حياة الواحدة منهن صفحة جليلة من صفحات التاريخ. ولقد سطعن فى سمائه ببهجة وإيناس كما كن الشهب الثاقبة فى سماء الإسلام فى العهد القصير الذى تلألأت فيه أنوارهن الباهرة.

لاحت أنوارهن زمنا قصيرا فى سماء الإسلام شأن كواكب الأسحار، إلا أننا مازلنا نلمس آثار وميضهن فى طيات الصحف. وهذا ما يبعث فينا الأمل والسرور، فها نحن أولاء نبدأ اليوم، بفضل تلك الأنوار، والإسلام فى محنة وقتامه، يملؤنا الشعور والأمل بأن نخلف بعدنا صحائف خالدة مثل صحائفهن.

- ٣ -

العباسة بنت المهدى (أخت الرشيد)

الفصل الأول

أى قارئى العزيز

لو سرحت الطرف فى حدائق الأدب الأفرنجى، مفكراً فى أشعارهم العالية، مدققاً النظر فى آدابهم النفيسة ومؤلفاتهم القيمة وما يتخللها من مزايا ومآثر، وما تتضمنها من درر ألفاظ وغوالى حكم، ممتعاً نفسك بعبير الذكريات القديمة المتضوعة من جوانبها، تعلم وتشعر بأن لكل أمة من الأمم وقائع خاصة بها، وحوادث اشتهرت عنها تتمشى مع طبيعتها الشعرية وتمتزج بحالتها الروحية.

تصقل الأيام والعصور تلك الصفحات المشرقة الماضية والحوادث المفجعة والوقائع المؤلمة، فلا تصل أسماعنا إلا وقد ازدادت روعة وجمالا فنصغى إليها بشئ من الدهشة تتملك نفوسنا .

إننا نعجب من أبهة تلك الوقائع وندرة ما فيها من الشخصيات، فنشعر بلذة معنوية تبطن أعماق نفوسنا، فنغوص لجتها بارتياح ولذة.

من الذى يصور لنا تلك الوقائع وينفح الروح فى أشخاصها فيصيرها خالدة لا تزول مدى الدهر ولا تمحى أبد الآبدين؟ هم أهل الفن وأرباب الخيالات، هم الشعراء والأدباء، فالكاتب بقلمه والمصور بريشته، والحفار بمثقبه، والموسيقى بألحانه والشاعر بأوزانه يخرجون لنا صوراً حية بارزة من تلكم الحوادث المؤلمة والوقائع المدهشة؛ لا نكاد نراها أو نسمع بها أو نلمسها فى صورهم وآثارهم وأقوالهم حتى تسيل نفوسنا رقة، وتخفق قلوبنا شفقة، على أبطالها الذين تذهب نفوسهم ضحية على مذهب الشهوات والمطامع.

الفن هو الذى يجعلنا نفتتن بتلك النواصى الحزينة الحلوة، الفن هو الذى يصيرنا نعتقد بأن لهذه الشخصيات جمالا نادراً مقطوع القرين، فننجذب إلى قصص

حياتهم المملؤة بالأعاجيب وحالما نأتلف بهم نحن إليهم ونحبهم. أما أسماؤهم الأعجمية فهى كالتماثيل الغريبة فى طريق لغتنا الأصلية وموقعهم الممتاز فى تلك الحوادث له أثر بليغ فى نفوسنا، ولذلك لا نكاد نذكرهم إلا بشئ من اللوعة بين الآهات والزفرات.

فتنتنا الآداب الغربية فسرنا مع تيارها، وأصبحنا نقلد كل أساليبها، فهل أصبنا المرمى؟!

لو وقفنا عند حد ترجمة ونقل الموضوعات التى تنقصنا، والتى تغرينا على نشر العلوم والمعارف بين ظهرانينا، وتأخذ بيدنا إلى مناهج الرقى والفلاح، لو وقف بنا الأمر عند هذا الحد، لكان عملنا صالحاً وسعينا جميلا، ولكن الأذواق الغربية استولت على مشاعرنا واحساسنا وأرواحنا فنسينا ما يحيط شخصيتنا من لطف وظرف، وبذلنا ما فى وسعنا من إرادة وعزم للتشبه بملقنينا حتى تخدرت أعصابنا بعدوى مرض (البانورزيزم) أى التقليد الأعمى وليتنا استطعنا أن نروى ظمأنا أو ليتنا نفكر فى الزمن الذى نضيعه هباء فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية.

لو رجعنا البصر كرة واحدة إلى ماضينا المجيد، ذلك الماضى المشرق بأنوار المجد والفخار، لعلمنا مقدار خطئا ولأسفنا من استخراج معلوماتنا من دفائن الأدب الغربى فحسب.

خزائن آثارنا الشرقية مملوءة بالكنوز والنفائس التى تبهر الأبصار ببريق لمعانها وإشراق ضيائها. فى زوايا تلك الخزائن بذور مواهب كامنة لا يمكن للغرب أن يجود بها على الشرق يوما من الأيام. لو نظرنا إليها وأعرناها جانبا من العناية والالتفات لكنا الآن أصحاب ثروة قومية حفظها لنا الجدود بالمتاعب والآلام..

فقل لى بربك، أما ترى أن فيما تركه لنا السلف خير مما نستعيره من الغرب عندنا من الكنوز شىء كثير: أموال ومجوهرات خالصة من كل غش وخداع عليها طابع الإسلام لم تمسها الأيدى ولم تنظرها الأعين حتى الآن.

لو أردنا لاستطعنا أن نحيك لأنفسنا جلابيب مهفهفة من تلك الأنسجة الحريرية النادرة. ولو شئنا لجعلنا تلك الأقمشة الثمينة ملابس تتمشى مع الطراز العصرى، ولو شئنا لكسونا تلك المخلفات القديمة أحسن الصور والأشكال التى تجعلها من أجمل صناعات اليوم، وبذلك نعقد لأنفسنا ألوية الظفر والفخار فى ميادين الفن. إننا لو أردنا لاستفدنا من شخصيات عديدة ووقائع كثيرة ذات أثر كبير، فكل الأدوار الإسلامية مملوءة بالحوادث العظيمة، وقد اشتهر كل عصر من عصور تلك الأدوار بأسماء أبطال يحركون فى النفس عوامل الشفقة والإعجاب

إن فى سلسلة الحوادث المفجعة التى تمت أيام الرشيد وانتهت بموت العباسة وختمت بمأساة البرامكة، لعبراً تزرى بأشعار (روميو) وما يتخللها من حب وصداقة، وعظات تطفىء ما يتخلل قصة (جوليت) من أنوار الإخلاص والوفاء. لم لا تتناول الأقلام هذه القصة؟ إن هذين القلبين الوفيين، قلب جعفر وقلب العباسة، ليستحقان التصوير والتحليل، فلِم لمْ تلاقى حادثتهما الاهتمام اللائق بها؟ هل كانت حياتهما الشاذة، تلك الحياة التى ذهبت ضحية الغرور والاستبداد موضوعاً تافها فى آثارنا القومية؟..

الخطأ الكبير الذى ترتكبه الرؤس الكبيرة أقل أثراً من النتائج السيئة التى يولدها الخطأ نفسه. فإذا كان الخطأ شينا وعاراً كانت الخسائر الناجمة من هذا الخطأ أكثر شينا وأشد عاراً.

عندما نقلب صفحات التاريخ وتقع أنظارنا على بعض المظالم المدهشة، لانتمالك من تبجيل أيامنا الحالية - ولو على غير اختيار منا - أمام الوقائع الدموية التى حمى وطيسها فى تلك الأزمنة.

نرى اليوم ارتقاء هيئتنا الاجتماعية فنقدس فى أنفسنا هذا الرقى التدريجى. زماننا - على أى الحالات ومن كل الوجوه - زمان الإنسانية ولو فكر أولئكم الخلفاء المستبدون فى وقع ضرباتهم الأليمة، لو علموا أثرها الكبير وانعكاسها المدهش لامتنعوا عن تلك المظالم التى ارتكبوها ولضحوا غرورهم فى سبيل الاحتفاظ بحسن الذكرى.

الفصل الثانى

الجوهرة النفيسة فى عقد بنى العباس، الزمردة الثمينة بين درر النساء، تلك التى كانت قلادة تزين جيد العصر الثانى من الهجرة، أخت الخليفة وبنت الخلافة. ذهبت ضحية الأقدار وفريسة الظروف القاسية.

السيدة العباسة، اللبيبة الذكية، أجمل بنات المهدى، ثالث خلفاء بنى العباس، تمثال المأساة فى ميدان التاريخ الاسلامى، وسحاب قاتم، خلط بياض شهرة الرشيد بسواد دائم.

كانت معززة مكرمة فى عائلتها الهاشمية النجيبة لما امتازت به منذ نعومة أظفارها من الفطنة من والكياسة وحسن الذوق والبلاغة. فكانت تنزل من نفوسهم منزلة سامية، منزلة التقدير والإجلال.

أما قصة حياتها وأوائل نشأتها، فهى أسطورة جميلة تشتاق الآذان لسماعها والتلذذ بخيالاتها.

مرت أيام صباها فى بغداد كنسمات الصبح بين أحضان حدائقها، فاكتسبت من بدائع الطبيعة رونقها، واستعارت من الورود نفحاتها، ومن البلابل نغماتها، ومن ساعات الفجر وأوقات السحر بهجها وضياءها، هامت فى أودية الجمال، جمال الطبيعة، فأشبعت روحها وأنظارها من كوثرة العذب.

نشأت وترعرت فى مسارح الذوق والصفاء، وفى مجالس الأنس والدلال، وفى مغانى السرور والابتسامات، فشبت موسيقية الطبع. جميلة الروح، فاتنة الشكل، متحلية بالأدبين: أدب العلم وأدب النفس، كلفة بالشعر، كلفها بالورود والأزهار ونفائس المعنويات والماديات.

فتحت أنظارها فى أبهة قصرها المشرف على الدجلة، فشاهدت ما حواه من طنطنة ودبدبة ومتعت النفس بدهاليزه المعنبرة وغرفه المزهرة فازدادت بهجة وجلالا.

إنها ملاك جميل: ملاك لا نسمع بذكره إلا فى أساطير الأولين إلا أنها تمتاز عن ملائكة الأساطير بقصر حياتها. ولو دققنا النظر فى تلك اللآلىء التى تزين جيدها، لآلى مآساتها وأيام حياتها، لو جدناها قد انتظمت على سلك من الأحزان والآلام. إن المرء ليفضل قلادة خزفية على تلك الجواهر المنظومة فى سلك الأكدار. هذا أمر طالما تمنته. فكم أرادت أن تبيع عقدها لقاء أيام من السعادة طويلة الأمد ولكن الدهر القاسى، الدهر المتسيطر على عالمنا الحقير أبى عليها هذه النعمة. بل عاداها وأشهر عليها حربا عوانا لتشتها فى خلع عقدها وقد كانت تراه نيراً يستعبد روحها.

لم تمت العباسة لأنها تعقبت آثار الغواية المعوجة كلا.إنما أرادت أن تجنى ثمار الأمل دون أن تحفل بالقدر أو تعبأ به فماتت وتدهورت تحت عجلات الأقدار ودفعت بجسمها لهذه الدنيا دينا هو فى ذمة كل انسان يعيش على وجه البسيطة، فكان مقتلها منقبة تاريخية وضياعها باعثا على تسجيل اسمها فى صحيفة الأسماء الخالدة.

الفصل الثالث

البرامكة الذين كانوا غرة فى جبين الدولة العباسية وتاجا على مفرق أيام الرشيد، هم أحفاد بعض المماليك من الفرس الذين استوطنوا بغداد أيام خلافة المنصور. كانوا قديما على دين المجوس، ثم أسلم من أسلم وحسن إسلامهم. استوزر المنصور جدهم خالد بن برمك، فكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة التامة فى شئون الحكم والإدارة وضربت بمكارمهم الأمثال، وشدت إليهم الرحال ونيطت بهم الآمال بذلت لهم الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتهم أوفر اسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول دافقة والغيوم ماطرة. أسواق الآداب عندهم نامقة ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا فى أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة.

أما يحيى بن خالد، وهو والد جعفر فكان فخر العائلة البرمكية وكان من عادته إذا ركب أن يعد صرارا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها إلى المعترضين له يمينا ويساراً، فإذا رآه الناس بشروا بعضهم البعض بتدفق غيوث خيراته وحسناته عليهم.

يحكى أن أحد أعدائه البخلاء اضطر فى إحدى المجالس أن يصافحه إلا أنه ما كاد يضع يده فى يد يحيى حتى أرجعها خائفا مذعوراً، فنظر إليه يحيى نظرة المستغرب النافذ فأجابه:

- أخاف إن صافحتك أن تسرى إلى عدوى جودك وكرمك(١). كان قصر البرامكة على شاطئ الدجلة قبالة قصر الخلافة، وكانت أبوابه مفتوحة ليل نهار

---

(١) لعل الاميرة تعنى بذلك قول الشاعر:

لا ترانى مصاحفا كف يحيى — اننى ان فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى — لسخت نفسه ببذل النوال

للزائرين من غادين ورائحين، وكان أبو نواس يسمى دارهم ملجأ الإسلام، وهو القائل فيهم:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغاد

أراد يحيى بن خالد البرمكى أن يلقى على الهادى، وقد كان ضعيف الرأى(١) درسا محسوسا فى أيام وزارته له – رغب الهادئ فى شراء جارية حسناء بمبلغ مائة ألف دينار، فاستعظم وزيره هذا المبلغ وأفهمه غبن هذه القيمة الباهظة إلا أن الهادى أصر فى رغبته، ولم تجد نصائح الوزير نفعا فتلمس يحيى وسائل أخرى لتسوية الأمر، وبينما كان يفكر فيما يجلبه مثل هذا الإسراف من الخراب على الدولة خطرت بباله حيلة جميلة : جمع من الدراهم ما يوازى قيمة المائة ألف دينار وبعثرها فى صحن الجامع الذى يصلى فيه الهادى، وعند وصول الهادى إلى الجامع فى صلاة الجمعة ومعه يحيى نظر إلى الدراهم، المائة أرجاء الجامع شرقا وغربا، فقال:

– ما هذا؟ ما أكثر هذا المال

فوجد الوزير الفرصة سانحة وأخبره بأن هذا القدر من المال هو ثمن ما سوف يدفع لمشترى الجارية، فاستعظم المبلغ ورجع عن عزمه. وكان يحيى يعجبه أخلاق هارون الرشيد ويفضله على أخيه الهادى وعندما حاول الهادى خلع أخاه من ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر بن الهادى، حادث يحيى فى ذلك فقال له.

– يا أمير المؤمنين إن فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر كان ذاك أوكد فى بيعته.

(١) إننا لا نقر الأميرة على هذا الرأى لأن المعروف عن الهادى أنه كان متيقظا غيورا، كريما شهما شديد البطش جرىء القلب مجتمع الحس ذا أقدام وعزم وحزم. (المعرب)

فصوب الهادى رأيه، وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده

بعد انتهاء عهد الهادى وقد ظل عاما واحدا، بايع الناس أخاه هارونا والفضل فى ذلك راجع إلى يحيى، فعظمت منزله البرامكة من نفس الرشيد وأظهر امتنانه لهم فى كل فرصة سنحت. كان ينزل يحيى منزلة الوالد. استوزره فى أوائل خلافته وترك مقاليد الأمور وديعة له يعمل فيها برأيه الثاقب وحنكته وتجاريبه فى الحياة، فكانت أكثر النواحى والأمصار تحت زمام حكمه وسيطرته، وبعد أن تقلد الوزارة بضع سنوات أصبح ابنه جعفر الوزير المخلص للرشيد ورفيقه ونديمه وصديقه العزيز، ذا المكانة السامية فى سويداء قلبه لا يفارقه لحظة من اللحظات. كان جعفر إذ ذاك فى العشرين من عمره وكان أخو الخليفة فى الرضاعة(١)، فكانت أبواب النصر ودائرة الحريم مفتوحة الأبواب له على الدوام، ولحسن محضره ولطف حديثه أصبح محبوبا مألوفا من أفراد عائلة الرشيد.

كان جعفر طويل القامة، نحيف البنية وسيم الوجه أبيض اللون، مستدير اللحية، ذا عينين براقتين وابتسامة حلوة حديد المزاج، فاضلا كريما على جانب عظيم من العلم والفضل وله من موارد الثروة ما لا يقل عن الخليفة، فلا يكاد يوجد فى بغداد إنسان لم يصبه جانب من كرم فضله ومروءته، فكان محبوبا من الجميع يعتبره الناس النجم المتألق فى سماء عرش العباسيين.

وكان يرى بنفسه كل المسائل المعضلة فيحل عقدتها برأيه الثاقب، ويريح الخليفة من هموم الإدارة وأعبائها، ومع أنه لا يغمض له جفن ولا يستريح فى ساعة من ساعات الليل فضلا عن النهار فى مصالح السلطنة، فكان لا يفارق الخليفة فى مجالسة أو

(١) ظنّ الرشيد إنما هو الفضل وليس جعفر وكان الرشيد يأنس بجعفر أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل.

منادمة. وكان أديبا أريبا يعلم الشعر ويفهم الموسيقى، ولذلك لم يبق انسان فى بغداد لا يقدر قيمة هذا الوزير المقطوع القرين.

أحضر العلماء والحكماء وأمرهم بترجمة الكتب الأجنبية وشجع الفلاسفة والمفكرين وأسس دور العلم ونشر التجارة والطبابة والحكمة فى ربوع بغداد حتى أصبحت محطا لرحال العلماء وقطب رحى الآداب والفنون، ولم يمض على هذه المدينة إلا القليل حتى سميت (أسواق الآداب)

كان الرشيد يغدق النعم والخيرات على من يجلب له السرور ويسبب له الغبطة فيضحى إيراد بيت المال وضياعه الخاصة فى سبيل شخصه، أما جعفر فكان يصرف ماله فى سبيل المحافظة على مجد الرشيد وأبهة ملكه وخلافته التى يتفانى فى خدمتها. وكان مع ميله إلى اللذات يصرف نصف أمواله فى وجوه البر والحسنات. اشتهر الرشيد بحسن إدارة جعفر وما نال القاب الحمد والثناء إلا بفضل سخاء جعفر. ثم كان بعد ذلك من أصحاب الحكمة والحجى باستعداد جعفر وكفاءته كما أصبح قرين العلماء، جليس الأدباء، نديم بارشادات جعفر وبجعفر فحسب كان الرشيد رشيدا.

ما أجلها روحا، تلك الروح العالية والنفس الأبية التى تستنسخ من إياها من أشخاص أخرى، ولا تفقد بذلك بهجتها وأضواء كمالها. كان الرشيد فى بداية حكمه مسودة لوحة فنية تحتاة إلى ألوان عديدة وإصلاحات كثيرة وبمرور الزمن أصبحت تلك المسودة الناقصة فى أيام وزارة جعفر لوحة فنية نفيسة، وظهرت فى معرض التاريخ بتلك الأبهة والعظمة.

وإليك الحكاية الآتية دليلاً على الروابط القوية والألفة المتينة الموجودة بين الرشيد وجعفر:

قيل : إن جعفر بن يحيى جلس يوما للشرب، وأحب الخلوة فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم وجلس معهم، وقد هيأ المجلس، ولبسوا ثيابا مصبغة وكانوا إذا جلسوا فى

مجلس الشراب واللهو لبسوا ثياب الحمر والصفر والخضر ثم إن جعفر تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله سوى رجل من الندماء كان تأخر عنهم اسمه عبدالملك بن صالح ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك ابن صالح بن على بن عبدالله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل، فاتفق أن هذا (عبد الملك بن صالح) حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخامله فى حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح العباس، فأدخله على جعفر بن يحيى، فلما رآه كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضا للقصة وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبدالملك وقال:

– لا بأس عليكم أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيئا فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه، وجلس بباسط جعفر ابن يحيى يمازحه، وقال.

– اسقونا من شرابكم

فسقوه رطلا وقال:

– ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا

ثم باسطهم ومازحهم ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه، ففرح بذلك فرحا شديدا وقال له

– ما حاجتك؟

قال:

جئت – أصلحك الله – فى ثلاث حوائج، أريد أن تخاطب الخليفة فيها، أولها أن على دينا مبلغ ألف درهم أريد قضاءه وثانيها أريد ولاية لابنى يشرف بها قدره. وثالثها

أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة، فإنها بنت عمه، وهو كفء لها.

فقال له جعفر.

– قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال ففى هذه الساعة يحمل إلى منزلك: وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر. وأما الزواج فقد زوجته فلانة، ابنة مولانا أمير المؤمنين، على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف فى أمان الله.

فراح عبد الملك إلى منزله، فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى، وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فما خرج جعفر. من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد(١).

(١) الفخرى.

الفصل الرابع

تلك هى ثقة الرشيد بوزيره وأنيس قلبه وحبيبه العزيز جعفر وإلى هذا الحد البعيد وصلت دالة الوزير على مولاه الخليفة. كان يرى بنفسه أكبر شئون الدولة وأعوصها. فيقيم أوزانها ويفصل فى قضاياها سواء كان فى حضور الحاكم أو فى غيابه. وسواء علم الرشيد أم لم يعلم. فهل كان يخطر على البال أن تنفرج بينهما شقة الخلاف؟وهل كان يظن أن الشمس تشرق عليهما ذات يوم وهما مختلفان متنافران، وقد أحبا بعضيهما واستوثقا من نفسيهما إلى هذا الحد؟ لم يكن بين الخليفة ووزيره سر مكتوم، فكل سرائر الخليفة ونياته صفحة مفتوحة أمام جعفر، وكل دخائل جعفر وخفايا نفسه ملم بها الخليفة. فهل يأتى عليهما يوم ينكر فيه أحدهما للآخر؟ ما كان يمضى يوم دون أن يذهب رسول من قصر الخلافة إلى قصر البرامكة. ما أكثر ما كان يخرج جعفر من حضرة الرشيد فيرسل فى طلبه! وما أكثر الأوقات التى خرجا فيها إلى الصيد والقنص! ما أكثر الليالى التى أمضياها معا جنبا إلى جنب يتفقدان فيها أحوال بغداد! ما أكثر الهدايا والتذكارات الثمينة التى يهدى بها الخليفة وزيره الصادق! فهل كان لكل هذه الأوقات والساعات والليالى والأيام نهاية وحد؟

نعم كان لها مدى وغاية. كانت الأيام الدائرة، تلك الأيام التى تمضى بمئات من المشاغل والحوادث تقترب ببطء وهدوء لهذه الغاية. كانت السحب المتكاثفة فى سماء مستقبل الوزير تنذر باحتمال حدوث هذا الانقلاب التدريجى. لأن أعداء جعفر كانوا يتكاثرون ويتفاقمون بنسبة استفحاله فى الشهرة وبعد الصيت توهم أنه يستطيع أن يستهوى أفئدة الخلق ويستعبد قلوبهم بقيود نعمته وسلاسل جوده. وقد فاته أن الناس قد تنسى كل حسناته إزاء نعمة واحدة يغدقها عليه الخليفة أو ميزة من المزايا يختصه بها دونهم.

أولا الحسد وما تنطوى عليه الصدور من الأحقاد لولا ما يحمله الإنسان لأخيه الإنسان. من ضغينة وغل لما استطاعت رياح الأقدار أن تطفئ شمس سعادته المضئ.

كثر الساعون فى إخلال روابط الثقة المتينة التى بين الخليفة ووزيره، واشتد ساعد الذين يحملون المعاول الهادمة لهذه الثقة. وبين هؤلاء الساعين الأميرة زبيدة فإنها نفرت منه منذ حادثة مكة وانتهزت كل فرصة سانحة لتكون ضده. إنها لم تنس نظرات جعفر المصوبة إلى ابنها الأمين وهو يحلف ثلاثا يمين. الطاعة وعدم الخيانة بين يدى أبيه الرشيد وفى حضوره فى بيته الله الحرام، لم تنس سعيه فى تنصيب المأمون لولاية العهد بعد ابنة الأمين، بل أسرت ذلك فى نفسها، متوعدة الانتقام يوما ما من هذا المملوك الفارسى.

لم يتدرع جعفر إلا بالنعمة. وكان مرتاح الضمير ولذلك لم يخش خصومة أحد حتى ولا تنكر الخليفة عليه. لم يشك فى إنسان ولم يتوهم أن الخليفة قد يحنق أو يحقد عليه فى ساعة من الساعات، لم يخطر على باله أن الخليفة قد يرتاب به أو يسىء إليه الظن، وهو يشاهد من شرفة قصره جماهير الخلق المحتشدة فى الضفة اليسرى من الدجلة حول قصر البرامكة. لم يدرك أن هذا العالم إلى فناء وبوار لأن سجف السعادة والرفاهة كانت تستر الحقيقة عن عينيه.

كان ينظر إلى هذا العالم بعينى مسافر يقطع الصحراء ووجهته السراب يخطو إليه مبتهجا مسرورا مفتونا مأخوذ اللب. كان يعيش آمنا مطمئنا غير حاسب لعاديات الدهر حسابا لماذا؟ لأنه كان واثقا من مودة الخليفة. كان يعلم أن منزلته من نفس مولاه الرشيد هى منزلة العباسة من نفس أخيها، أجل إن الرشيد ما كان يستطيع صبرا عن مفارقة أخته العباسة التى شبت ونشأت معه وشاركته فى أهوائه وميوله. كانت اللذة من مشافهة العباسة لا تقل لذة عن محادثة جعفر، وإن سروره من سماع أشعارها يعادل ابتهاجه من منادمة الوزير له، وكما كانت أدبيات أخته تجلب له السرور والانشراح، كذلك مواعظ جعفر وأقواله الحكيمة تثلج صدره وتدعوه إلى الاغتباط. كان

يفتخر بجاذبية العباسة ويباهى بوقار الوزير ورزانته. وبالإجمال كان لا يحتمل مفارقة أحدهما فكانا يجلسان إليه معا فى القصر والحديقة ومغانى اللهو يتناشدون الأشعار ويخوضون فنون الحكمة والفلسفة. كانت العباسة على علم ناضج وأدب رائع، تعد من حكيمات عصرها وعالمات زمانها، وكان الرشيد يسر من الرجوع إليها فى كثير من معضلات المسائل العلمية ويناقشها ويجادلها الساعات الطوال فى مختلف الفنون وعندما كان ينبئ الأميرة زبيدة بطرف من هذه الحوادث كانت تغضب ويظهر عليها أثر الانفعال. كانت لا تهضم علو كعب العباسة فى العلوم ودرجتها المعنوية الرفيعة، فكانت تنفس عليها هذه الرتبة وتغار منها مع أنها على حظ وفير من العلم.

عندما كان يجلس الثلاثة، الرشيد والعباسة وجعفر، فى المجالس المعنبرة ذات القباب المكسوة بآيات الفن من قصر الخلافة، فيخوضون لجة الحديث والمسامرة ويشقون عباب الشعر والموسيقى وتمتلئ نفوسهم بالغبطة والهناءة، ينسون بغداد ولا يخطر على بالهم شأن من شئون العالم. من يدرى أى الدرر من غوالى الألفاظ وثمار القرائح ونتاج العلم الناضج كانت تسقط فى أرجاء تلك المجالس؟ لو كان للجدران المغطاة بقطع الديباج والمكسوة بأنفس الحرائر لسان ناطق لأتحفنا اليوم بنكات لطيفة ومعان مبتكرة جميلة وحسنات من اللفظ لا تخطر على البال... ولكن قد تداعت الجدران وطارت الأستار على أجنحة آلهة الشعر وذهبت تلك الايام أدراج الرياح، ولم يبق لنا من ذلك الماضى المشعشع سوى خزانة محدودة من الخواطر. أننا لنمتطى الآن سفينة الذكرى، ذكرى (الانس المثلث) الرشيد والعباسة وجعفر، ونخوض خضم تلك الأيام فلا نجد شيئا ولا نشعر إلا برذاذ من أمواجه..

كان الرشيد مغتبطا بهذا (الأنس المثلث)، وكان يرمى بنفسه فى أحضان هذين العزيزين لينسى مشاغل اليوم ومتاعب الإدارة؟ كان يشعر بهناءة كبرى من تلك المحادثات والمنادمات التى يعقدها فى المجالس ذات القباب، ولا يكتم شعوره هذا عن العلماء وأكابر رجال الدولة ممن يمثلون بين يده.

كان يثنى على ذكاء العباسة ويقدر بلاغة جعفر ويباهى بمنادتهما له. هذه الحالة الروحية كان ينفر منها العلماء الذين كانوا يتغافلون أو يتغاضون عن مجالس اللهو والشراب المنتشرة فى العصر الثانى من الهجرة. كبر عليهم مجالسة العباسة للرشيد فى حضور جعفر، فسددوا إليه سهام نقدهم ولومهم. لم ينتقدوا رفاهة العظماء واستفحالهم فى ضروب اللذة، الأمر الشائع فى ذلك العصر مثل انتقادهم لهذا الأمر وكان الرشيد لا يستهجن هذا النقد ويرى أنهم محقون فى هذا اللوم، ولكنه لم يستطع أن ينقطع عن أمر يشبع روحه باللذائذ المعنوية، فلم يألّ جهدا فى التفكير وإعمال الروية لإيجاد حل معقول للمسألة، وفى النهاية جمع علماءه فى القصر فعقدوا مجلسا لهذه الغاية.

أعمل العلماء رويتهم وشحذوا قرائحهم، فوجدوا أحسن حل للمسألة أن يعقد لجعفر على العباسة إلا أن الرشيد لم يقنعه هذا الرأى. إن العباسة سليلة العائلة النبوية لا يمكنها أن تتزوج بجعفر، لا يجوز لملوك إيرانى أن يقترن بسيدة من عقيلات بنى هاشم، فلا مناص إذن من إيجاد حل آخر. كان الفقهاء فى موقف دقيق لا يسعهم أن يكونوا هدفا لغضب خليفتهم فاحتاروا وأسقط فى يدهم. لأنه محتم عليهم أن يوفقوا بين أوامر الشريعة ورغبات الخليفة، وبينما هم فى لجج الحيرة والدهشة خطرت على بال أحدهم فكرة عرضها على مولاه فنالت الاستحسان. رأى هذا العالم أن يزوجها حتى يحل له النظر إليها ولكن لا يقربها(١) وهكذا أجازوا تلك المسامرات الليلية فى قصر الخلافة تحت هذا الشرط. فقبل الخليفة أن يعقد له عليها ورضى بالشرط، وبذلك تخلص الرشيد من قيل الناس وقالهم، وعادا إلى منادمة صديقيه العزيزين وجليسه الأليفين.

لم يكن بعد هذه الحادثة إنسان أسعد حالا من الرشيد. إنه ليقاوم أصعب الأزمات فيفرجها برأيه، إنه ليقف باسما هازئا أمام الشدائد والصعاب يتحكم فى

(١) ابن الاثير . الطبرى . الفخرى.

القوانين والشرائع والعادات ويبسط سلطان نفوذه على غرائز الطبيعة فيظهر ازدارءه لما يظنه الناس أمراً مستحيلا.

أيها الغرور أيها الطابع الأزلى للإنسانية! كم نفسًا تحطمت على صخرتك العالية وكم أملا تكسر عند أقدامك وكم رغبة حارة رددت أنفاسها الأخيرة فوق مذبحك! وأى إنسان استطاع مقاومة مغناطيسيتك. لو أحصينا الذين رموا بأنفسهم فى أحضانك فكم يبلغ عددهم؟

أيتها البشرية! لم تستطع الأجيال أن تغير تأثير غرائزك الموروثة، ولم تستطع العصور المتقادمة أن تعدل تربيتك الروحية والفكرية. كان الرشيد يعتبر الساعات التى يقضيها بجانب وزيره من ألذ أوقات عمره وأشهاها. كان لا يصبر عنه لحظة واحدة وليستفيد من ذكائه وعرفانه ويتنازل لقبول مشورته وآرائه، ومع ذلك أظهر التردد والخوف أمام علمائه وفقهائه الذين أجازوا اختلاطه بأفراد عائلته معلنا لهم أنه مملوك فارسى!

أصل جعفر وأرومته هو نقصه الوحيد، أما ولقد أثبت الرشيد بأن المروة والشهامة وأدب النفس مزايا إنسانية لا تشفع للمرء فى جميع أطوار حياته فقد استنكف اولا مما عرضه عليه علماؤه لو أننا وصلنا إلى قرارة نفس الرشيد لعلمنا أنه كان راضياً عن أمر الزواج إلا أن غروره المتسلط على قلبه وقف حائلا بينه وبين الرضى بهذا الأمر أما جعفر فقد كان مغلوبا على أمره أمام علم العباسة ومزاياها الروحية فكان يزداد تعلقاً بها وشغفا بنفسها رغم أوامر الخليفة. كانت العباسة حياة جعفر، يعبدها بروحه وجسمه حتى لقد أصبحت عيناه لا ترى نوراً غير نور هذه النجمة التى سطعت فى سماء حياته.

فى هذه الآونة كانت العيون والجواسيس التى تأتمر بأمر زبيدة واقفة لحركات جعفر بالمرصاد فى غدوه ورواحه إلى قصر العباسة، ويحملون إلى زبيدة حوادث

تنزلهما معا فى حديقتهما، بين خمائل الورود والقرنفل، وكان الجواسيس لا يتكلفون عناءا كثيرا فى سبيل مأموريتهم لأن جعفر كان يمشى بملابسه السوداء شارة العباسيين، ويصل إلى القصر من طريق الشرفة المطلة على الدجلة جهاراً عيانا دون تنكر، إما ممتطيا صهوة جواده وإما راكبا زورقه.

كانت أخبار هذه الزيارات الليلية تصل لسماع زبيدة وابنها والفضل، فيعقدون مجلسا من مشايعيهم لتدبير مكيدة يوقعون جعفر فى حبائلها.

كان الفضل بن ربيع خادما صادقا للأمين، ذى المزاج المتلون. كان فى مبدء أمره حاجب الخلاف ويشغل الآن مركزا كبيرا، وكان يحسد جعفر لمزاياه العالية ويطمح إلى الوصول للوزارة، جعل يعمل على إسقاطه سرا ولا يرى فرصة فيها هلاك البرامكة إلا اقتنصها. كان يريد أن يقضى على الذين وقفوا حجر عثرة فى سبيل آماله وأطماعه، فلم يقعد يوما عن سبيل فيه إيذاء جعفر وقد أسعفته الأقدار بما كان يبحث عنه. خرج يحيى بن عبد الله العلوى على الرشيد فاغتم الرشيد لذلك وندب إليه الفضل بن يحيى فذهب إليه الفضل وحاصره، فمال يحيى إلى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد فأجابه الرشيد إلى ذلك وسر به وكتب له أمانا فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد أول الامر بكل ما أحب ثم أمر بحبسه بعد ذلك، فما سمع الطالبى ذلك حتى أسرع إلى جعفر قائلا:

– قد كتبت لنا أمانا فحضرنا إليك فإذا أنت أمرت بإبقائى فى السجن عرضت نفسك لقهر الله وغضبه.

وعلى أثر ذلك أطلق جعفر سبيله فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ونقلوا الحادثة إلى الرشيد.

الفصل الخامس

كان الرشيد حانقا غاضبا بعد تلك الحادثة، وأخذت مكانة جعفر تتضاءل فى نفسه شيئا فشيئا وكأنى به وقد اختلى بغرفته على أثر سماع هذا النبأ، وأوصى مسرور السياف بأن يمنع كائنا من كان من الدخول عليه يقول فى سره: ما هذه الجرأة كيف يستطيع جعفر أن يعصى لى أمرا، وأنا الخليفة صاحب النهى والأمر. إنه قد وصل من استبداده إلى حد لا يمكن السكوت عنده. وكأنى به وقد حادث نفسه بمثل هذه الأقوال يشرف من نافذة غرفته، محاولا تسلية نفسه بزئير الأسود المحجوزة فى أقفاصها الحديدية بحديقة القصر.

بلى! هذا ما حدث فإن التاريخ نقل إلينا أنه نزل بعد سماعه هذا النبأ إلى حديقته، حيث أقفاص الليوث، وهنا طلب من الحارس أن يحضر له رضيعا مذبوحا من الغنم.

أخذ قطعة صغيرة ورماها إلى أعز الليوث عنده فالتهمها فى الحال.

وقف بعد ذلك ينتظر أن يلقى إليه الباقى. انتظر كثيرا ولكن عبثا لأن الخليفة أمر الحارس بأن يمنع عنه الباقى. عيل صبر الأسد وكان يزأر من حين لآخر كأنما يطلب بلسان الحال فريسته، وقف الرشيد يتأمل طويلا هذا المنظر ويقارن بين حالة الأسد وحالته وكأنى به الآن وقد امتزجت نفسيته بنفسية الأسد مشفق عليه، ونادم على منع الفريسة عنه. وكأنى به وهو ينظر إلى الحارس شذرا ويلومه، لأنه ينفذ فى صديقه الأسد هذا الأمر القاسى، يجد فى الاسد شبيهاً به والحارس مثيلا لجعفر عدوه الآن.

وعندما عيل صبره لم يطلق احتمال رؤية الأسد يتعذب، فأمر بأن تلقى إليه الشاة كاملة فألقيت، وهجم الليث على فريسته وقطعها إربا بين براثنه وأخذ يقضم العظام بأنيابه، وبعد أن استقرت كاملة فى معدته ربض ربضة الآمن المطمئن وأخذ

يصوب نظراته إلى الرشيد، تلك النظرات التى لم يذهب عنها بريق الحدة والغضب، أما الرشيد فبعد أن وقف طويلا أمام هذا المنظر عاد إلى قصره وقد هدأت الثورة القائمة بين جوانب نفسه.

إنه ليفكر فيقول فى سره: لو كنت الآن داخل القفص فأى شىء كان يمنع الليث من أن يهاجمنى فيفترسنى افتراس قطعة اللحم. كان يرى فى نفسه وهو يمشى نحو القصر بين طرقاته المزينة بأصص الرياحين، أسداً ظامئاً إلى الافتراس، نفسا طموحة إلى الانتقام، كان تواقاً إلى التشفى من عدوه اللدود جعفر. ولكن هيهات لم تحن الفرصة بعد فهو ينتظر الفرصة بفروغ صبر ولن يدعها تفلت من يده بعد اليوم.

وصل الخليفة إلى القصر وصعد تواً غرفته الخاصة، وكان منظر الغروب جميلا يجذب الروح فجلس متكئا على النافذة يتأمل بحزن وإطراق ألوان السحب المتماوجة فى السماء، وما لبث أن مد ببصره إلى الضفة الأخرى من الدجلة حيث يوجد قصر البرامكة.

ارتعشت نفس الرشيد داخل جسمه. كان الناس عند مدخل القصر ينتظرون أوامر الوزير، بين داخل وخارج، يهرولون ذات اليمين وذات اليسار وبينهم الجنود ورجال المعية فى هرج ومرج. هنالك الضجيج، هنالك الحركة، هنالك كل شىء.

ارتكزت عيناه عند هذه النقط من الضفة الأخرى وكلما لج به النظر، اشتد حنقه، وارتفع صدره بنيران الغيظ المضطرمة بين أحشاء قلبه. كانت أهداب عينه تهتز بحركة عصبية وهو يرى أن سكون الماء وهدوء الطبيعة لا يتخللها سوى حركة واحدة فى تلك الساعة، هى الحركة الآتية من الضفة الأخرى أمام قصر جعفر.

أيقن الآن أن جعفر هو حاكم بغداد وأمير الدولة وخليفة الإسلام. علم الآن أن جعفر كان كل شىء. ولكن أين هو من هذا الضجيج؟ أين مكانته من هذه الحركة، أين عز الخلافة وشرف الجاه؟ هنالك فى قصر البرامكة، الذى يلمع بالأضواء ويموج

بالحركة أما قصر الرشيد فقد تسربل رداء السكون والصموت.

تبطنت أعماق نفسه بآلام خفية فى هذه اللحظة فنسى كل شىء.

نسى صداقة جعفر وإخلاصه وفطانته، نسى أن هؤلاء المحتشدين حول دار وزيره جاءوا يلتمسون نداه، يستعطفون مروءته، يلتجئوا إلى ظل شهامته. نسى أنهم وافدون إليه لقضاء مصالحهم، نسى أن جعفر أخذ على عاتقه هذا الحمل؛ ليخفف عنه العبء. نسى فصاحة وزيره وحسن تدبيره ودرايته. نعم نسى كل شىء ولم يبق فى عقله وذهنه إلا أمر واحد، اهتزت له أرجاء روحه وأخذ قلبه يخفق لأجله من الحدة والألم. وكأنى به يقول: «لست الخليفة وإنما الخليفة جعفر ما أشد بلائى! كيف لم أفطن إلى هذه النتيجة ماذا أستطيع أن أعمله الآن لو أن جعفراً نزع إلى انتزاع الحكم من يدى وسير رجال الجيش على، وجلهم من الإعجاب صنائع معروفه ونداه؟»

هذا ما كان يردده الرشيد فى مثل هذا الظرف، لاسيما وقد اشتدت هجمات الأعداء ووشايتهم فى حقه، فلا يلتفت حتى يسمع واشيا، ولا يمشى خطوة حتى يجد من يحدثه بخيانة جعفر له. وما أكثر الأوراق التى كان يجدها فى سريره تحذره بعاقبة الحال وسوء المنقلب.

فكر كثيراً واستعرض وجوه الرأى للتخلص من هذه الحال، فخطر بباله أن يوفده إلى الخراسان ولكن أحجم عن هذا الرأى لخطورته لأن جعفر قد يجتمع مريدوه وأشياعه حوله هناك، فيؤلف منهم قوة كبيرة لا تقاوم، فلم يجد إلا القتل داءا شافيا. ولكن كان عليه أن يلتمس لقصده هذا عذراً وينتظر الفرصة السانحة. ولذلك لم يجد مندوحة من الصبر والتأنى، فنادى مسروراً وأمره بأن يذهب إلى وزيره، يدعوه إلى تناول طعام العشاء.

كان الرشيد ينتظره بوجه باسم ومحيا طلق، وهو على أريكة مزركشة قائمة على عرش مذهب. وعلى مقربة منه مائدة تنوه بأطباق الفضة المحتوية على صنوف الفواكه

والمشمومات، بجانبها أكواب من البللور، تتلألأ بداخلها أشربة ملونة، وقد فاحت القائمة بعنبر العنبر والصندل والعود.

فى الغرفة المجاورة، على مقربة من القاعة التى فيها هذه النفائس، كان أبو نواس وأبو زكار وإبراهيم الموصلى يتشاورون فيما بينهما على الأغانى والألحان التى يطربون فى تلك الليلة مسامع مولاهم الخليفة.

لم يمض على انتظار الخليفة زمن كبير حتى وصل مسامعه صليل السيوف وصهيل الخيول. حضر جعفر مع رجال حاشيته.

صوب الخليفة أنظاره نحو الباب الذى سيدخل منه الوزير، وعندما رفع الوزير السجف الحقيقية المتدلية على الباب نظر إلى الخليفة ثم إلى نظراته المنطوية على الغيظ والحقد، فكاد يصعق فى مكانه ولكنه لم شعثه وخطا نحو الخليفة خطوات ثابتة، يقدم له تحية الاحترام.

أخفى الرشيد ما بين جوانحه من الغيظ والحقد، وابتسم للوزير ليخفى ما تنطوى عليه جوارحه، فقال له معترضا على لباسه:

– ما هذا يا أخى إننا سنتناول الطعام على حدة فلماذا اعتنيت بلباسك إلى هذا الحد؟

كان الخليفة فى هذا المجلس ضاحكا لاهيا، يملأ الأقداح ويسأل جعفر عن شئونه الخاصة، ويداعب الندماء ويطرب لنغمات الموصلى وإنشاد الشعراء، أما جعفر فكان يحاول إسكات خفقان قلبه واضطرابه؛ ليشارك الخليفة فى هذا السرور والنشاط، كان يحاول أن يرفع عن نفسه أثر تلك النظرات الأولى التى قابله الخليفة بها، كان يجاهد ليبتسم وليضحك، ولكن كانت كلمات الخليفة وابتساماته ونظراته تتسدد فى صدره كأنها سهام مسنونة. علم جعفر كل شىء وأيقن بزوال مكانته من نفس مولاه وأيقن بالسقوط على أثر تلك النظرة المعنوية.

أيمكن أن يكون الخليفة وقف على سره وأطلع على ما بينه وبين العباسة! محال أن يكون ذلك. فمن يستطيع أن يخبر الخليفة بهذا الأمر ليستهدف غضبه. هل وصلته وشاية أو سعى إليه أحد أعدائه. لا ريب فى ذلك فإنه كان يشعر بأن أعداءه يتألبون عليه وأن كلمتهم اشتدت فى الأيام الأخيرة وبأن نفوذهم أخذ فى الاستفحلال.

قارب الطعام على الانتهاء؛ وكان الرشيد ووزيره يتناولان الفاكهة وكان الخليفة قد مد يده إلى إجاصة فقال له فجأة:

- كدت أنسى كيف حال يحيى بن عبدالله الطالبى؟ فارتبك جعفر إلا أنه قال:

- هو فى الحبس يا مولاى

فقال الرشيد: - بحياتى؟

ففطن جعفر وأجاب: لا وحياتك، ولكن أطلقته، لأنى علمت أنه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد:

- نعم ما فعلت. هذا ما كنت انتظره من حسن فطانتك. انتهى الطعام وجلسا يتنادمان قليلا وخاضا فى شئون مختلفة، وفى النهاية عندما قام جعفر نظر الرشيد إليه وهو يقول فى نفسه:

قتلنى الله إن لم أقتلك(١)

(١) الفخرى.

الفصل السادس

أسدل الرشيد الستار على تلك الجلسة البديعة بجملة تهديدية حفظها لنا التاريخ حتى يومنا هذا. ها قد دار الفلك دورته، وانقضت أيام الصفاء والمخادنة، أوقات السلام والمخالصة إنها لساعة رهيبة. وأزمة عصيبة وشدة مريرة أن يجد المرء نفسه هدفا لسهام المخاصمة، بعد أن كان موضع التجلة والإكرام لى غرة من الدهر وغفوة من الزمان.

دام الحال على هذا المنوال، فتعقدت الأزمة. وكان جعفر حائرا مهموما وأعداؤه فرحين مسرورين، لا ينفكون عن نصب شراك الحيل والدسائس وإيصال الأذى إليه، ما وجدوا إلى ذك سبيلا.

اشتد قلق جعفر، لأنه كان لا يفكر بشأن نفسه فحسب، بل كان يفكر فى أمر عباسته، فإذا سمع الرشيد بما وصلت إليه علاقتهما وبنتائج هذه العلاقة أى بابنهما حسن، قضى عليهما وطوى من صحيفة الوجود خبرهما. غير أن جعفر لم يفته أن يأخذ الحيطة قبل وقوع المحظور، ولذلك أرسل الطفل إلى مكة مع مولى من مواليه المخلصين.

حقاًما الحياة إلا مجموعة احساسات وآلام، إن جعفراً ليضحى وزارته وما هو فيه من أبهة حال ورفاهة عيش فى سبيل راحتهما وهنائهما، ولكن كيف يتسنى له ذلك وقد تكاثر عليه أعداؤه؟ ليس أمامه ليعيش آمنا مطمئنا تحت ظلال الراحة والهدوء، إلا مفارقة بغداد وإن السبيل إلى ذلك سهل ميسور، فهو يتحمل متاعب السفر إلى تلك الأصقاع مع عباسته وابنيهما، إنه ليستطع ذلك إذا قدر أن يترك الوزارة دون أن يلحقه ما يخدش السمعة والشرف. ولكن الشعب الشعب ذى المزاج المتغير، الشعب المتلون كالحرباء.

قد انفض اليوم من حوله وحول بيته الكثيرون ممن نشأوا وترعرعوا فى ظلال نعمة البرامكة وندامهم. كان واثقا من ذلك مع أنه لم يحاول يوما ما أن يجرح إحساس أحد منهم، إنما كان يسعى فى أن يقيم باستقامة وعدل ما أعوج من أخلاقهم. كان عليه أن يقاوم ويكافح وأن يقف أمام هذه الجموع المحتشدة مستمداً من المولى العون والعناية. قد صمم أن يقاوم حتى النفس الأخير دون أن يتطرق إليه اليأس أو تفترق عنه العزيمة مادامت روحه المعنوية أى العباسة فى حفظ وأمان.

نعم كان وجود العباسة يغرس فى كل ذرة من ذرات كيانه بذور الشجاعة والإقدام. أراد أن يحيى فى دائرة تتنسم العباسة داخل حدودها.

كانت أخت الرشيد نجمة آماله، منبع أشواقه، أفق مسراته، بل كانت هى الكل فى الكل.

كان الآن يعيش للعباسة ويعمل للعباسة ويناضل لأجل العباسة، إنها مقر أمله ومبعث شجاعته وإقدامه. سوف يكافح أعداءه بعد اليوم يقف أمامهم وجها لوجه ويلقى عليهم درساً فعلياً فى نظرية تنازع البقاء لغرض واحد هو سعادة العباسة.

الفصل السابع

بينما كان جعفر غارقا فى قرار عميق من لجج هذه الفلسفة الروحية والمشاعر المعنوية، وهو يظن نفسه فى حصن حصين من خيراته السالفة ونعمائه السابقة، كان المحذور قد وقع وسبق السيف العذل. أجل إن عيون زبيدة الذين نقلوا إليها أخبار ملاقاتهما الليلية هو والعباسة، وتزاورهما ومناجاتهما لبعض تحت أشعة القمر فى حدائق الخلافة، نقلوا إليها كذلك بشرى ولادة الحسن وإرساله إلى مكة، إلى غير ذلك من خطير الحوادث.

ما كاد ذلك يصل مسامع زبيدة حتى اجتمعت بالفضل وابنها الأمين وتشاوروا جمعا، كيف يزفون هذه الحوادث إلى مسامع الخليفة؟

فكروا كثيرا فوجدوا خير وسيلة يتذرعون بها هو كتابة رقاع يدونون بها أبياتا من الشعر تتضمن الحادثة ينثرونها فى أرجاء القاعة التى يجلس الرشيد فيها، وسرعان ما عمدوا إلى هذه الفكرة فأخرجوها من حيز القول إلى دائرة العمل.

لم يمض إلا قليل من الزمن حتى علم الخليفة بالسر المكتوم وأسكنه فى قرار مكين من زوايا صدره وسافر فجأة فى تلك السنة إلى الحجاز، فأوجس جعفر خيفة من هذه الرحلة وتوقع أن يحدث على أثرها حوادث ذات بال.

وصل الخليفة إلى مكة فبث العيون والأرصاد يبحث عن ابن العباسة إلى أن عثر على ضالته، وعرف النجل الظريف سليل الدوحة الهاشمية، من سمات وجهه. كان الحسن ذا وجه مشرق بضياء الحسن والبهجة، يشبه أمه العباسة أخت الرشيد، وتكاد عيناه البراقتان تفشيان سر الحبيب.

كاد الحب يتغلب عليه، فيشفق على ذلك الغلام الجميل ابن اخته لولا الغرور. نعم! تغلب الغرور على أمره وسيطر على حواسه، فما أعجز الإنسان أمام تلك القوة

الموهومة التى تسيطر على إرادته.

استوثق الرشيد من الأمر فقفل راجعا إلى بغداد مقر الخلافة، وقد خفف ذلك من هيجان غيظه وكمده. كان قد سافر إلى مكة مسرعا مضطربا، فعاد منها هادئا مطمئنا وقد وقف على ما يريد أن يعلمه بل مكث فى محطات كثيرة لقبول الهدايا كما قبل أيضا هدايا البرامكة كالمعتاد، وشغف سمعه بمديحهم وحمدهم له، وفى النهاية حط الرجال عند مدينة (الانبار) التى يستظرفها على شاطئ الدجلة.

كان من عادة الرشيد أن يتقابل مع وزيره جعفر فى هذه النقطة، مدينة الأنبار، عند عودته من بيت الله الحرام. وكان من عادة جعفر أن يولم فيها وليمة كبرى يدعو اليها مولاه الخليفة.

ولكن حدث هذه المرة أن الرشيد لم يقبل دعوة وزيره، وإنما فضل أن ينزل فى قصره الخاص ليرتاح من وعثاء السفر، ففهم جعفر ماينطوى عيله هذا الرفض ونظر إلى أفق المستقبل فرآه مظللا بسحابة سوداء اقتربت ساعة الإدبار، إنها لتسرع نحوه، وقد أصبح مستقبل ابنه الحسن مظلما، فإذا ألقاه الخليفة فى غيابات السجون ماذا تكون حالة العباسة؟ ولم هذا الحظ العاثر ونكد الطالع؟ أهذا جزاء صداقته وإخلاصه للخلافة منذ نعومة أظفاره، لا يعلم الرشيد كل ذلك؟ ماذا فعل الناس حتى يستحق منهم مثل هذاالجزاء؟ وكأنى به يقول لهم:

- صنعت معكم خيرا فكيف يكون جزائى شرا

هذا سؤال يجيب عليه الزمان، الزمان هو الذى يقول:

إنهم خانوك لأنك أحسنت اليهم! ولم تسمع قول مشرع الإسلام . (اتق شر من أحسنت إليه)

أخذت الأفكار ترد مخيلته تباعاً آخذة بعضها برقاب بعض، ولكنه كان لا يصدق

أن الخليفة يعلم يوما ما بينه وبين العباسة، لأنه كان جد واثق منها ومن رجال معيته. كان يعلم أن منزلته قد قلت فى نظر الرشيد. وكان يعزو ذلك إلى الوشايات التى يحيكها الأعداء حوله. وعندما نقل هذه الحالة إلى العباسة وجفاء الرشيد له ارتعشت لأنها كانت تعلم أخيها وأدركت بفطنتها وبعد نظرها إن إدبار جعفر منشؤه علم الخليفة بما بينهما. أراد جعفر أن يقنعها ويسكن جأشها إلا أنه عبثا حاول تخفيف ما تغلف حول روحها من المشاعر المؤلمة، إنها كانت ترتعد تحت عبء رؤيا مفجعة قد انقبض صدرها أمام مشهد مؤلم أصبحت تتوقع حدوثه الساعة قبل الساعة.

كان الرشيد فى تلك الآونة، وقد سار من الأنبار إلى بغداد فى السفن وجعل قبل أن يصل العاصمة يشرب تارة ويلهو أخرى وعنده ابو ذكار يغنيه، فلما أقبل المساء دعا مسرورا الخادم، وكان مبغضا لجعفر فقال له:

– اذهب فجئنى برأس جعفر.

بعد أن أتم جملته هذه ملأ قدح الشراب، وأخذ يسمع أبا ذكار الذى أنطقته الطبيعة فى تلك الساعة الفجيعة بهذا البيت.

فلا تبعد فكل فتى سيأتى على الموت يطرق أو ينادى

وبينما كان الرشيد يستنشد أبا ذكار باقى الأبيات

كان مسرور فى طريقه إلى قصر البرامكة، وعندما وصل هناك دخل على جعفر فى غرفته بغير إذن وقال له:

– الخليفة يطلبك.

وبينما كان جعفر غارقا فى لجج من أفكاره عاوده مسرور بقوله:

– إن الخليفة قد طلبك.

– لقد سررتنى بمجيئك، وسوأتنى بدخولك على بغير إذن.

- الذى جئت له أجل، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك فقام جعفر مع رجال حاشيته، ورافق مسروراً إلى قصر الخلافة، وهناك ظل رجاله على الباب ودخل معه مسرور إلى الحديقة وعطفا إلى غرفة خاصة على الطريق وهنا قال له مسرور.

- إن الخليفة يطلب رأسك.

صعق جعفر فى مكانه على أثر هذه الجملة، وتضعضع أمام هذه الضربة القاضية، ووقع على رجليه يقبلهما ناسيا عزة نفسه ووقاره وقال مسترحما:

- بربك يا أخى عاود أمير المؤمنين، فإن الشرب قد حمله على ذلك، بل أمهلنى الليلة فإنه نادم عن قوله غدا.

- تنادينى الآن بقولك يا أخى، وكنت قبل اليوم تأنف من مصافحتى إننى الآن لا أرحمك ولا أرحم شبابك، قد أمر الخليفة أن تموت الليلة وليس لدى سوى هذا الأمر.

- لتكن حياتى فداء الخلافة، ليكن الموت جزاء إخلاص دام ثمانية عشر عاما وإنما أريد أن أعرف منك أمراً واحدا قبل قتلى أريد أن أعلم ذنبى الذى استحق عليه الجزاء.

فنظر إليه مسرور شزرا ثم فاه بهذه الكلمة:

- العباسة

ما كاد جعفر يسمع بذلك حتى قام من مكانة مدهوشا، وقد لمعت فى سماء مخيلته فكرة واحدة هى أن يموت فداءها، إذ ربما أنقذ العباسة بموته فقال:

- دعنى أدخل دارى فأوصى.

فنظر إليه الجلاد بغضب وقال:

- لا سبيل إلى ذلك.

لم يطق جعفر صبرا على أثر هذه الجملة الأخيرة، فهاجت أعصابه وهجم على مسرور متمردا يريد خنقه إلا أن الجلاد تمكن من أن يتملص منه وفر إلى زاوية من الغرفة، وكان يعلم بأن العباسة ميتة لا محالة فصاح يقول:

– قد قتلت السيدة العباسة.

وقعت هذه الجملة كالصاعقة على رأس جعفر، فهدت كل قواه وأفقدته الرشد والوعى فهرع نحو الجلاد جاثيا متمما هذه الكلمات:

– ما انتظارك إذن، لماذا أعيش بعدها، عجل لتريحنى من هذه الحياة.

هكذا سلم نفسه لجلاده وعلى هذه الصورة المفجعة قتل جعفر البرمكى بالغاً من عمره ثمانية وثلاثين حجة فى عام ١٨٧ من الهجرة.

– بعد أن أخذ مسرور رأس جعفر قدمه للرشيد على وسادة من الاطلس، فأمر بتعليق تلك الرأس التى أحب صاحبها وصادقه زمنا على جسر بغداد، وأن تحرق بعد ذلك مع الجثة وأن يقتل كل من يتشدق بكرم البرامكة ومروءتهم ومن يرثيهم بعد نكبتهم أما منصب الوزارة فقد أسند بعد جعفر إلى عدوه اللدود الفضل بن ربيع حاجب قصر الخلافة سابقا.

ومن عجيب ما وقع فى ذلك ما رواه العمرانى المؤرخ قال حدث فلان قال:

«دخلت الديوان، فنظرت فى بعض تذاكر النواب فرأيت أربعمائة ألف دينار، ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير، ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى، لإحراق جثة جعفر بن يحيى فعجبت من ذلك»

هكذا يريد القدر ومن يستطيع الوصول إلى حكمة ذلك

مسكين أنت يا جعفر لقد صرت مظهراً لقول القائل

«ان كان يا قلب نصيبك الظلم والعسف فى هذه الحياة فقد تنالهما من الأصدقاء قبل الأعداء»

الفصل الثامن

على أثر هذه الجناية قام الرشيد ومعه مسرور إلى قصر أخته العباسة وكانت فى الطابق الأسفل لم تدلف إلى فراشها بعد، تعد معدات السفر إلى خراسان فى اليوم التالى. ولقد دهش أهل القصر من حضور الخليفة فجأة بعد نصف الليل فهرعوا إلى العباسة مذعورين يختلج الخوف فى أفئدتهم يخطرونها بالأمر.

وقد اقتربت وصيفتها التى لم تفارقها طول الحياة ترجوها النزول من الشرفة إلى الحديقة، فالهروب عن طريق الدجلة إلا أن العباسة اكتفت بأن تقول:

- بنات هاشم لا يعرفون سبيلا للهروب

قالت كلمتها تلك وقامت من فورها لتستقبل أخاها، وتلاقت معه فى أول ممشى القصر فسلمت عليه باحترام إلا أن الرشيد ام يجاوبها بل ظل يسير ساكنا حتى الغرفة التى اعتاد أن يجالسها فيها وبعد أن جلس على مقعد قال لأخته:

- أو صدى الباب

أوصدت العباسة باب الغرفة وعادت هادئة ساكنة، وكان الرشيد ينظر إلى وجه أخته مدهوشا وقال لها

- أتعلمين سبب مجيئى اليك الليلة؟ إن كنت جاهلة ذلك فها أنا ذا مخبرك. جئت لأسمع من فمك مخالفتك لى وخيانتك لبنى هاشم. ما أنت بعد الآن أختى. قولى ما تريدين أن تقوليه قبل أن تفارقى الحياة.

فأجابته العباسة بهدوء بال

- لم أرتكب أولا ما يشين بسمعة بنى هاشم، ولم أخالف ثانيا أمرك ولا أهاب الموت كما تعلم. أننى أنا وأنت من أسرة واحدة رغم إنكارك ولكننى لم أفهم ما تريد أن

تقوله فهل لك أن تفصح يا أمير المؤمنين؟

– لقد فات أوان التزييف. اعترفى ليتم كل شئ فإنى عالم بالأمر وقد سمعت قصة جعفر ولا أستطيع أن أصفح عن مخالفتك لأمرى واختلاطك بجعفر، ذلك المملوك الفارسى ولا يمكن أن أنسى تلاقيكما معا. إننى نافر منك فيجب أن تموتى

بهتت العباسة ووقفت جامدة وسط الغرفة لا تبدى ولا تعيد ولا تستطيع أن ترفع عينيها من وجه أخيها المتقد بنيران الغيظ والغضب فصاح الرشيد يقول:

– تكلمى إننى منتظر لجوابك.

فأجابته بصوت متهدج كأنما كانت تصحو من كابوس مريع:

– إننى حليلة جعفر أحببته واعتمدت عليه. وما أحللته من نفسى هذا المقام إلا لأجلك ولما فيه من مزايا ومواهب، فإذا كان ذلك حراما فلتقض على حياتى إننى بين يديك وأننى أخطرك بأمر فيه صالحك ونفعك. لا تقتل ذلك الذى نقول أنه مملوك فارسى، ذلك الذى صير بغداد والدولة على نحو ما ترى ورفع من شأن البلاد(١). إنك أن فعلت

---

(١) صدقت الاميرة فيما تثبته هنا على لسان العباسة حقا ان جعفر هو الذى رفع من شأن بغداد وجعلها عاصمة الخلافة، مهد الحضارة ومهبط المدينة والعمران. لقد أسرف الرشيد فى ظلف البرامكة ونسى آثارهم فى تنظيم الدولة من عهد جدهم خالد. ألم يكن خالد من أكبر اعوان ابى مسلم فى نقل الدولة من الامويين إلي العباسيين، تناسى الرشيد فى نكبتهم ما كان من نجدة خالد لجده إلى جعفر المنصور عندما قتل ابا مسلم فثار الفرس والاكراد عليها ناهيك بما كان من تدبير شئون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيده الفضل وجعفر البرامكة كانوا جمال الدولة وقوام ابهتها وكانت بغداد ملأى بآثار فضلهم وجهودهم. أقاموا فيها المكاتب وحلقات الدروس ومنازل الجند والملاجئ ومجالس القضاة وغرف الشرطة.
روجوا العلم والفلسفة وشجعوا أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس بما كانوا يبذلونه من الاعطية وماي نفقونه فى هذا السبيل من الرواتب وكفى يحيى بن خالد فخراً أنه أول من عنى بنقل المجسطى من اليونانية إلى العربية.
سعوا فى جمع الكتب من الهند وسواها واستقدموا نطس الاطباء من مختلف البلاد لترويج صناعة الطب ويكفى الفضل بن يحيى من الاثر الجميل فى عمران بغداد أنه أول من سعى فى عمرانها وأنه أول من سعى فى استخدام الكاغد (الورق) فانشئت له المعامل فى بغداد

ذلك يذكرك التاريخ ظالما معتسفا ويذكر أيامك بالعار. إن كنت تريد ضحية فها أنذا. سكن ثائرة غضبك بالقضاء على حياتى، ولكن أنا ما خالفت لك أمرا. إذا كان احترام عقد أمضيته أنت بيدك يعد خيانة فاتهمنى. تذكر المولى وأخش الآخرة. إن العدل الالهى سيذكرك بموقفك هذا

ففزع الرشيد من مكانه حانقا وعيناه تتقدان بنيران الغيظ وهجم عليها يقول:

- قد جاوزت الحد. ألمثلى هذا القول. رباه لا أستطيع احتمالا. أنت مجرمة فيجب أن تموتى. كنت قد قيدت العقد بشرط أنت الآن تتجاهلينه.

- كلا لم أنسه ولكنه هل هو شرط مشروع؟ أتجوز هذه الحيل فى ديننا الحنيف؟ لم أرتكب أمرا يخالف الشرع، وإنما أنت الذى تريد أن تحرم ما أحله الله. ألا أتق الله فى نفسك يا هارون أين ايمانك؟ ألم ننشأ معا؟ ألم نعطف على بعضنا منذ الصغر إن قتلتنى أذهب ضحية على مذبح غرورك. أما جعفر فأنت تعلم شهامته ومزاياه حق العلم، ولن تجد من يسد فراغه، فإن كنت مصمما على ضحية فها أنذا بين يديك. أنزل سوط غضبك على برىء واحد، ولا تلوث يديك بجريمتين.

لم يتمالك الرشيد نفسه عند سماعه الجملة الأخيرة فصاح مزمجرا:

- أدفاعا عنه أمامى. ستموتون أنتم الثلاثة: أنت وهو وحسن. أنا الخليفة لا مرد لأمرى.

فحرك اسم (حسن) عواطف الأمومة فى نفسها، فارتمت عند قدمى أخيها تصيح.

- بربك اصفح ولا تقتل طفلا بريئا معصوما يا أمير المؤمنين. إنك والد فاتق الله، أنا لا أطلب الصفح من أخى إنما أرجو الغفران من الخليفة هارون الرشيد.

كانت العباسية تبكى بكاءًا مرا. وهى لم تفقد حرارتها حتى تلك اللحظة ولكنها

أضاعت كل شئ وأظلمت الدنيا فى عينيها، وأصبحت يائسة مفككة الأوصال عند ما ذكر مقتل ابنها

لم يعبأ الرشيد بتوسلاتها، ولم يحركه بكاؤها بل قال:

– كل هذا لا يجدى. قد قلت كلمتى الأخيرة

ونادى مسرورا بعد ذلك، ففهمت العباسة قصده فاعتدلت ووقفت شامخة برأسها تستشهد وتستغفر

دخل مسرور وانحنى أمامها، ولكنها لم تحفل به ولم تتنازل إلى رد السلام وإنما حولت وجهها إلى الكعبة، مقر ابنها الحسن. وقد كانت تظنه على قيد الحياة، تدعو المولى أن يكلأه بعين عنايته، وتحولت بعد ذلك نحو قصر جعفر فى لحظة أطار مسرور رأسها بضربة واحدة من سيفه، فوقع على الأرض متدحرجا حتى أقدام الرشيد..؟

تلكما العينان الجميلتان كانتا تنظران إلى الرشيد تفكر أنه بقضاء الآخرة عندما ينُصب ميزان الأعمال. فارتعشت روحه داخل جسده، وقام من فوره يأمر مسرورا بأن يعجل فيما ندبه إليه. فوفد الغرفة عشرة رجال حفروا وسطها حفرة وواروا فيها الجثه وبعد إتمام العملية أمر الرشيد بقتلهم وبأن ترمى أجسادهم فى الدجلة.

عندما تمت الفاجعة وخرج الرشيد من غرفة ضحيته كان لمعان الصبح قد بدأ وكانت أضواء الصباح الوافده إلى الغرفة من حديقة القصر تنير هذا المرقد الأبدى بهدوء وجلال.

انقضى عمل الرشيد والتأمت جراح غروره، فأدار أكرة الباب استعدادا للخروج ولكن ما يكاد يفعل ذلك حتى ارتد قليلا من أثير أنوار الصباح؟ هجم الضوء إلى الغرفة من خلال الباب وملأت أرجاءها أشعة الشمس الآخذه فى البزوغ مارة فى طريقها إلى الغرفة بالورود والزهور وخمائل القرنفل والياسمين، فتصنع من ألوانها وروائحها الزكية

باقة معنوية تضعها باحترام، اجلال فوق مضجع العباسة، كانت الطبيعة رغم إشراقها كئيبة مطرقة، هادئة يكسوها جلال الموت كأنما هى أيضا تبكى العباسة، وقد كانت زهرة من زهراتها.

لو وقع مثل هذا الغرور فى أوائل الإسلام لدهشنا ووقعنا فى مهاوى الحيرة، غير أن حدوث هذا العسف فى القرن الثانى من الهجرة فى ذلك الدور العظيم يأخذ بيدنا إلى مناهج التفكير العميق. أننى لاتحاشى تدقيق ومحاكمة هذه الفاجعة المؤلمة التى سودت صحائف الرشيد فالزمان قد قاضاه

إن هارون الرشيد، رغم صفاته وفضائله، رغم مزاياه ومناقبه قاتل سفك دماء جعفر ولم يقدره حق قدره.

قد لوث يديه بدماء بريئين فلا جوده ولا كرم طباعه ولا شهرته ولا استفحال نفوذه تشفع له أو تزيل أثر الدماء من يده، عندما نقرأ تاريخ حياته تثور نفوسنا وتتمرد، إننا نعلم أن مقابلة الإحسان بالإساءة كانت من صفات الأقدمين، لا سيما أيام حكومتى روما واليونان ولكننا قد نعذرهم ونتشبث فى إيجاد المبررات لهم لأنهم كانوا محرومين من نور العدالة الإسلامية، أما الرشيد فمسلم ومن بنى هاشم فكان لزاما عليه أن يتحلى بالمروءة ولكنه أبى إلا أن يظهر بمظهر المستبد المغرور.

وإننى كامرأة رأيت من واجبى أن أنقل سيرة الرشيد المعروفة كثيرا وتاريخ حياة جعفر المعروف قليلا وحياة العباسة المحاطة بالغموض والإبهام على هذا الوجه البسيط.

الملكة عصمة الدين

شجرة الدر

الفصل الأول

الزمن مقياس الحياة، ولولا الحياة لما كان الزمن، ولما كان للأشياء بدايات ونهايات.

ونهاية كل أمر بداية أمر آخر، فإذا أصلحت أمة من الأمم، وأمحى من صحيفة البقاء كيانها نشأت على أطلالها أمة أخرى وكيان آخر. فكلمة (الزمان) من مخترعات الإنسان، وضعها ليقيس بها الحياة، وليعبر بها عن سلسلة من الوقائع والحوادث والشئون طويلة الأمد مختلفة الحلقات. فلهذه الكلمة مدلول وليس لها وجود.

وحياة كل امرئ زمان قائم بنفسه ونهاية زمنه بداية لحياة أخرى.

هاكم شجرة الدر التى نقص اليوم سيرتها الغريبة فقد كان بدء حكمها نهاية زمن جليل وعصر عظيم، أجل فهى بدأت حكمها عند ما أفل نجم حكومة الأيوبيين العظام. وقد كان انبثاق هذا النور فوق أطلال الحكومة الأيوبية أول نجمة من نجوم الأمل فى سماء دولة المماليك. لقد أنارت تلك الشرارة عصرها، فكانت شجرة الدر حلقة اتصال بين الأيوبيين والمماليك وتمكنت بمهارتها من إظهار شخصية ذات رونق وجلال.

مصائب قوم عند قوم فوائد. كانت شجرة الدر راضية مؤثرة بين مخدرات الإسلام، فهى فتاة تركية عالية القدر، جميلة الصورة جذابة الملامح ذات فراسة وتدبير على علم واسع ومعرفة تامة لها عزيمة ماضية وجأش ثابت، فاشتهر أمرها وطار صيتها فى أقاصى البلاد والأمصار.

وإذا استثنينا بلاد الهند، فهى المرأة الأولى فى الإسلام التى تقلدت الملك وأدارت دفة الحكم بمهارة ودراية. لم يكن من المألوف والمعهود فى بلاد الشرق أن تحكم المرأة وتتولى زمام بلادها بنفسها مباشرة، ولذلك كثيراً ما قرأت قصة حياتها مشفوعة

بالاستغراب بين طيات بعض الرسائل والمخطوطات، والدهشة التى تملكت قلوب كاتبيها من أن امرأة تتوصل إلى الحكم بلقب الملكة عصمة الدين.

إن وصولها إلى أمر كهذا غير مألوف من أبناء قومها، دليل فطنة ودراية وذكاء فائق الحد. أجل فمن من النساء المسلمات توصلت إلى ضرب النقود وقراءة الخطب على المنابر باسمها؟..

كانت فى أول أمرها جارية ظريفة يحبها الصالح نجم الدين الملك السابع فى حكومة الأيوبيين، فولدت له غلاماً سمى خليل وتزوجها بعد ذلك وأشركها فى الحكم. كان الصالح يجلها ويخصها بالاحترام، ولقد أظهرت قدرة خارقة للعادة فى إدارة الأمور، وأدهشت معاصريها.

شاركت شجرة الدر زوجها فى إدارة الحكم منذ كان ولياً للعهد، يحكم دمشق من قبل أبيه "الكامل"، فأمدته برأيها وأعانته بفكرها وكانت الزوجة الصالحة، شريكة العمر وصديقة الحياة، فبدأ يشعر بقيمة هذه المعونة الأدبية ويقدرها حق قدرها ويسر بها(١).

دار الزمان دورته ومات "الكامل"، فأضطر الملك "الصالح" إلى العودة إلى مصر، مقر العرش والحكم، تاركاً وراءه ذكريات لذيذة من أيام الهناء بين رياض دمشق وحدائقها الفناء. هنا بدأت متاعبه وجهوده، فقد كثرت الفتن واشتدت الغارات فى أول توليه الحكم، فكان لا ينتهى من قمع فتنة حتى يرى نفسه أمام غارة خارجية تهدد كيان البلاد، فيمد إلى صدرها كبح جماح الذين يريدون بمصر شراً، ولا يكاد يدفع ضررها حتى يسمع باندلاع لهيب فتنة أخرى فى قلب البلاد، فيسرع نحوها. كل هذه المشاغل والمتاعب صيرته قيد جواده لا يفارق صهوته ليل نهار.

---

(١) الدر المنثور

كانت فتنة الشام أشدها مراساً وأذكاها درًا فحشد جنوده وطار إلى مكان الفتنة على رأس جيشه، وبعد أن كابد المرائر فى سبيل قمعها انتصر على العاصين وتمكن من الضرب على أيديهم وتأديبهم، ولكن لم يتيسر له أن يجنى ثمرة النصر وأن يهنأ بسعادة الفوز، لأنه أصيب بداء عضال أقعده فى فراشه شهوراً طويلة.

كان يتوق إلى رؤية وطنه مصر وينوب شوقاً وحنيناً إلى نيل بلاده العذب، فتقعده الرغبة فى إنجاز ما ندب نفسه إليه من القضاء على الفتنة واجتثاثها من أصولها وعدم القيام من دمشق قبل تمام الشفاء. وبينما يتململ على فراش الأوجاع والأوصاب، بين لذيذ الأمانى والآمال، إذا برسالة من زوجته شجرة الدر التى كانت تحكم البلاد أثناء غيابه، تخبره فيها بقيام الصليبيين من قبرص متوجهين إلى مصر، فقام من فوره محمولاً على هودج حتى وصل المنصورة فى بضعة أيام قاسى أثنائها أشد المتاعب والآلام.

الفصل الثانى
عام ٦٤٨ من الهجرة

أصيب لويس التاسع ملك فرنسا بمرض عجيب، أعجز نطس الأطباء ومهرة الحكماء فى بلاده، فصرفوا كل مجهوداتهم الفنية وأعملوا كل ما استطاعوا من حذق وفكرة فى سبيل الوصول إلى تشخيص، ولكن ذهبت أتعابهم وجهودهم أدراج الرياح. لم يتمكنوا من تخفيف آلامه وأوصابه، فوقعت فرنسا فى مهاوى اليأس وارتبكت لا تدرى سبيلاً إلى نجاة الملك مما وقع فيه إلى أن خطر ذات يوم ببال (بلانش دوكاستيل) أم الملك و(مرغريت دوبر وفانس) زوجته أن يجمعا كبار القسس ورجال الدين ليعقدوا مجلساً للمشاورة فيما بينهم، فقرروا أن توقد الشموع فى كل بيت وأن تقام الصلوات فى الكنائس على الدوام، وسرعان ما أقبل الكبراء والأمراء على تنفيذ الفكرة، قدوة لمن دونهم من العامة، ولم تمض فترة من الزمن حتى كان الجميع ناسجين على ذلك المنوال من إيقاد الشموع والابتهال فى الكنائس بالدعوات.. ولكن ظل الملك رغم الوسائل أسير الفراش، يعانى آلام مرضه الوبيل ودائه العضال. لم تجد الشموع نفعاً ولم تنفع دعوات القسس وابتهالات الشعب فى رد القوة والحياة إلى ذلك اللسان المشلول والجسم المفلوج، فاستمر على حالته من الوهن والجمود كأنه صنم ملقى تحت اللحف والأردية.

اشتد قلق الشعب ودب اليأس فى قلوب القسس، فكنت تراهم فى أسواق المدينة وشوارعها يقطعونها طولاً وعرضاً بمسابحهم الطويلة وثيابهم الكهنوتية، وقد أيقنوا بأن شفاء مليكهم من رابع المستحيلات. لقد بدأوا يشعرون أن الملك مقضى عليه بالهلاك وأن الموت على قاب قوسين منه أو أدنى بعد أن جربوا كل تعاويذهم وأدعيتهم، فذهب أدراج الرياح. لقد يئس الكل إلا الملك، فقد بقيت فى صدره بقية نور الأمل تخفف من لوعته كان لا يستطيع أن يأتى بأدنى حركة أو يحرك لسانه بكلمة، ولكن قواه العقلية ما

زالت كما هى، فجعل يتوسل إلى ربه يطلب الشفاء ويغالب المرض بقوة إرادته، معاهداً ربه بنذر جعله رهن شفائه وقيد تخلصه من أسر بلواه. فقد أنذر ويا لهول ما أنذر!.. أنذر أن ينقذ بيت المقدس من المسلمين، ويخلص تلك الأماكن الطاهرة من أيديهم القذرة إن تم له الشفاء وكتب له ربه العافية والأمل حياة واليأس موت، فقد دب دبيب الحياة فى تلك النفس الحائرة الحائمة حول الأمل وأصبح الملك عقب ابتهالاته النفسية يتماثل نحو الشفاء شيئاً فشيئاً، موقناً أن نذره الغريب كان سبباً فى شفائه، زاعماً أن المولى لم يمن عليه بالشفاء إلا لعزمه على تطهير بيت المقدس من أيدى المسلمين الملوثة. ولقد صادفت هذه العقيدة الفاسدة هوى فى نفس المسيحيين فى زمن كان فيه بيت المقدس محفوفاً بعناية المسلمين ورعايتهم أكثر من أى وقت آخر(١) لأن المسلمين كانوا أشد تمسكاً بالدين، هذا بالإضافة إلى أنه بيت محجوج من جميع طوائف الشرق مرموق بعين التجلة والاحترام من الجميع. لبلاد المشرق مزية لا يمكن إنكارها مع مالها من مثالب ومساوئ، تلك المزية هى احترام الشرقيين للمعابد وتقديسهم الأماكن المقدسة، هذه حقيقة لا يمكن نكرانها، فاحترام الشرقى لكل مكان مقدس(٢) غريزة كامنة فى نفسه ورثها عن آبائه وأجداده جيلاً بعد جيل.

كان بيت المقدس وما زال إلى يومنا هذا مسجداً محجوجاً من كافة أقطار العالم الإسلامى يزورونه ويقدسونه ويقيمون فيه شعائر الله ويحافظون على ما فيه من الآثار والتحف محافظتهم على أعز الأشياء واحبها لديهم، تلك الأيدى الملوثة حسب زعمهم السخيف وقياسهم الباطل طالما رفعت ما تهدم من أركانه، وأصلحت ما تصدع من بنيانه فأعادت له الجدة زمناً بعد زمن وجيلاً بعد جيل، ليكون لساناً ناطقاً وشاهداً عادلاً على احترام المسلمين عامة لمسجدهم الأقصى، أما فكرة التخريب فلم تخطر على

(١) فى بيت المقدس اليوم من التصليحات التى تمت فى أيام مختلفة من عصور الحكم الاسلامى ما يدل على اهتمام الخلفاء والامراء من كافة اقطار العالم الاسلامى بالمسجد الاقصى.

(٢) قال الله تعالى فى كتابه العزيز: (فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله).

بال أمير مسلم مهما تناهى فى الظلم واشتد فى الجبروت والعسف أيجوز اذاً والحال على ما فصلناه تضحية المئات والألوف على مذبح التعصب؟

لقد أزهقوا فى حرب مقدسة واحدة ما ينوب عن سبعين ألف من المسلمين الآمنين فى ديارهم، فأصابوا من أعراضهم ومثلوا بأجسادهم حتى بلغت بهم الفظاعة إلى حد استخراج مرائر القلوب ووضعها فى القوارير ليستصحبوها إلى بلادهم كأدوية ناجعة لبعض الأمراض حسب زعمهم الباطل.

لقد أمرهم الإنجيل بالرحمة والشفقة، وأن يدير المرء خده الأيسر لمن صفعه على خده الأيمن فهل صدعوا بأمره، وهل المسيح هو الذى أوحى إليهم تلك الحروب الشنيعة أيرضى منقذ الإنسانية والآمر بالإحسان والحنان أن يموت الألوف من أهل الهلال فى سبيل غرور حملة الصلبان!

أما وقد أبلى لويس التاسع عشر من مرضه، فأرسل إلى البابا يعرض عليه عزمه على تنفيذ نذره وأنه مستعد لتجهيز المعدات لذلك، وما كاد يصله الإذن حتى أعد الحملة الصليبية السابعة وقوامها خمسون ألفا من الجنود ومئتى قطعة من السفن ولما تم له ما أراد أبحرت سفنه بتلك العدة وذلك العدد ووجهتها جزيرة قبرص.

* * *

يرى القارئ من خلال ما شرحناه أن الصليب ينافس الهلال منذ زمن بعيد ولقد أصبحت من القواعد المقررة لديهم أن الصليب قد يسيطر فى كل مكان ينير فوقه الهلال، أما الهلال فلا يجب أن يضئ فوق مكان يحكم فيه الصليب، لأن الصليب لا يريد أن يرى رقيباً له ولأن الخفافيش يعميها ضوء الهلال. إن الزور والبهتان لا يدومان لهما سلطان ولا يغطيان على الحق أو يمنعان نوره، أما القوة فقد تضغط على أنفاسه فحسب

الشرق أكثر حلماً وأكرم وفادة وأشد تسامحاً من الغرب من كل الوجوه.

لقد عاهد ملك فرنسا ربه أن يهاجم الصليب فى وقت نأسف اليوم على مثله لم

تكن إذ ذاك ثمة قوة تستطيع أن تصد عصبيتنا الإسلامية أو تقف فى وجه وحدتنا الدينية. لقد فشلت كل مخالفة عقدتها أوروبا ضدنا وذهبت مساعيهم التى بذلوها فى سبيل تشتيت شملنا أدراج الرياح، إذ كانت تربطنا ببعض نحن أهل التوحيد عروة وثقى برباط معنوى واحد، كنا نصد كل قوة بقوة أشد منها هى قوة الاتحاد فكانت كل صدمة منهم تتكسر وتتبعثر كقطع الزجاج فوق سور منيع هو سور عقيدتنا.

* * *

أقام لويس التاسع أمه على منصة الحكم بدله وسافر إلى قبرص فى بضع أسابيع ومعه أقاربه وزوجته، ووصلوها فى موسم الشتاء ولبثوا فيها حتى انقضائه، وكان فرسان الجزيرة قد أخذوا فى تعذيب من عثروا عليهم من أسرى المسلمين بأنواع العذاب وألوان الضيق، وكانوا يكرهونهم على قبول النصرانية بأمر وكيل البابا فيخلى سبيل من يقبلها وتقطع أوصال الذين يرفضون تغيير عقيدتهم.

وقع أكثر هؤلاء الأسرى المساكين فى أيدى الفرسان عن طريق القرصنة، وقاسوا عسفاً شديداً ومظلماً مريراً طول مدة الشتاء حتى أنهم لم يتركوا نوعا من أنواع التعذيب المعروفة فى القرون الوسطى دون تجربتها عليهم، وبعد أن أقام لويس وحاشيته على مثل هذا التشفى وإزهاق الأنفس البشرية خلال ستة أشهر قام بجنوده مشرعاً بسفنه نحو مصر ووجهتهم بيت المقدس لتطهيرها من أيدى المسلمين.

الفصل الثالث

وصل الملك الصالح مدينة المنصورة، مضنى الجسم، مريضاً منهوك القوى فلزم تواً فراش المرض. كان يتألم من دمامل فوق ركبته ومن نزلة صدرية وفدت إليه أثناء الطريق(١)، وكانت حرارة الجسم والسعال الطويل ينذرانه بخطر السل فيئس من حاله ووقع فى وهدة الاضطراب، إذ كان لا يستطيع الإشراف بنفسه على تعبئة الجيش وما يلزمه من المعدات، ومع ذلك فلم يأل جهده فى إصدار الأوامر المتتالية والخطط الحربية لتحصين دمياط وإعدادها للكفاح والدفاع.

لقد أتم تحصين (دمياط) كما يجب وجهزها بذخائر ومؤنه تكفى حاميتها شهوراً عديدة ثم شرع بعد ذلك فى إعداد الأساطيل من القاهرة وحشد الجنود المصرية عند الساحل الغربى من دمياط تحت قيادة أمراء مصر، ووجه القيادة إلى الأمير فخر الدين يوسف(٢)...

* * *

وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية حاصر الأسطول الفرنسى ثغر دمياط. ثم طلب الملك لويس جرياً على عادة الصليبيين- تسليم الثغر من حاميته، وعندما رأى علامات المقاومة وجه خطاب تهديد إلى الملك الصالح، نجم الدين الأيوبى قال فيه:

" إنك لتعلم أننى حامى ديار المسيحية، كما أنك ولى أمر المسلمين ولقد سمعت بلا ريب أن مسلمى الأندلس قد أصبحوا اليوم أيضاً فى قبضة يدنا، مستظلين برايتنا وهم عون إلينا من حين لآخر زرافات ووحداناً، يقدمون إلينا أموالهم وما ملكت أنفسهم رغبة فى رضانا فنسوقهم كالأغنام، نقتل ذكورهم ونترك نسائهم أيامى، نسبى أولادهم

(١) الخطط التوفيقية.

(٢) المقريزى.

وبناتهم ونصير ديارهم خراباً بلقعاً، فأعلم ذلك إن كنت تجهله ونصيحتى إليك: أننى سأحاربك وأقاتلك مهما بذلت لى من وسائل القرب، إننى مهاجمك حتى لو أقسمت يمين النصرانية وارتديت ثياب القسس وحملت الشموع أمامى، إما أن أفوز عليك فأجعل بلادك تحت قبضتى، وإما تغلبنى على أمرى هاأنذا مخبرك فلا تنس أن جنودى كثيرة ورجالى لا يحصى لهم عدد، يملأن الوديان والجبال وينافسون الحصى كثرة وعدداً سوف لا يغمد هؤلاء الرجال سيوفهم بل سيسرعون نحوك لهلاكك وبوارك"

لم ينته الملك الصالح من تلاوة الخطاب حتى بدت على وجهه علامات التأثر وطفرت دموع الألم من عينه، ثم ناوله بعد ذلك إلى القاضى بهاء الزهراوى الجالس عن يمينه ليقرأ وبعد التشاور فيما بينهما وبين رجال المعسكر أرسل الرد التالى:

"بعد البسملة والحمد لله أخذت كتابك وإنك لتفخر على بكثرة جنودك وتهددنى بمالك من عدة وقوة ألا فلتعلم أننا رجال سيف لا نخشى أمراً فى سبيل كلمة الله، فمن مات شهيدا قام مكانه مؤمن آخر، ومن قصدنا بسوء فإنما هو وارد إلى حتفه بظلفه ألا تبصر عيناك المغرورتان حدة سيوفنا وعظمة أبطالنا؟ أتعمى عن رؤية القلاع والسواحل التى فتحناها؟ وديار الأعادى التى أبدناها؟ لو تمعنت فى أمرك لظهر لك سخف رأيك وتكليف نفسك مشقة لا طائل تحتها ولا مطمع من ورائها لو ترويت وتبصرت أسلمت أى منقلب ينقلب الظالمون؟ قال الله فى كتابة العزيز "وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين".

قرأ لويس التاسع هذه الأسطر النارية، فجمع رجاله فى الحال وشاورهم فى الأمر وما كادوا يشيرون عليه بنزول الجنود إلى البر حتى وطئت جنوده أرض مصر وأمامهم وكيل البابا يحمل صليباً كبيراً، ومن ورائه لويس التاسع يخفق اللواء المقدس فوقه وفوق عائلته ومن خلفهم الحاشية والجنود.

* * *

بدأت الحرب مساء اليوم العشرين من شهر صفر، واشتدت هجمات السفن الإسلامية على الأسطول الفرنسى شدة كادت تؤدى إلى فشل الصليبيين وفى تلك الساعة الرهيبة، التى كان المسلمون فيها يقاومون أهل الصليب بصدورهم ويتلقون هجمات العدو بثبات وعزيمة صادقة، تراجع قائد المسلمين الأمير فخر الدين بلا سبب، وأخذ يولى الأدبار، وما كادت الجنود الإسلامية تشعر بفرار قائدها حتى تولاهم الاضطراب ولانو أيضاً بالفرار أسوة بقائدهم، فساد الهرج والمرج بين صفوفهم وأختلط حابلهم بنابلهم مسرعين مجدين فى الهروب بكل ما فيهم من قوة حتى وصلوا (أشمون)، أما الأهالى فقد ذعروا لهذه الحالة، فحملوا ما وصل أيديهم من مال ومتاع متعقبين أثر الجيش، ولم يرتفع ستار الليل عن دمياط حتى كانت خاوية على عروشها، ليس فيها إنسان من سكانها، أما الصليبيون الذين لم يروا أمامهم مهاجماً أو مدافعاً اشتبهوا فى الأمر وخيل إليهم أن هناك دسيسة مدبرة من المسلمين لإيقاعهم فى فخ منصوب، فقربوا من المدينة وجلين يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى عندما شعروا بخلوها تقدموا نحوها متجاسرين ودخلوها دخول الظافرين الغانمين.

ما أشد دهشتهم أمام ذلكم اللغز. لقد ترك الجيش المذعور كل سلاحه وخلف الأهالى أقواتهم وأرزاقهم التى ادخروها لستة أشهر:... لم يبق فى المدينة انسان واحد ولكنها كانت مملوءة بالذخيرة والسلاح، فما هذا التناقض لقد غنم الصليبيون واحرزوا الفوز، ودخل صليبيو القرن السابع مدينة دمياط دخول الظافر كما دخل صليبو القرن العشرين مدينة (قرق كليسا)(١) أيخاف أهل الهلال من الصليب. القلوب الطافحة بالإيمان ليس فيها متسع للخوف.

التاريخ يعيد نفسه؟.. ما كاد الصليبيون يستولون على دمياط حتى حولوا جوامعها إلى كنائس واستتبوا فى ربوعها آمنين مطمئنين، وقد تملكوا أحكم القلاع المصرية فى زمن وجيز وفى فرصة غريبة ما كانوا يحلمون بها، وها هى القاهرة قد

(١) يلاحظ ان سمو الاميرة كتبت هذه القطعة أثناء حرب البلقان لان الجزء الاول من الاصل التركي مطبوع سنة ١٩١٣

أصبحت قيد ذراع منهم يحملون عليها متى شاءوا؟ أسقط فى يد الملك الصالح وفت فى عضده اشتد يأسه وزادت آلامه وأوجاعه. لكنه هب فى الحال مدفوعا بعزيمة صادقة ووقف أمام الجيش الفار يصد تياره إلى أن تمكن من ذلك.

ولما استتب له الأمر جمع أمراء الجنود الهاربة، وأمر بإعدامهم فى الحال حتى أنه أصاب فى ساعة واحدة خمسين من (سناجق) الجيش (١)

لقد وسم الأمير فخرالدين بقراره وتقهقره هذا جيوش المسلمين بوصمة العار وأضاع على المسلمين أنواتا كثيرة وأموالا جمة ونفوسا ذكية، وقد وجه الملك الصالح همته بعد ذلك إلى تحصين المنصورة وما بجوارها من القرى والدساكر، ولكنه لم ينس ضياع دمياط فكان لا يكل عن تجزية الذين تسببوا فى الهزيمة. كان يبذل دموع القلب أسى وحزنا كلما اختلجت فى نفسه حادثة تلك الخيانة. تم تمرد اتباع الأمراء الذين نالهم العقاب وحاولوا العصيان والوقوف فى وجهه إلا أن الأمير فخر الدين تمكن من إسكاتهم وإقناعهم موضحا لهم مرض الملك الصالح وقرب دنو الأجل من أمير البلاد. وكان الأمير فخر الدين مستحقا للعقاب والجزاء إذ كان أس البلاء فى حادثة الانهزام ولكنه تملص من العقاب بسهولة ولم يصبه أذى... لم يشتبك الفريقان عقب سقوط دمياط فى معارك حاسمة بل كان الحرب بينهما سجالا، يتصادمان فى مواقع صغيرة، وكان عدد الأسرى من الصليبيين يتزايد ويتكاثر يوما بعد يوم، وكان كلما تجمع نفر منهم أرسلوهم إلى القاهرة، وبدأ المسلمون يستردون قواهم ويجمعون شتاتهم شيئا فشيئا، وقد أحرزوا فوزا فى بعض المعارك، فقوى فيهم الأمل ودب فى نفوسهم النشاط إلى الاستعداد لمعركة حاسمة يطحنون فيها جيوش أعدائهم وهم على مثل هذا الحال من الأمل والثقة، وإذا بالملك الصالح تشتد عليهم وطأة المرض فى ليلة الأحد من اليوم الرابع عشر من شهر شعبان، وما أشرقت الشمس فى اليوم التالى على حقول المنصورة التى تزين ضفتى النيل حتى كانت روح الملك بعيدة عن هذا العالم الثانى،

(١) احدى رتب القيادة فى الجيش حسب النظام التركى القديم وكلمة (سنجاق) معناها اللواء وهذه الرتبة هى نفس رتبة (أمير اللواء) الحالية.

بالغا من العمر أربعين عاما، لقد كتموا خبر موته، حظر القلاقل وخشية اضطراب الجيش فنقلوا جثته سرا فى تابوت من المنصورة إلى قصر المنيل، حيث كانت تسكن شجرة الدر ودفن فى قلعة الروضة. لم يعلم نبأ الوفاة سوى شجرة الدر وبضع أفراد من المقربين المخلصين، إذ كانت الأميرة تخاف من إثارة الفتن والقلاقل فأرسلت إلى رئيس الأغوات وإلى قائد الجيوش فخر الدين تطلبهما، وأخبرتهما بما وقع وسردت لهما الأسباب التى حدث بها إلى كتمان الأمر، فاستصوبا رأيها وأقراها على ما فعلت ثم قرر الثلاثة فى تلك الجلسة أن يرسلو (آق طاى) أحد أمراء الجيش إلى الملك المعظم توران شاه. ابن الملك الصالح وولى عهد السلطنة. المقيم فى (حصن كيفة) لإحضاره فى الحال، وبعد أن أتمت الأميرة هذا الأمر أذاعت بعض الأمور والمنشورات على الشعب، وأخذت المواثيق والعهود على رجال الجيش بأن يطيعوا الملك الصالح ويقيموا على عهد الملك المعظم توران شاه بعده، وقد كتبت الأوامر بخط رجل من حاشية البلاط يدعا سهيل إذ كان خطه شبيه بخط الملك، وكما كان أسلوب الأوامر موافقاً بأسلوب الملك نفسه حتى أنه لم يشك أحد فى أنها صادرة من الملك، ومن هذه الأوامر أن يقرن اسم ولى العهد (توران شاه) بإسم الملك فى خطب الجمعة، وأن تضرب النقود بإسمه وكان الأطباء أثناء ذلك تتردد على المنصورة تغريراً بالناس وإيهاماً لهم بوجود الملك على قيد الحياة، وكانوا يتكتمون خبر موته ويذيعون عنه أنه فى شدة المرض غير أن الخبر أتصل ببعض الجواسيس، فنقله إلى الصليبيين الذين أقامتهم الحادثة وأقعدتهم وجعلتهم يتهيئون لغزوه كبرى.

أعد لويس عدة لمهاجمة المنصورة وتحرك إليها بجميع جيشه، فالتحم الجيشان فى معركة خطيرة دامت طويلاً وقتلت عدد كبير من الطرفين وكان ضرر الأعداء أشد وأخطر حيث مات ووقع فى الأسر منهم عدد كبير، وقد أستشهد قائد المسلمين فى هذه المعركة فظلت الجنود الإسلامية بلا رأس يحركها وأيقن المصريون بما يهددهم من الخطر، وشعر مماليك الملك الصالح بالنتيجة المؤلمة التى تنتظرهم إذا استولى

الصليبيون على البلاد، فقاموا جميعاً قومة رجل واحد للذود عن وطنهم. هؤلاء هم المماليك البحرية وقد أطلق عليهم هذا الاسم لإقامتهم بالمنيل فترأس الجيش أحدهم وهو (بايبورس) فجمع شتات الجيش وحمل على الصليبين حمله بددت جموعهم وكسرتهم شر كسرة ففرحت مصر والمنصورة بهذا الفوز المبين وأقيمت الأفراح وأزينت الأسواق وتليت الدعوات شكراً للمولى على ما تولاهم من جميل فضله وإحسانه ثم وصل توران شاه عقب هذا الانتصار، فأعلن وفاة الملك الصالح وعين ابنه خلفاً له أما شجرة الدر التى تمكنت بمهارتها ودهائها من كتمان الخبر إلى حين حضور ولى العهد وجهت اهتمامها إلى إقامة المأتم حداداً على زوجها تاركة مقاليد الحكم فى يد توران شاه.

الفصل الرابع

ما كاد توران شاه يستلم زمام الحكم حتى بدأ يهاجم الصليبيين أملاً فى الخوض معهم معركة حاسمة، لقد بذل كل ما فى وسعه لإخراجهم وطردهم من الديار المصرية.

كان معسكر الصليبين فى دمياط، ولكن معظم جنودهم كانت مقيمة عند ضواحى المنصورة وأشمون، فخطة توران شاه خطة حربية تؤدى إلى التفاف جيشه حول الصليبيين، وما كادت فكرته تتكلل بالنجاح حتى كان جيش الأعداء محصوراً وتحت قبضته.

أما الصليبيون الذين حوصروا بجيوش المسلمين من جميع أطرافهم فقد وقفوا فى وهاد اليأس وانقطعت الإمداد والذخائر عنهم فباتوا فى حيرة من أمرهم، ثم أشتد كربهم عندما أنتصر (توران شاه) على بحريتهم فى النيل وإغراق نحو خمسين من سفنهم. أصبح الصليبيون وقد أنقطعت مواصلتهم فى ضيق واضطراب عظيمين وكان (توران شاه) يرجو من وراء اضطرابهم هذا أن يقضى عليهم القضاء المبرم فى مدة وجيزة. أما الجيوش الإسلامية الذين دبت روح الجرأة بين صفوفهم عقب الانتصارات الباهرة فأنهم حملوا على أعدائهم حمله منكرة، مدفعين بقوة الإيمان ثملين بخمرة الفوز فشقوا صفوفهم وأنهالوا عليهم يكيدون لهم ألوان الضرب والقتل حتى بددوهم وفرقوا وحدتهم شر ممزق.

دحر الصليبيون ولانوا بالفرار، مسرعين مهرولين فى طريق دمياط، ونسوا وهم مرتبكين، مشتتين رفع إحدى الجسور الموضوعة على النيل عند مقربه من اشمون فتعقب المسلمون أثرهم حتى نقطة قريبة من دمياط، حيث وصل لويس وحاشيته إلى تل صغير فصعد، وما كاد المسلمون يبدءون فى محاصرتهم والالتفاف حول التل الذى اعتصموا به حتى طلب ملك فرنسا الأمان وسلم نفسه مع رجال حاشيته وخمسمائة

نفر من جنوده.

* * *

وقد وعد أثناء وقوعه فى الأثر بأن يسلم دمياط مقابل أن يترك المسلمون له بيت المقدس، فلم يعبئ أحد بقوله بل ساقوه إلى المنصورة ووضعوه أسيراً فى دار القاضى فخر الدين.

قرر توران شاه بعد ذلك أن يقيم بفار سكور فجمع رجاله وجنوده وذهب بهم جميعاً إلى المكان المستحب لمعسكره، وهناك وجه اهتمامه لتشييد قصر فخم من الخشب على ضفة النيل ورفع بجانبه برجاً عالياً جعله لمسكنه وملذاته الشخصية، تلك الملذات التى انغمس فى تيارها ،ناسياً أمر الصليبيين وشئون الدولة.

كان يستقبل شمس يومه والكأس بيده وتغرب الغزالة عن حقول فارسكور وهو ثمل مضنى الجسم، مفكوك الأوصال من كثرة الانهماك فى معاقرة بنت الحان ومنادمة الغلمان! كانت أيام حياته تمضى على هذه الوتيرة لا يعكر صفوها سوى عدواة متأصلة فى نفسه نحو المماليك البحريين إذا كان لا يطيق سمعا لنصائحهم وإرشاداتهم، فكان إذا جلس ليلا جمع حوله الغلمان الذين أحضرهم من دمشق لأنه كان لا يستطيع مفارقتهم ساعة واحدة وأوقد الشموع حولهم، فإذا دب دبيب الخمر فى النفوس وأخذت تلعب بالرؤوس قام توران شاه من مكانه ممتشقا حسامه، وبدأ فى مهاجمة الشموع يحاربها ويكافحها، يقطع رؤوسها ويمثل بجسومها، زاعما أنها أعدائه المماليك البحرية.

بمثل هذه الحالة السيئة بدأ الملك المعظم توران شاه أيام حكمه وسلطنته لاهيا عن الواجبات التى يجب تنفيذها فى مثل تلك الأيام العصيبة والأوقات الرهيبة التى يعانيها المسلمون، سائرا على المناهج الواعرة المؤدية إلى إثارة الفتن وتفكيك أوصال البلاد.

كان ملكا مستبدا وحاكما مغرورا وأميرا عديم الوجدان فكرهته الرعية بعد أربعين يوما من توليه الحكم وابتدأت تعيب على أعماله وحركاته أما المماليك البحريون، تلك الكتلة القوية فى عنصر الأمة، فقد جاهرت علنا بعدوانه وأقسمت بالانتقام وأخذ الثأر عقب حادثة الشموع.

لم يبق إنسان فى مصر يرعاه ويعمل لصالحه، فقد كسر القلوب وصدع النفوس وأمضى بيده حكم أعدائه. وبينما كانت شجرة الدر فى قصرها بالمنيل تقضى أوقات الحياة محفوفة بالعز والإجلال، مرموقة بأنواع الترف وضروب الرفاهة. أرسل إليها توران شاه يطلب منها رد أموال أبيه وأملاكه إليه، ويهددها باستعمال القوة والعنف وردت عليه تقول إنها صرفت أموال أبيه فى الجهاد المقدس إلا أن جوابها لم يرق فى نظر توران شاه فغضب غضبا شديدا.

وقابل إجاباتها بلهجة عنيفة لا يليق صدورها من رجل لامرأة أبيه. ما كانت شجرة الدر لتنتظر مثل هذه المعاملة وقد حركت هذه الحادثة الحنق والغيظ فى تلك النفس العصبية دفعتها إلى تحريك المماليك ضد توران شاه فى الحال، ولم يتردد هؤلاء فى إجابة طلبها، السابق غيظهم منه واستعدادهم إلى مجابهته بالشر والعدوان.

تذكرت شجرة الدر جميل صنعها مع ابن زوجها وكيف أنها جاهدت فى سبيل كتمان خبر الوفاة، وقد دبرت مجيئ ولى العهد ومهدت له سبيل الحكم وكانت كلما لجت بها الذكرى اشتد غضبها وازداد هياجها وتمردها نحو من أحسنت إليه فأساء المعاملة وقابل الجميل بالخيانة والنكران.

لو لم تكن شجرة الدر لانفجرت قنابل الثورات فى البلاد عقب وفاة الملك الصالح ولولا تدبيرها ومهارتها لساء الحال والمآل أيكون جزاء سياستها الحسنة مقابلتها بالعدوان؟ أيصل بها الحال إلى هذا الحد من الامتهان بعد كفاحها وجهادها فى سبيل توطيد دعائم العرش لابن زوجها، لا لوم عليها بعد اليوم ولا تثريب إذا - هى رفعت لواء التمرد والعصيان، فقد اتسعت بينهما شقة الخلاف وأخذ الذين يحتاطون بتوران

شاه يعملون على اشتداد الأزمة وينفخون فى صدره ما يزيد النار ضراما فيقولون له: "إنما الملك والقوة فى يد شجرة الدر وما أنت سوى قالب للحكم. إنك لضعيف عاجز، لا تستطيع أن تتمتع بسلطة ما دام منافسوك على قيد الحياة".

تقع أمثال هذه الكلمات فى نفسه وقوع القنابل فيثور ثورة الجنون، مقسما بأغلظ الإيمان على قتل جميع المماليك، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه× تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن لقد قتله المماليك قبل أن يقتلهم وتمرد عليه أولئك الذين هاجمهم فى صور وأشكال من الشموع تحت إمرة (أق طاى) سفير مملكته إلى دمشق. كان توران شاه قد وعد (أقطاى) هذا بأن يوليه محافظا على الاسكندرية ولكنه أخلف وعده معه فمال إلى الفتنة والعصيان.

فى يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر محرم، تناول توران شاه طعامه مع الأمراء والحاشية فى المضرب الخاص كالمعتاد، وبعد أن تركهم ودخل ردهة القصر ليستريح قليلا، هجم عليه أحد المماليك بسيف مشهور، فرفع الملك يديه مغطيا وجهه فأصابه المملوك فى أصابعه وما كاد الضارب يرى ذلك حتى اضطربت أعصابه وسقط السيف من يده ولاذ بالفرار.

أغمى على الملك المعظم وتولاه الخوف لأول وهلة ولكنه سرعان ما تمالك قوته وفكر فى أمره فوجد أنه على أبواب الخطر وأنه لا أمان لحياته فيما إذا أقام فى القصر فهرول نحو البرج ليعتصم به، ورآه المماليك وهو يصعد قمة البرج فاحتاطوا به إحاطة السوار بالمعصم:.

صاح الملك يطلب الأمان، ولكن لم يجد إنسانا يعطف عليه ويشفق على حالة فى تلك الأزمة، فقد كان الأمراء والمماليك والشعب جميعا يبغضونه ويتمنون له الموت والهلاك. وهو فى صياحه وندبه وإذا بالأمير حسام الدين يقترب نحو القصر على رأس كتيبة من فرسان المماليك، ولقد حاول سفير إمارة بغداد أن يمد إليه يد المعونة إذ ذاك فقامت عليه قيامة المماليك واضطروه إلى التزام جانب الحيدة والسكون. هاجت

فارسكور وماجت بصنوف المماليك والأمراء، وهجم الجميع على القصر يطلبون من توران شاه أن ينزل والا أحرقوا عليه البرج، فلم يبق له أمل فى الخلاص غير أنه ظل يطلب منهم الأمان والرحمة مستغفرا عن سيئاته وآثامه إلا أنهم استمروا فى إصرارهم وتفتهم إلى أن أشعلوا النار، فابتدأ اللهيب يتصاعد إلى عنان السماء وقبل أن تصل النيران إلى توران شاه ألقى بنفسه فى النيل فرمت جموع كثيرة بنفسها وراءه، وسدد الباقون على الشاطئ سهامهم نحوه وهو يعدو سباحة فى الماء.

بدأ يغالب الأمواج وبدأ الناس يقتربون منه وينالون جسمه بأطراف سيوفهم وهو يناديهم بقوله: "دعونى أخرج من مصر إننى لم أظلمكم إلى هذا الحد فتعذبونى على هذا الوجه" فلم يسمع له قول لأن حب الانتقام كان قد استولى على النفوس، وكانت جموع كثيرة تطارده فى النيل مدفوعة بهذا العامل حتى وصلوا إليه فقتلوه شر قتلة فمات الملك المعظم توران شاه، الحلقة الأخيرة فى سلسلة الأيوبين، على هذا الوجه الغريب الذى أثار دهشة المؤرخين: محروقا مقتولا مغروقا مذموما من الناس مبغوضا من الرعية بعد أن حكم سبعين يوما.

استأنف الأمير حسان الدين مفاوضات الصلح مع الصليبيين عقب هذه الحادثة وأمضى عقد الصلح، وكان الصليبيون اذ ذاك فى حالة سيئة فجيوشهم مشتتة ودمياط التى تحصنوا بها محاصرة، ونال الطاعون منهم فكان يفتك بجنودهم يوما بعد يوم يسوقهم إلى الخراب والدمار فقبلوا الصلح وكانت شروطه فى مصلحة المسلمين اذ كانت تحتم على أهل الصليب بأن يدفعوا غرامه حربية قدرها أربعمائة ألف دينار.

وفى اليوم الثالث من شهر صفر عام ٦٤٨ هجرية ترك ملك فرنسا ذلك الذى ساق مسلمى الأندلس كالأغنام دار القاضى فخر الدين حيث كان سجينا، وترك جنوده ثغر دمياط يسحبون أذيال الفشل والعار مبتعدين بسفنهم وفلول كتائبهم عن مصر على أمل العودة لتخليص بيت المقدس ووفاء النذر... أما الأمير حسان فقد أسرع مع جنوده وأمرائه إلى القاهرة، فاستقبلتهم البلاد بمظاهر الفرح والسرور، إذ اشتد حماس

الشعب على أثر انعقاد الصلح وانكسار الصليبيين، فدخل عاصمة البلاد دخول القائد الظافر وتوجه من وقته إلى قصر النيل، وهناك أقاموا شجرة الدر بإجماع الآراء أميرة لهم تحت عنوان "الملكة عصمة الدين"، فتقلدت الحكم بحفلة زاهرة، كانت حدا فاصلا بين خاتمة الأيوبيين وبداية حكم المماليك.

الشعب على أثر انعقاد الصلح وانكسار الصليبيين، فدخل عاصمة البلاد دخول القائد الظافر وتوجه من وقته إلى قصر النيل، وهناك أقاموا شجرة الدر بإجماع الآراء أميرة لهم تحت عنوان "الملكة عصمة الدين"، فتقلدت الحكم بحفلة زاهرة، كانت حدا فاصلا بين خاتمة الأيوبيين وبداية حكم المماليك.

الصلاة المقيم بين جامعين(١). علينا أن نغترف من مناهل المدنية الغربية، ولكنه لا يليق بنا نحن المسلمات أن نضحى فى سبيل هذا الواجب جميع الشرق وعاداته الجميلة وتقاليده الحسنة.

لنضع نصب أعيننا نحن الشرقيات ترك السفاسف ولتفهم الواحدة منا أنها ليست لعبة أو زينة. إننا نعيش فى زمن لا يتسع لأمثال هذه الصغائر علينا أن نتفهم حياة السلف ونعمل على تخليد صحائف أعمالنا، ولتشعر الواحدة منا بالمسئولية الملقاة على عاتقها. الفرد جزء من الإنسانية ومجموع الخلق هى الإنسانية. وما نحن الشرقيات سوى قطعة منها.

أين شخصيتنا؟ لنسع فى إظهارها. وكفى ما نالنا من الأذى وما أصابنا من الضرر بسبب جهلنا: كيف يسوغ للهلال والنجمة أن يغمرهما الظلام وتحجب الغيوم ضوءهما من النفوذ إلينا. إن أمة لها مثل هذا الزمن كان يجب أن تكون فى مقدمة الأمم نوراً وعرفاناً.

إذا رغبنا فى الحياة، إذا شئنا السعى والعمل بنظرية تنازع البقاء بما فينا من جهد وحسن نية إلى أن نتمكن من إزالة ما علق بأذهان الأوروبيين ضدنا من الأوهام والنوايا السيئة، لو استطعنا أن نصل إلى الدرجة التى كانت عليها نساء الشرق قديماً لوقفنا قليلاً فى سبيل تدهورنا فى هوة التدنى. لم تكن شجرة الدر شخصية كاملة ولكنها استطاعت أن تظهر على مسرح الحكم والسياسة فى زمن عصيب، وكونت لها قصة تشتاق الآذان لسماعها وهذا ما حدا بى إلى تصوير قصتها وشئون حياتها للقراء.

* * *

(١) تشير الاميرة إلى نادرة مشهورة لا بأس هنا بايرادها «طلب رجل من عبده أن يجد له بيتاً بعيدا عن المساجد وكان قليل الصلاة يميل إلى اللهو والمجون فدله العبد على منزل بين جامعين فقال. ويحك أريد أن أبتعد عن المساجد فتدلنى علي مثل هذه الدار فأجابه لا بأس عليك يا مولاى؟ أهل هذا المسجد يظنوك تصلى فيه وأهل ذلك يظنوك مداوماً على الآخر فيكون لك ما تريد».

عندما وقع اختيار حسام الدين ورجاله عليها لتكون ملكة مصر وأميرة البلاد كانت تقطن فى سراى المنيل، على شاطئ النيل وفى أجمل موقع من مواقع مصر وكانت إذ ذاك وسيمة الوجه، جذابة الملامح، يقرب عمرها من الأربعين، ذات دراية وحنكة فى شئون الحكم والإدارة، اشتهرت بهما منذ أيام زوجها الملك الصالح.

افتتنت بالمُلك وتعشقت أبهة الحكم، فبنت صرح مجدها وشهرتها بيدها، ولكنا لا ننسى بجانب ذلك حبها الخير وإيثارها رفاهة الشعب وبحبوحته على كل أمر وشأن فأنقصت الضرائب وغمرت المماليك بالهدايا، واغدقت عليهم المراتب والمناعم إذ كان أقصى أمل لها أن تفوز بحمد الناس ومحبتهم لها.

يدلنا على حسن ذوقها ما كان فى قصرها من حسن الترتيب وظرف التأنيث، ففى القاعات والحجرات توقد شموع العنبر المحمولة على أوانى الفضة والذهب على الطراز العباسى، وتقع العين فى أرجاء القصر على نفائس الأقمشة الحريرية المطرزة بالديباج الأصفر والأبيض وأوانى الفضة وصحون الذهب وجامات البلور والأقداح المزينة حافتها بسطور اللؤلؤ وخطوط الأحجار الكريمة، إذ كان لها ولع بأدوات الطعام، وغرام فى اقتباس نفيس الثياب، ورغبة حارة فى مظاهر الأبهة والدبدبة(١).

ما كادت تستلم زمام الحكم حتى تركت قصرها البديع وما فيه من نفائس وزخارف وانتقلت إلى القلعة المشهورة التى بناها صلاح الدين الأيوبى واتخذتها مقراً لحكمها، ففى هذه النقطة العالية المتوجة لرأس المقطم والمشرفة على جميع القاهرة كان يقيم من سبقها من الحكام فسارت هى الأخرى سيرهم، لأن قصر المنيل لم يكن منيعاً حصيناً إلى حد مقاومة الهجمات وصد تيار الفتن والمشاغبات، أما أسوار القلعة فمتينة رصينة تقوم بالغرض وتفى لمثل هذه الحاجة.

* * *

(١) موقع قصرها بالمنيل هو المكان الذى سيقام عليه المنتدى الكبير التى ازمعت احدى الشركات على بنائه واوقف بناؤه الآن.

بدأت شجرة الدر تجمع وزراءها فى غرفة من غرف القلعة وتحضر هى مجلسهم من وراء ستار رقيق، ثم عينت أحدهم، وهو عز الدين أيبك، اتابكا أى فى رتبة تماثل رتبة رئيس الوزارة فى أيامنا هذه.

كان عز الدين قائداً محنكاً جرئ القلب ذكى الفؤاد، مشهوراً بعلمه وفضله ودرايته، عرف كيف يستولى على قلوب الخلق وينال ثقتهم كما بدأ يفوز بالتفات الملكة وحسن تقديرها لكفاءته يوماً بعد يوم.

لم تكتف شجرة الدر بأن يقرأ اسمها فى خطب الجمعة، بل ضربت نقوداً باسمها نقشت على وجه منها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وعلى الوجه الآخر

"المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة منصور خليل الخليفة أمير المؤمنين"(١) كان دورها زاهياً زاهراً، وصار الناس يتفاءلون خيراً بقومها، وبدأ الفقراء ينعمون بميزاتها وحسناتها إذ كانت ملكة عاقلة لبيبة على دراية تامة بأصول المسائل وفروعها، ولقد أحدثت فى الإسلام بدعة حسنة لم تزل فى مصر إلى يومنا هذه، هى بدعة المحمل الشريف، ففى عهدها سافر أول محمل فى الإسلام من مصر إلى الحرمين الشريفين، إنها ابتدعت أمراً حسناً فلها ثواب تلك البدعة إلى يوم القيامة.. من أحدث بدعة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها ومن أحدث بدعة سيئة فعلية وزر من عمل بها إلى يوم الدين.

---

(١) ابن إياس

كانت شجرة الدر رغم مظاهر حياتها الخصوصية، امرأة مسلمة ذات ميزة خاصة فى حياتها العمومية. كانت على علم تام بنفسية الشعب ولم تكن حكومتها استبدادية. لا تشرع فى عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ولا تصدر قراراتها إلا بعد الرجوع إلى رأى وزرائها ومستشاريها، وإذا حدثتها نفسها بأمر تريد إبلاغه إلى الناس مباشرة أرسلت فى طلب وزيرها أبن أيبك وبعد المباحثة والمناقشة معه تأمر بإصدار أوامرها الملكية.

فكان أيبك لا يقصر فى كل سبيل يؤدى إلا مرضاة الملكة:

وبينما كان حكم شجرة الدر آخذ فى طريق الشهرة بما كان يلاقيه من إقبال الشعب ورضائه التام بدأت عصابة من الناس تدس الدسائس وتنصب شباك الأحابيل حول عرشها، رغبة فى إسقاطها، لحمة هذه العصابة أتباع توران شاه ممن فروا إلى الشام وسداها الخليفة الزمنى المعتصم بالله ونفر من أشياعه ومريديه.

قامت الفتن على ساق وقدم، وبدأ العصاة ينفخون فى أبواق النفاق بما يرمى إلى الشقاق بدعوى أنه لا يجوز شرعاً لامرأة أن تتولى شئون المسلمين مع أن شجرة الدر لم تأت أمراً يغضب عامة الإسلام سواء أكان فى مصر أو فى سوريا، فضلاً عن إجلالها واحترامها لمقام الخليفة المعتصم بالله.

تفاقم الخطب واشتد الصخب، وقامت بغداد تهدد مصر، فكانت الرسائل والأوامر تترى، بطلب خلع شجرة الدر وإقامة أمير من الرجال ومخابرة الخليفة لتعيين أمير عادل إذا تعذر عليهم وجود رجل من بين المصريين يصلح لهذا الأمر!.. وكانت الرسائل موجهة إلى المماليك ومصوغة فى قالب اللوم والتعنيف ومعززة بالأحاديث والأسانيد المنذرة بخراب الأمة التى تتولى النساء شئونها وتتصدر مجالس الحكم فيها. وما كادت تروج هذه الدعوة وتتناقلها الألسن فى المجالس والمحافل حتى بدأ المماليك يفكرون فى وجه الصواب. كانوا يرون أن حكومة شجرة الدر لا تخالف الشرع فى شئ. إذ كانت مؤسسة على دعائم الشورى فكانت لا تبرم أمراً دون أخذ رأى الوزراء

ووجوه البلاد فضلاً عن مهارتها فى إدارة دفة الأحكام، تلك المهارة التى تجلت فى شكل رائع ملموس لا يدع مجالاً لقول قائل، ولكن ما العمل؟ وكيف يمكن التوفيق بين وجهتى النظر فى مصر والشام فى وقت عصيب يهددهم فيه خطر الصليبيين؟

بينما كان المماليك يفكرون فى هذا الأمر ويقبلون الرأى على وجوهه ليتبينوا من خلاله وجه الصواب، وإذ بإتباع (نوران شاه) يحثون أهل الشام على التخلص من حكم مصر بدعوى أنها ذات حكومة غير شرعية، فقاموا بدعوة أمير حلب (الملك الناصر يوسف الإيوبى) وبايعوه أميراً على الديار الشامية، ثم قاموا على أشياع شجرة الدر واستأصلوا شأفتهم فتم لهم ما أرادوا وفصلوا تلك القطعة الكبيرة عن الحكومة المركزية فى مصر.

على أصحاب الغايات النبيلة والمقاصد الشريفة بذل النفس والنفيس فى السبل المؤدية إلى تحقيق الغرض، ولكن الذين نادوا بسقوط شجرة الدر لم يعملوا بهذا الدستور. إنهم آثروا التضحية بحكومة عظيمة فى سبيل أغراضهم الشخصية. كانت هذه الفئة الهادمة العاملة لمصالحها الشخصية تعمل على تعكير المياه كلما قاربت حد الصفوة، رغم مهاجمات الصليبيين وما يهدد البلاد الإسلامية من المصاعب والأخطار فأدركت شجرة الدر بفطنتها وحسن درايتها حقيقة الحال، فعقدت مجلساً من أركان الدولة واستشارتهم فى الأمر وطلبت منهم أن يبينوا لها الطريقة المؤدية إلى إرضاء السوريين والوسائل الموصلة إلى حسن التفاهم بين القطرين الشقيقين.

كان الموضوع عويصاً يتطلب رأياً حسناً وتدبيراً محكماً فلم تشأ أن تطلق العنان لمشاعرها بل طلبت من وزرائها المعونة والتعضيد بعد أن طرحت الأمر على بساط البحث بكل رزانة وثبات. أما المجلس فقد فحص الأمر بعناية واهتمام وأظهر لها وجوب الاهتمام بما يؤدى إلى راحة الشعب وسلامته مع بيان امتنانهم لها ولحكومتها وقر رأيهم بالإجماع على أن تترك زمام الإدارة إلى عز الدين بن أيبك، وأن يعقد له عليها عقب تنصيبه للحكم.

تم تنفيذ القرار وتعين عز الدين بن أيبك سلطاناً على مصر، وأرسلوا إلى الخليفة يشعرونه بتبدل الحال.

لم يتغير الحال كما زعموا، بل كانت شجرة الدر هى الحاكمة تنهى وتأمر من وراء الستار عقب زواجها بأمير البلاد.

تربعت شجرة الدر فى قلب عز الدين كما تربعت فى عرش مصر من قبل، فكان يخدمها خدمة العبد للسيد ولا يتوانى لحظة واحدة عن سلوك السبل المؤدية إلى راحتها ومرضاتها. كان يرى خدمتها ديناً فى عنقه يجب أداؤه فصار نقابا لها تبصر وتعمل من ورائه وأداة لسرورها ونعيمها.

لم تصل شجرة الدر إلى هذه المنزلة اعتباطاً، ولم يحلها عز الدين من نفسه ذلك الإحلال إسرافاً لقد كانت امرأة زاهية زاهرة ذات جاذبية وذكاء وعلى علم ودراية فليس من السهل على المحتكين بها المتصلين بشخصيتها التوقى من قيود تلك الجاذبية.

كان الملك الصالح يتلقى رغباتها كأمر يتحتم تنفيذه، ويرى فيها درة نفيسة فى تاج حياته أما عز الدين فكان مفتوناً بها بحرارة الشباب مع أنها أسبق منه فى مراحل العمر.

كان عز الدين، لبيباً، عاقلاً ذكى الفؤاد، فأحبه المماليك وجعلوا لا يخرجون عن رأيه ومشورته فى كل أمر.

* * *

بعد تعيين عز الدين ملكاً على مصر وتسميته (الملك المعز أيبك) فرح الناس بحكومته المشتركة بينه وبين زوجته شجرة الدر، وتطلعوا إلى الراحة والسكون عقب تلك الانقلابات والتطورات لكنهم لم يدركوا أمنيتهم، إذ تجددت الثورات فى الشام مرة أخرى واتصل بالمصريين خبر قيام أحد أقرباء توران شاه مع نفر من أتباعه وأشياعه، يعضدهم بعض المماليك ووجهتهم مصر فاضطرب المصريون ووقع الخبر عليهم وقوع

الصواعق.

لم يقبل السوريون بحكم المعز وهاجموا مصر متمردين ساخطين صاخبين، طالبين إقامة ملك من سلالة الإيوبين، ولم تنقشع سحابة غضبهم وتهدأ ثورتهم إلا بعد أن أقاموا يوسف مظفر الدين أحد أبناء الملك مسعود، من الأقاليم الشرقية ملكاً على مصر وحلب.

مصرنا هذه، مصرنا المسكينة، معرض الغرائب، تحت سماء تسامحها يأتلف الخصمان ويجتمع الضدان ففى العام التاسع والأربعين بعد الستمائة من الهجرة، كان على عرش مصر حاكمان أولهما الملك المعز أيبك وثانيهما مظفر الدين يوسف، تقرأ لهما الخطب وتضرب النقود باسميهما ويحكمان معاً جنباً إلى جنب، غير أن شجرة الدر ما زالت وراء الستار وفى يدها زمام الحكم الحقيقى تصدر أوامرها بسكون وهدوء وهى فى دائرتها الخاصة، فيهرع الحاكمان لتنفيذها والعمل بمشيئتها.

لم يكن الاثنان سوى لعبتين صغيرتين، أما الحاكم الحقيقى للبلاد فهى الملكة عصمة الدين التى تروح وتغدو بثيابها المزركشة فى قاعات قصرها الفخم المحتجب وراء أسوار القلعة.

شعر أيبك باضمحلال سلطته فاشترى عدداً كبيراً من المماليك وعمل على اكتساب ثقتهم وتعضيد نفوذه أمام خصمه. وقد حدث ما كان يتوقعه فإن رجال مظفر الدين حاصروا القلعة ذات يوم يرومون خلع أيبك، ولكنه قاومهم مقاومة عنيفة وبعد أن شتت شمل أكثرهم تمكن من قتل زعيمهم (آق طاى) قاتل توران شاه ورمى برأسه من وراء أسوار القلعة، وما كان المحاصرون يرون هذه الحال حتى أركنوا جميعاً إلى الفرار وكانوا يبلغون سبعمائة فارساً.

بعد هذه الحادثة قبض المعز على خصمه مظفر الدين وحبسه فخلا له الجو مرة أخرى.

الفصل السادس

العشق نبات لاهوتى، ينمو بطبيعته فى كل زمان ومكان وفى كل بلد وإقليم، فلا الرياح ولا العواصف ولا الأمطار تعوق هذا النبات عن النمو والنضوج، لأنه ينشأ حيثما شاء وأينما أراد ولهذا النبات المحبوب، زهرة لطيفة جديرة بالنظر والاعتبار.

ولكن لشمس العشق أشعة نارية تعمل فى هذه الزهرة مالا تعمله الطبيعة فقد تؤثر على لونها فتصير باهته شاحبة بعد النضارة والزهاء، وللعين دموع تنزح بانهمالها وانسجامها مالها من رائحة عبقة واريج فياح، وللقلب ثورات وهبات تنتشر معها أوراقها الجميلة فتذروها الرياح. إنها لزهرة رقيقة قد تذبل عند أقل إهمال، فهى تنبت فى الأرض العامرة والتربة الخصبة، ويتناسب عمرها طولاً وقصراً بقدر خصوبة التربة والمنبت، فمن استطاع سبيلاً إلى تربية هذه الزهرة، زهرة الطبيعة زنبقة الغور، عرف كنه الحياة، فإذا علمنا أن الملمين بفن تربيته قليلون أدركنا كيف أن الكثيرين تذبل زهراتهم فى مدد قصيرة.

هكذا الحال مع شجرة الدر والمعز، فإن زهرة حبهما وإخلاصهما أصابتها يد البلى بعد عواصف نفسية دامت أربعة أعوام.

بدأت عوامل الحياة والنمو تتقلص فى زهرة الحب النامية فى قلب المعز حتى ذبلت، أجل لقد ذبلت تلك الزهرة الناضرة بغرور شجرة الدر ذلك الغرور الذى أطفأ النيران المتأججة فى صدر حبيبها المعز.

كانت الملكة عصمة الدين، أميرة تليق بسياسة الشعب وإدارة الأحكام. أما فى منزلها، فى مملكتها الصغيرة فقد كانت مستبدة توقع الرهبة فى قلوب حاشيتها، وتبعث السأمة والملل فى نفس زوجها.

كان المعز مفتوناً بشجرة الدر، منذ زواجه بها عام ستمائة وثمانية وأربعين

هجرية. كان يجلها ويحترمها من أعماق النفس وصميم القلب لذكائها وجمالها ومركزها وماضيها المجيد، وكانت هى تعلم منه ذلك وتعتقد بدوام هذه المحبة فيرتاح نفسها وتفتخر بحالها، لم يخطر ببالها أنه سيأتى على المعز يوم يتزوج فيه امرأة غيرها، لو فعل ذلك لما غفرت له مثل هذا الذنب، إذ ترى أن المعز إنما صار سلطانا على مصر بسعيها وفضلها، فكانت تجاهر بهذا الرأى وتجابهه به، ولا نجد لوما فى أن تقول له " ما وصلت إليه من عز وجاه، إنما وصلته من طريقى" فكان يخجل من ذلك ويشعر باضطراب داخلى لم يأبه كثيراً لهذه الأقوال فى مبدأ الأمر، ولكنه بدأ يشعر بوقعها الأليم على مر الأيام. إنه لا ينكر فضلها وعظيم أياديها عليه، ولكنه لم ينشأ صعلوكاً حقيراً. فقد كان ضابطاً عالماً عاملا ثم أميرا ذكى الفؤاد، ذو شخصية ومكانه.

* * *

جمعت الملكة عصمة الدين إلى حسن الوجه جمال النفس، فهى لذلك امرأة جديرة بالحب ولكنها أكبر من أيبك سنا وبدأت عوامل الانهماك فى المشاغل الدنيوية تظهر أثرها على أديم ذلك الوجه الناصع، وأخذ نور بهجتها فى الأفول وكلما زادت خطوة فى طريق العمر، زاد طيشها واشتد نزقها إلى أن صيرها الكبر ذات طبع نارى ومزاج عصبى، تستبد مع من حولها، تشاكس زوجها وتنغص عليه عيشته وتضيق دونه المذاهب والمسالك صباح مساء.

أما هو فكان يغضب لهذه المجادلات اليومية ليزداد نفوره منها حتى أصبح يتغيب كثيرا عن القلعة، وكان هذا التباعد يزيدها غيظا لأنها بدأت تشعر بزوال محبته لها، فاشتد تعلقها به وازداد هيامها وسارت ترى فى كل حركة من حركاته وكل طور من أطوار حالا يستوجب الغيرة.

كان لزوجها امرأة أخرى هى أم ولده الوحيد عقد عليها قبل زواجه بشجرة الدر، فعلمت بهذا الأمر فحكمت عليه أن يبتعد عنها بتاتا، ثم خشيت ألا ينفذ أمرها فأمرته بإحضارها وتطليقها منه فى الحال. تم لها ما أرادت ووصلت إلى بغيتها، ولكن ظلت

نيران الغيرة تتأكد فى ذلك الصدر المتقد وعاد زوجها إلى الابتعاد عن القلعة والنفور من دائرة الحريم، واتسعت شقة الخلاف بينهما حتى انقلبت على مر الأيام إلى خصومة متينة انتهت بمأساة دموية فجيعة.

* * *

مهما ارتقى الانسان وعلت شخصيته فهو بشر لا يسلم من عوارض النقص.

شجرة الدر امرأة ذات شخصية بارزة قل أن يوجد لها نظير شقت بغرورها، ووصمت سلسلة حياتها بفعلة شنيعة من جراء هذا الخلق الفاسد.

لقد تطرفت مع زوجها فى سوء الخلق إلى حد الملل وإلى حد أن استفزت فيه روح الأنانية، فطلب يد لؤلؤة بنت بدر الدين أمير الموصل، وعرض أمنيته هذه على المماليك وعارضه المخلصون منهم لشجرة الدر ولم يوافقوه على ما يريد بل جاهروا بأنه لا يليق بأمير نبيل مثل المعز أن يرتكب مثل هذه الهفوة، فغضب لذلك وأدى به الحنق إلى القبض عليهم وإلقائهم فى غيابات السجون.

ولما كانوا فى طريقهم إلى السجن مر بهم الحراس من تحت الشرفة التى تجلس عليها الملكة، فتأخر زعيمهم (سبكتكين) قليلا. ونادى بالتركية يقول "يناشدك الله أيتها الأميرة أن تخبرينا عن سبب القبض علينا، إننا رجالك المخلصون يريد الأمير أن يعقد على لؤلؤة بنت أمير الموصل فعصيناه لأننا نرى فى ذلك إهانة لأميرتنا". وكانت الأميرة إذ ذاك فى الشرفة، فرفعت منديلها تشير إليهم إنها فهمت قولهم ثم سيقوا إلى السجن وقلوبهم تتأجج بنيران الانتقام التى لا يستطيع المعز إطفاء لهيبها.

لم يكن المعز فى قصر القلعة كعادته، بل كان مقيما فى قصره "مناظر اللوق" المشرف على النيل بجوار الازبكية، كان نافرا من شجرة الدر يجتنب حرمه عملا بإرشاد منجمه الذى أخطره بأنه يموت مقتولا من يد إمرأة، أما امرأته فكانت تريد الاستفادة من هذا الظرف، فرسمت خطة باهرة للتنكيل بالمعز وأرسلت تدعوه إلى

القلعة مرارا بعد أن أعدت معداتها لهذا الغرض.

لم تكن شجرة الدر، تلك المرأة الحاكمة القديرة ، وإنما الغيرة والحدة الحنق كل هذه العوامل كانت قد أتلفت جهازها العصبى وصيرتها شيطانا يتحكم فيه الجنون والهوس. قد انقلبت فيها خصال الرزانة وعلو الطبع وقوة الإرادة إلى صفات الغيرة والحرص والانتقام.

* * *

لم يشأ المعز أن يجيب دعوات امرأته فى بادئ الأمر، فإن إخطار المنجم ما زال عالقا فى ذهنه، ترتعد فرائصه كلما خطر فى باله، إلا أن تكرر الدعوات أثر فى نفسه وتوهم من خلالها الصدق والإخلاص، فأجابها إلى ما أرادت وزار زوجته فى قصر القلعة، حيث قابلته بالتجلة والاحترام مظهرة له كل عطف وحب، بل تمادت فى التملق والرياء إلى حد تقبيل أياديه ومحو كل ظن سئ من نفسه، فركن إليها المعز كل الركون وقضى معها يومه، وطلب فى مساءه أن يدخل الحمام، ولكنه ما كاد يلج باب الحمام حتى فاجئه بضعة رجال تلمع السيوف المسلطة فى أيديهم، ففهم قصدهم فأدرك أن ذلك من تدبير شجرة الدر فناداها باسمها وتوسل إليها بكل ما فيه من جهد وقوة ويظهر إنها كانت على كثب من المكمن لأنها لم تستطع ثباتا أمام توسلاته، وأظهرت نفسها وطلبت من رجالها أن يحقنوا دمائه إلا أن الرجال لم يصغوا لقولها، خشية غضبه وإنتقامه إن هم نزلوا عند رأيها وأخلوا سبيله، ثم هجموا عليه وكتموا أنفاسه فى ذلك المكان وبعد أن نفضوا أيديهم من فعلتهم الشنعاء أخفوا جثة الأمير فى ردهة خارجية، وانبثو فى أرجاء القصر يشيعون أنه أغمى على أميرهم وهو فى الحمام(١).

وقعت هذه الحادثة يوم الأربعاء فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٦٥٥ هجرية، وانتشر فى اليوم التالى خبر موت المعز وارتقى أريكة العرش ابنه نور

(١) تاريخ مصر الحديث.

الدين، وعندما استلم نور الدين زمام الحكم وتربع فى دست الامارة بقصر القلعة أرسل بطلب أمه التعسة وبطلب شجرة الدر قاتلة أبيه وسبب شقاء أمه.

وفى كتب التاريخ أن أم نور الدين أمرت جواريها فانهلن بالقباقيب على شجرة الدر، على ذلك الرأس الجميل المملوء بالغرور، إلى أن ماتت شر موت، فألقيت عارية الجسم لا يسترها سوى سراويل رقيقة من برج القلعة إلى خندق مجاور لأسوارها، وقد سرق بعض اللصوص تكة لباسها المطرزة باللآلئ ولم يعرفها أتباعها إلا بسروالها الفاخر فدفنوها فى المقصورة الخاصة بها داخل المسجد المعروف بإسمها بجوار السيدة نفيسة بالقاهرة، ولقد فر بعض الأغوات الذين اشتركوا فى مقتل المعز، وألقى القبض على البعض الآخر وسربوا داخل القلعة.

وبعد هذه الحوادث المتتابعة بدأت حكومة الملك نور الدين ابن أيبك.

* * *

حكمت شجرة الدر ثلاثة أشهر بمفردها وعشرين عاما مع زوجها الصالح والمعز وأصابت عزا وجاها لم تصيبهما امرأة أخرى فى العالم الإسلامى.

يعدها المؤرخون خارقة من خوارق الدهاء، ولا يذكرونها إلا بالثناء ويعرفونها للقراء لأنها عاقلة، قارئة، كاتبة، ذات دراية وفطنة، ومما يؤسف له أن المرأة الكبيرة صاحبة الخيرات العديدة والحسنات الجمة تلك التى ابتدعت لنا حسنة المحمل، تموت ميتة شنعاء وتلقى فى الخنادق كأصحاب الجرائم العادية (وعلى الباغى تدور الدوائر)، إن الملكة عصمت الدين ماتت على يد المرأة التى كانت سببا فى تطليقها، لقد طردت أم نور الدين من قصر قلعته، فدارت عليها الدوائر حتى ألقتها المطرودة من برج القلعة، لقد حرضت على قتل الوالد فقتلها الولد !...

العصمة لله والكمال له وحده والمرء عاجز مهما ارتقى ومهما علت شخصيته.

لم تكن شجرة الدر مثال الكمال من كل الوجوه، وإنما كانت حاكمة مدبرة ذات

قريحة وقادة وهى تحكم هواها وتتغلب على شهوة النفس فيها، ولكنها ما لبثت أن هوت إلى المستوى العادى فأصبحت امرأة لا أكثر ولا أقل منذ ركبت هواها وصارت مع تيار قلبها. هذه الشخصية الغريبة التى قدمتها إلى قرائى من بين نماذج المخدرات الإسلامية جديرة بالتقدير والاجلال من ناحية الخدمات الجليلة التى بذلتها فى أوائل أيامها، وبما كان لها من صدق الطوية فى ذلك العهد. والأمر الجدير بالاعتبار والتقدير هو الصالح العام أما الحياة الخاصة فلا دخل لها فى هذا الشعور، ومن أجل ذلك نعدها من آلهات السياسة التى لم يسبق لها نظير.

لقد مضى على موتها شهور وأعوام وأصاب الشرق تقلبات كثيرة وتطورات عديدة، وانقرضت أمم ونشأت على أنقاضها أمم، ولكن لم تسطع بعد شرارة واحدة مثل تلك الشرارة التى سطعت من أنقاض الأيوبيين.

شجرة الدر الأيوبية جوهر نادر نفيس ومن أغرب لآلئ الشرق، كان دورها عجيبا وأيامها سلسلة من الحوادث ذات شئون وشجون.

عملت ما فى وسعها لتقف حائلا دون التفرقة بين المسلمين فى وقت عصيب فأدركت بغيتها بمهارة نسجلها هنا بفخار، ولا نتمالك من الدهشة تستولى على أنفسنا للاضطراب الذى تخلل سلسلة أيام هذه المرأة الجميلة التى ختمت حياتها بتلك المأساة.

حياة كل شخص زمان قائم بنفسه ونهايته بداية زمان آخر.

* * *

(المعمورة يوم الخميس ١٩ رمضان المبارك ١٣٣١)

كلمة الأميرة

نشرت قبل يومى هذا، بعام ونصف، الجزء الأول من (مخدرات الإسلام)، فلاقى إقبالا واحتراما، بين أصحاب العلم والعرفان، من أهل لسانى المنتشرين فى الممالك والبلدان الآهلة بالإسلام.

وردت إلى كتبهم ورسائلهم تطفح بمعانى التزكية وعبارات التشجيع، فاغتبطت لذلك، إذ كنت أرى بنفسى ثمار البذور القليلة التى غرستها بيدى فى حدائق المنفعة العامة، فشكراً للمولى سبحانه وتعالى وحمداً له على نعمائه. وأبدأ اليوم بالجزء الثانى من ربات الخدور، لأضم خمس بطلات شهيرات على الأربعة السالفات. وزيادة الأعضاء فى محفل ربات الخدور، معناه زيادة التدليل والبرهان وفى ذلك تقوية القناعة فى الوجدان. فمعرفة بطلات الماضى أساس لرقى نساء الحاضر. والبناء المؤسس على قواعد ثابتة رصينة يبشر بالدوام والخلود.

أولى البطلات فى هذا الجزء هى السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، كريمة فخر الأنبياء. نتوج بذكرها الجزء الثانى لأنها فخر النساء.

البطلة الثانية: هى رابعة العدوية، مثل الزهد والتصوف.

البطلة الثالثة: هى الشاعرة الشهيرة الخنساء تلك العبقرية الخالدة التى فاقت شعراء الخلف بمراثيها.

أما الرابعة فأميرة المؤمنين زبيدة والخامسة الأميرة صبيحة ملكة قرطبة. وهاتان بطلتان حكمتا ردحاً من الزمن، وسخرتا بلاداً لأرادتيهما وصيرتا الشعب المحكوم منهما كالشمعة تفرغانه من قالب لقالب وفق هواهما. فهما لذلك مثالان للعظة ننسخ مهما دروس الاعتبار.

من قرأ ربات الخدور عرف تاريخ أيامهن وعاصرهن ونفذ إلى مجالسهن

الروحية، فها أنذا أقدم هذا الجزء إلى قارئاتى الراغبات فى القدوة بسالفات العصر الإسلامى، إلى قارئاتى المتشوقات إلى توسيع المدارك وشحذ القرائح، لأكون واسطة الاتصال بينهن وبين محفل المخدرات.

سترى القارئة الكريمة، فى هذا المحفل المتضوع بعبير الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، أشباحاً روحانية، تتباين فى أشكالها وطراز لباسها عن المألوف فى محافل هذه العصر، وستسمع القارئة العزيزة فى هذا المحفل دروساً تفيض بالحكمة وعظات بالغات. أما أجرى وثوابى فمحسوب بلا ريب فى خزائن المولى الكريم عز وجل.

- ٥ -

سيدة النساء
فاطمة الزهراء

الفصل الأول

لم تعمر السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها طويلاً: بل كان عمرها قصيراً كحياة الزهور التى تزهر وتذبل فى ربيع العمر، إلا أننا ما زلنا نرى حتى اليوم ثمار هذه الزهور النادرة، وما زال أريجها الفياح يعطر عصور الإسلام جيلاً بعد جيل، فهى إذاً دوحة نامية خالدة ذات غصون وفروع ما دام الملوان.

لسيدة النساء صفحة فى التاريخ نزيهة لا تقع العين منها على ضجيج الحوادث وجلبة الوقائع، ولكن فى سلسلة أيامها النقية الصافية ما يجذبنا جذباً شديداً، لأن هذا الصفاء الدال على الشخصية العالية من الدواعى الكبيرة لجذب القلوب ولفت الأنظار.

أمنا السيدة فاطمة رضى الله عنها، ناصية مشرقة من أطهر النواصى وأنقاها وأشدها إحساساً فى الإسلام؛ ولصفاء روحها الظاهر على وجهها المبارك الطاهر سميت بالزهراء.

لا أدرى كيف أجيل القلم فى تسطير سيرتها المبقية دون التعرض لسيرة والدها الرسول فخر الكائنات. حياة كليهما متصلة ببعض اتصالا شديدا متماسكاً، فإذا عبرت عن نفسية أحدهما لا أستطيع تجاوزاً عن نفسية الآخر.

ومما يؤسف له أن مؤرخى الإسلام لم يتسع الوقت لأحدهم ليسردوا لنا سيرة كاملة لهذه الكريمة، أقول لم وقد شعرت أثناء كتابى عنها حاجتى إلى الرجوع إلى ما يزيد عن عشرة كتب من أمهات التاريخ، وليتنى استطعت أن اخرج من معلوماتى المقتطفة منها بما يروى الغليل، بل وقفت جهودى عند حد تكوين سيرة مختصرة، فحسب أحوال بطلاتنا وشهيراتنا محاطة على الدوام بالغموض والإبهام، فإن الأقدمين كانوا يعتبرون هذه من المسائل التى لا يجوز إذاعتها كما هو ظاهر من كتبهم. إننا لنعلم أسماء سيدات عديدات لهن ذكر عاطر وشهرة فائقة، فإذا حاولنا أن نحيط

بأحوالهن إحاطة تامة، وأن ندرك دقائق سيرهن إدراكا كاملا كلفنا أنفسنا مالا نستطيع وحملناها مشقة كبيرة فى هذا السبيل.

أقول مستسمحة سيدات اليوم، أنه كان لشهيرات الأمس عقلية رصينة وغاية ثابتة فى الحياة، ومع ذلك فقد ظلت ألوان المساعى التى بذلنها مخفية وراء ستور الإهمال.

نحن المسلمين قصرنا سعينا للحال ندأب من أجله فحسب؟ أما الاقتداء بالسلف وأن نكون قدوة صالحة للخلف، فهذا أمر لا يخطر على بالنا، ولا نفكر فى شأنه، وقد كان من أمر اهتمامنا بالحال أن وصلنا إلى ما نحن فيه من سوء المآل.... إننا لا نفكر فى ماضينا ولا نعمل لمستقبلنا، فنحن كتله بشرية يعوزها الرحمة والإرشاد.

أزيد هنا من قبيل الاستطراد أن لدينا من الآثار العتيقة الشئ الكبير، ولكنها صغيرة كانت أم كبيرة فهى مشتتة مبعثرة أيان كان موطنها حتى أنه لا يوجد بين أيدينا دليل صادق يرشدنا إليها ويدلنا على مفاخر أجدادنا. وهكذا التاريخ الإسلامى بين دفتيه شخصيات عالية نفخر كثيرا بوجودها، ولكننا لا نعرف سوى أسمائها أما دقائق حياتها وتفاصيل شئونها فإنها مبهمة غامضة لا يمكن الوصول إليها حتى اليوم... فلو أننا عنينا بوضع تلك الشخصيات النادرة فى معرض ذكريات الماضى لما أصبحنا غرباء عن عالمنا الإسلامى ولما كان مثلنا مثل السائح الغريب المفتقر إلى من يرشده وهو فى بلاده.

* * *

ولدت فاطمة الزهراء، ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم من خديجة الكبرى رضى الله عنها، وقريش تبنى الكعبة بمكة المكرمة والنبى صلوات الله عليه ابن خمس وثلاثين أى قبل هجرته المباركة بسبعة عشر عاماً، وكانت أصغر بناته وأحبهن إليه(١).

(١) الدر المنثور.

كانت سيدة النساء فاطمة، مباركة ذات ملامح جذابة ولون أبيض وقلب مفعم بالإحساس، صبيحة الوجه ذكية القلب.

تتأثر القلوب البشرية الحساسة من مظاهر الصفاء والجفاء كثيراً، ويكون نصيبها من لذائذ الحياة ومتاعبها أشد من سواها وكريمة الرسول صلى الله عيه وسلم كانت من هذا الصنف من النساء، ولهذا السبب نرى للاكدار والمسرات أثراً عميقاً فى حياتها المشرقة القصيرة.

سيرة حياتها فى التواريخ المعول عليها مقتضبة مختصرة، فليس فيها ما يشير إلى أفكارها الخاصة، ولا يوجد فيها للأسف ما يشرح أيام حياتها قبل زواجها وبأى شأن من شئون حياتها كانت تشغل فراغ حياتها، وإننى مع علمى بمكانتها العالية من قلب رسولنا الهادى، فلا أعلم شيئاً كثيراً عن نشأتها وأيام حداثتها وأى جو من الأجواء خلقته فى منزل أبيها صلوات الله عليه وسلم قبل زواجها؟.

الفصل الثانى

تم زواج السيدة فاطمة الزهراء من الإمام على كرم الله وجه فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة النبوية المباركة، ولقد كانت سيدة النساء إذ ذاك فى أزهى أوقات الحياة، فى الثامنة عشرة من عمرها أما الإمام على فقد كان يبلغ الحادية والعشرين، كلاهما شخصيتان يحيط بهما جلال الإيمان ونور الهدى، متكافئان متعادلان من كل الوجوه مناسب أحدهما للآخر كل المناسبة:

كلاهما عالى الفكر رقيق الحس حميد الخلق، صبيح الوجه، فكلاهما زوجان مفتونان بالمعالى، عاشقان مغرمان بالمحامد.

بدأت حياتهما المشتركة التى امتزجت فيها الفضيلة بالكمال والأصالة بالجمال على هذا الوجه من الصفاء والإخلاص:

حضر الإمام على ذات يوم من أيام السنة الثانية للهجرة إلى الدار النبوية بنفسه، وبعد أن دخل الدار سلم على الرسول فخر الكائنات وسكت (١).

فسأله الرسول ما إذا كان يطلب شيئاً، فرد عليه مجيبا بأنه حضر ليطلب كريمته السيدة فاطمة الزهراء، فقال له الرسول: مرحبا أهلا ولم يزد على ذلك بل ظل ساكتاً بعدها مما أضطر علياً إلى العودة محتاراً مدهوشاً.

لم يستطع أن يميز وجه الحقيقة من رد الرسول، فسأل بعضا من الأنصار فبشروه وطيبوا خاطره، وأفهموه بأن فى هذا الرد ما يشعر بالقبول والإيجاب ففرح الإمام واغتبط بذلك.

ونرى الرسول صلوات الله عليه بعد قيام على يطلب كريمته السيدة فاطمة ويخبرها بهذا الأمر ويسألها رأيها فلا تجيبه بل تطرق ساكتة، فيعد فخر الكائنات

(١) السيرة الحلبية.

سكوتها علامة الإيجاب والرضى، فيقرر إتمام عقد الزواج، ثم يرسل بطلب على كرم الله وجهه ذلك ويسأله هل عنده من شيء فيجيبه أنه لا يملك سوى فرسه ودرعه، فيأمره ببيع الدرع لتجهيز السيدة فاطمة بثمنها.

يهرع على إلى السوق فيبيع الدرع إلى عثمان بن عفان بأربعمائة وسبعين درهماً ويعود بالثمن معقوداً فى طرف ثوبه، ويضعه أمام الرسول وهو يقول " ها هو بدل الدرع يا رسول الله" فيقبض الرسول بعض دراهم منها ويناولها بلالا ليشترى بعض الطيب والروائح، ويسلم الباقى إلى أم سلمى لتشترى الجهاز، وإلى القارئ جملة ما بعثه الرسول مع ابنته سيدة النساء:

ثوبان من الصوف

خميلة

سواران من الفضة

طاقية

قدر

رحى

وعاءان صغيران للماء

وعاء صغير للماء

كوز

حشيتان: إحداهما من ليف النخل والأخرى من قطع الجلد.

أربع وسادات: اثنتان منها محشوتان صوفاً والأخريتان ليفاً.

ها هو جهاز سيدة النساء، كريمة فخر الأنبياء فى السنة الثانية من الهجرة،

فما أبلغه درساً فى الاقتصاد للأمة الإسلامية !.

* * *

وبعد أن أحضرت أم سلمى ذلك الجهاز، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم جمعاً غفيراً من الأنصار ثم خطبهم خطبة بليغة أثنى فيها على الله ما هو أهلة وذكر فيها فوائد الزواج وختمها بقوله: قد زوجت فاطمة من على بأمر الله:- ثم دعا لهما عقب ذلك بحسن المعاشرة وبالذرية الصالحة، وعند ما تم عقد النكاح على هذا الوجه البسيط أحضر الرسول للحاضرين من الأنصار وعاء فيه بعض التمر وقدمه إليهم بقوله: تخاطفوا:

هكذا تم زفاف سيدة النساء وابنة فخر الكائنات بلا ضجيج ولا ضوضاء، ولكنه بالسرور يملأ أرجاء القلوب، بالصفاء الذى يعدل الصفاء يشعر به المرء أيام الأعياد – ما السعادة؟ أليست صفاء القلوب فإذا كان القلب مغموما كئيبا فما هى قيمة الحياة مهما أزينت وحف بها أسباب الأنس وألوان السرور:

بعد أن تفرق المدعوون طلب الرسول صلى الله عليه وسلم أم سلمى وأمرها بأن تذهب بكريمته إلى دار على وبأن تخبرهما أنه آت إليهما عن قريب، فنفذت أمره وسارت بسيدة النساء إلى دار زوجها.

أما الرسول فقد صلى صلاة العشاء ويمم عقب الصلاة دار على وفى يده قربة من الجلد تستعمل لسقى الماء، وعند وصوله دار صهره قرأ عليها سورة المعوذتين وبعضا من الأدعية وأمرهما بأن يشربا ويتوضأ من الإناء، ثم أخذ قليلا منه ونثره على رأسيهما وعندما أراد مفارقتهما وقد همّ بالقيام كانت فاطمة رضى الله عنها تبكى فخاطبها بما معناه:

– "أى بنيتى قد تركتك وديعة عند رجل، إيمانه أقوى من إيمان أى إنسان آخر وعلمه أكثر من علم الجميع أنه من أفضل قومنا أخلاقا وأعلاهم نفسا".

أهدى نفر من الأنصار الكرام سيدة النساء كبشا، وبضع كيلات من الذرة بمناسبة هذا الزفاف وكانت الدار النبوية قد أرسلت إليهما بعضا من التمر والزبيب فأولما من هذه الأشياء وليمة حسنة.

على هذا الوجه تم عقد الشركة القلبية بين سيدة النساء فاطمة والإمام على كرم الله وجهه، فلا يمكن المزيد على هذا النوع من الصفاء والضرب من البساطة – لأن يحب الإنسان ويحب وليصير سعيدا ويسعد من حوله هذه أمور تتوقف على ما يؤسسه المرء من دعامات الحب فوق أسس الإخلاص ليعيش فى مأوى محكم يقاوم عواصف الدهر وأزمات الزمان، وتزيده آلام النفس قوة وتجعله مواسم العمر أزهى وأبهر مما كان.

بمثل هذه المتانة والرزانة أحب على زوجته سيدة النساء وببركة الدعاء النبوى كنت ترى إشراق الشمس وألوان السماء الصافية ونشوة الشباب وما إلى ذلك من المعنويات مجتمعة فى دار على تقطع مراحل العمر مع ذينك القلبين الطاهرين وتغمرهما بأنوارها الزاهية.

كل يوم من هذه الأيام السعيدة فى سلسلة العمر البشرى تلك التى تمر بين أنوار السرور وأضواء الابتسامات، ألا تكون كالجواهر النفيسة قيمة بمقدار ما يكون نصيبها من تأثر وانسياق، فالأوقات المملوءة بالمحبة هى أوقات الياقوت وأيام الأمل تشابه الزمرد والأمازون التى تمضى بالصداقة تحاكى الفيروز والأعمار التى تنقضى بالوسام والاتحاد تكون كاللآلئ، فهذه الأوقات النفيسة كم هى جديرة بالاهتمام والعناية: هذه النفائس بعد أن يمضى وقتها وبعد أن تتزين بها النحور يجب أن تصان فى محافظ قيمة يجب أن يعنى بشأنها لئلا يصيبها أذى أو يعتورها فساد أو يلحقها غبار ينقص ويقلل من شأنها، فإذا ما انقضى ربيع الحياة ومضت أنوار العمر وذبلت أزهار السرور والبسمات فإن إخراج هذه النفائس من مكامنها للتملى بمشاهدتها واعادة الذكريات الحلوة برؤياها وتجريد خواطر الصبا بواسطتها، سعادة يالها من

سعادة!

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر كريمته العزيزة بأن تقوم بما يخصها فى هذه الحياة من شؤونه وأعبائه أى كل ما يتعلق بإدارة المنزل من خبز وطبخ وكنس وتنظيف كما كان على يقوم بما يترتب على الرجل من وظائف الحياة خارج المنزل، إذ كان يرعى الإبل ويشترى لوازم بيته من السوق.

وهما فى ذلك وإذا بعلى يقول لزوجته يوما (لقد شقوت حتى أسليت صدرى وقد جاء الله بسبى فاذهبى فاستخدمى) فقالت (وأنا والله قد طحنت حتى محلت يداى)(١) فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما جاء بك أى بنية؟ فقالت جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت فأتياه معا هى وزوجها، فذكر له على حالهما قال لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم فرجعا: فأتاهما وقد دخلا على قطيفتهما إذا غطيا رؤوسهما بدت اقدامهما وإذا غطى اقدامهما كشفت رؤوسهما فسار فقال: "مكانكما ألا أخبركما بخير مما سألتمانى فقالا بلى، فقال كلمات علمنيهن جبريل تسبحان فى دبر كل صلاة عشرا وتحمدان عشرا وتكبران عشرا، وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثة وثلاثين وأحمدا ثلاثة وثلاثين وكبرا أربعة وثلاثين، فسكتا وعملا بإشارة الرسول.

لفاطمة الزهراء من الأولاد خمس ثلاث صبيان وبنتان وهم الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم وزينب وقد مات محسن صغيرا (٢)

كانت رضى الله عنها ذات عقل ودراية، عالية النفس تجيد الشعر وتعرف مسائل الفقه والشريعة، و لها إلمام بالتاريخ ولم يأخذها الغرور يوما لعلو منزلتها فى الإسلام وكانت سلسة القياد حلوة اللسان تحب معونة الفقراء كزوجها على، وقد كان أكثر خرجه فى وجوه البر والقرب فكان له ارتفاع طائل من أملاكه يخرجه جميعا على

(١) روضة الاحباب.
(٢) الفخرى.

الفقراء والضعفاء ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرباس وبالقرص من خبز الشعير (١)

مرض الحسن رضى الله عنه ذات يوم فى أبان صباه واشتدت عليه وطأة المرض شدة أقلقت بال نويه، وبينما كان سيدنا على كرم الله وجهه فى المسجد مع نفر من أصحابه، مطرقا حزينا على حالة ولده، وإذا بهم يشيرون عليه بأن ينذر أمر الله إذا عاودته الصحة(٢) ولما عاد إلى داره نوى أن يصوم ثلاثة أيام لوجه الله، فاستوصبت السيدة فاطمة هذا الرأى وشاركته فى الصيام، وقد اعتقد الحسين أيضا أن فى مثل هذا النظر شفاء أخيه فنسج على منوال أبويه فى الصيام، وكان الإمام على كرم الله وجهه قد أحضر مقدارا من الشعير من أحد معارفه فطحنت السيدة فاطمة نحو ثلثه وجعلته خمسة أرغفة، وبينما كانت هذه العائلة العلوية المباركة على المائدة انتظارا لوقت الإفطار ساعة الغروب، مر فقير على بابهم وسأله شيئا من القوت فترك على ما بيده وتابعته السيدة فاطمة، وناول الرجل جميع الأرغفة المعدة للطعام ذلك اليوم وقد حدث لهما ذلك فى اليومين التاليين من صيامهما حتى أن العائلة جميعها اضطرت أن تمسك عن الطعام والشراب ثلاثة أيام متواليات اللهم إلا قليلا من الماء يترشفانه رشفا ولكن الله قبل صيامهم إذ أن الحسن أخذ يتماثل نحو العافية فى اليوم الرابع ففرح والداه فرحا شديدا وأخذ الحسن والحسين إلى جدهما الرسول صلوات الله عليه وسلامه وقص عليه ما وقع لهما وقد أخبره الإمام (٣) كرم الله وجهه ما لاقته السيدة فاطمة من عناء وشدة فى أيامها الثلاث، فبشرهما النبى فخر الكائنات بأن الله قبل منهما صيامهما وبرهما.

لا أدرى بأى لسان أصف مثل هذا العمل الصالح، وكيف أصور للقارئ أمثال هذه النفوس الطاهرة أمثال هذه الحوادث تبعث الأمل والتسلية فى النفوس وتغرى المرء بالاقتضاء بمثل هذه التضحيات الدالة على الكمال الخلقى.

(١)الدر المنثور. (٢) الفخرى. (٣) الفخرى.

كانت السيدة فاطمة امرأة من بنات حواء مثلنا، ولكنها نزعت طوال حياتها إلى العلو، ووقفت دقائق العمر على ما فيه صلاح النفس وكمالها ولنا من ذلك مثالا جدير بالاقتضاء، ودرس أخلاقى بليغ.

تلك الحياة النزيهة الصافية يصيبها ما يعكر صفائها ذات يوم، فترى عليا فى طريقه إلى المسجد مغموما كئيبا يتنفس الصعداء حتى إذا وصله وصلى قليلا تغلب عليه النعاس، فنام منزويا فى أحد الأركان فرآه الرسول على هذه الحالة، وكان قد علم بالنزاع الحاصل بينه وبين كريمته السيدة فاطمة، فتقدم نحوه ومسح ما عليه من التراب وهو يقول: "ما جلوسك هنا يا أبا تراب (١)" ثم أمره بالعودة إلى داره فأصبح يلقب بذلك منذ ذلك وكان ذلك من دواعى سروره.

* * *

كانت السيدة فاطمة تشابه أباها فى كلامها وتحاكيه صلى الله عليه وسلم فى مشيتها محاكاة تامة تثير دهشة الناس، أما محبتها لوالدها فخر الكائنات تلك المحبة الخارقة للعالم، فإن الكتب والأسفار مشحونة بقصائدها وأحوالها وحوادثها فى هذا الصدد.

وأستطيع أن أقول أن هذه المحبة التى تفوق كثيرا محبتها لزوجها وأولادها كانت محور حياتها النزيهة والعنصر الأساسى فيها، فإن أثار الشفقة والحنان التى كان يظهرها له الرسول صلوات الله عليه وسلامه ونصائحه الأبوية وكلماته الطيبة، هذه المعنويات هى التى سطع بريقها وأشرق نورها فى تلك الحياة الطاهرة التى دامت ثمانية وعشرين ربيعا وصحبتها الروحانية لوالدها الرسول هو الذى رفع شخصيتها وألقى شعاعا من النور على نسويتها، قد كانت عالية النفس بفطرتها ولكنها بهذا الاتصال الروحى تمكنت من أن تكون ذات شخصية لاهوتية، وأن تكون مظهرا بعنوان

(١) تاريخ الخلفاء.

سيدة ربات الخدور.

كانت السيدة فاطمة الزهراء محبوبة من أهلها يحبونها الجميع، أما هى فقد كانت مشغوفة بحب والدها أكثر من أى إنسان آخر. كانت تحب الرسول فخر الكائنات من أعماق القلب والروح، وقد تركت ذكريات حسنة فى قلب كل إنسان عرفها أثناء فترة السنوات العشرة التى مضت من يوم زواجها حتى ساعة وفاتها، فكان الإمام على ينفذ كل طلب لها ويعمل بكل كلمة تقولها؛ وكان أولادها وعيالها يطيعونها ويحترمونها فى كل حين ولحظة.

كانت تحب أولادها وتعتنى بشأنهم وكانت فى صلاتها وعبادتها، فى مبراتها وخيراتها من أكثر السيدات أنسا فى محفل ربات الخدور.

روى عنها أحاديث نبوية كثيرة، فنظمت قصائد ذات أبيات عامرة وأظهرت دراية ومهارة فى حل كثير من المعضلات.

على هذا النحو البديع مرت حياتها العزبة حتى السنة الحادية عشر من الهجرة النبوية المباركة، تجبر القلوب الكثيرة وتعين المحتاجين وتغيث الملهوفين.

وقد ظلت هذه الحياة السعيدة على هذه الوتيرة حتى السنة الحادية عشرة من الهجرة، أى فى العام الذى انتقل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه فتناثرت أوراق تلك السعادة، وأظلم قلبها بعد أن غاب عن سمائه تلك النجمة العالية التى سطعت فيه ردحا من الزمن وهكذا الدهر لا ينقضى يوم حتى يعقبه ليل.

أقبلت ذات مرة تزور الرسول صلوات الله عليه وكان معه السيدة عائشة، فقال مرحبا يا بنيتى ثم أجلسها عن يمينه ثم أسر إليها حديثا فضحكت فقالت السيدة عائشة "ما رأيت كاليوم أقرب فرحا من حزن؟ فسألتها عما قال فقالت: ما كنت لأفشى(١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم سره، فلما قبض سألتها

(١) العقد الفريد.

فأخبرتها "أنه قال: إن جبرائيل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة وإنه عارضنى العام مرتين وما أراه إلا قد حضر أجلى، وإنك أول أهل بيتى لحوقا بى ونعم السلف أنا لك فبكيت، فقال: ألا ترغبين أن تكونى سيدة نساء العالمين فضحكت".

لم تترك السيدة فاطمة آباها الرسول لحظة واحدة وهو على فراش الموت، فقالت له يوما وهى تبكى: "إنك يا أبى تعانى سكرات الموت هلا أقمت من خواص صحابتك من يليك فى أمر النظر فى شئون العامة قبل أن تنقل من دار جهادك إلى الآخرة مقر خلدك وسعادتك، وها قد بدأ التحول والإعياء يظهران عليك، فلو تعلم مقدار محبتى لك إنك قد خلفت لى ذكريات كثيرة تذكرنى بك أما أنا فلا أملك شيئا أعده. قلبى أسيف يملأه الحزن، أحاول اليوم تعزيته إننى سأفقدك فوا مصيبتاه وما أشد بلواى أما أنا لا يرثى لحالى إنسان" فأجابها الرسول بما معناه أى : "بنيتى هذا يوما لم يبق لى فيه شأن مع أحد، وسوف أرى جزاء ما صنعت إن خيرا وإن شرا لقد علمت حالهم ومضيت فى أمرهم بالعدل والله على ما أقول شهيد حفظت على التأنى وجاهدت من أجلهم وارتديت لباسهم وصليت معهم دون أن يعتيرنى فخر أو كبر، ولم أتخذ لنفسى ما يشبع جوعى ولم أرتد ثوبا ناعما يرفه جسمى، بل قضيت حياتى فى فقر وضرورة فإذا انتقلت إلى جوار ربى لينظروا فى شأن أنفسهم بنفسهم، وأعطى إليهم لباسى الذى أتقى به البرد والغطاء الذى اتدثر به وتلك الحاشية المصنوعة من ليف التمر التى أجلس عليها وقاية الرطوبة".

عندما توفى صلوات الله عليه لم يكن معه سوى السيدة عائشة وعمه العباس وكريمته فاطمة وزوجها الإمام على كرم الله وجهه.

لقد حزنت الزهراء حزنا شديدا لوفاة فخر الكائنات، ودام حزنها إلى أن توفاها الله، فلم يظهر على وجهها إمارة من السرور طوال تلك المدة.

خيل إليها بعد مصيبتها أن العالم كئيب مغموم وأن الشمس مظلمة والسماء مغبرة قاتمة؛ ذلك لأن المناظر التى يراها المرء من خلال الدموع تظهر غبراء باهتة لونها

يغم الناظرين. كثرة دموع اليأس تقلل بهجة الحياة وتنقص مقدار أذواقها، فإذا بكى القلب دمعت العين. وما فى العالم من جاذبية وأشواق يتوقف على ما يفيضه القلب من السرور والبشر إذ تنعكس أضواء العالم على مرآة القلوب فاليوم الذى تشعر فيه بالحزن والكآبة لهو يوم أغبر لا طعم ولا لون له أما أيام سرورنا فهى أيام بيضاء ذات ألوان يشع من خلالها كل بريق للأنس والصفاء. وكما أن رونق الحياة متوقف على نشاط الأنفس فهناك علاقة وارتباط بين جواذبها وإحساس ذواتنا.

وقد أعقب بكاء الزهراء فترة هى فترة السكون والهدوء ودل ذلك على أن ارتباطها بالحياة الدنيا قليل آخذ فى الانحلال، رغم ما كانت تشعر به من الحنو والمحبة إلى أهل بيتها، وكانت تشعر بأن فراقها سيكون سهلا مستساغا لأنه سيوصلها إلى حبيب قلبها، إلى والدها الرسول صلوات الله عليه وسلم.

الرابطة القلبية التى تربطنا بهذه الحياة الفانية منشؤها أننا نعيش فيها مع من نحبهم، فكل منا يربطه بالكتلة البشرية رباط معنوى كالخيوط الحريرية المتماسكة فى شيرازة واحدة، فإذا انحلت إحداها قلت إحدى الروابط، وإذا ما انقصمت عراها بمرور الزمن لم تبق لنا علامة بكائن ما وأصبحنا ننظر إلى الحياة بجمود وهدوء، وقد يحدث أحيانا أن انفكاك رابطة من أقرب الروابط إلى قلوبنا – كرابطة الزهراء بأبيها الرسول – يؤدى إلى فصم عرى الروابط الأخرى، فلا تشعر إذ ذاك إلا بالأمل يحيى فى النفوس انتظارا ليوم الوصال.

زارت الزهراء قبر أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بأيام وأخذت بيدها حفنة من ترابه واستنشقتها بشوق زائد وأخذت تبكى ولهة ثم لم تتمالك أن فاهت بهذه المرثية:

أغبر آفاق السماء وكـــورت شمس النهار وأظلم العصران

والأرض من بعد النبى كئيبــة أسفا عليه كثيرة الرجـــفان

فلتبكه شرق البلاد وغربهـــا ولتبكه مضـــر وكـــل يمانـــى

وليبكه الطود المعظم جـــوه والبيت ذو الأستاذ والأركـــان

يا خاتم الرسل المبارك وصفه صلى عليك منزل الفرقـــان

فلم يسمعها إنسان حتى بكى معها، وبعد أن أفاضت دموع العين بما فى القلب من نيران الحزن عادت إلى منزلها واجمة مطرقة.

الفصل الثالث

نصب الخلافة

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتفعت الضجة عليه، دهش أصحابه دهشة عظيمة، وطاشت أحلامهم، أفحموا واختلطوا، وصاروا فرقا، وتفرقت أحوالهم، واضطربت أمورهم، فكذب بعضهم بموته وصمت آخرون، فما تكلموا إلا بعد التغير، وخلط آخرون فلانوا للكلام بغير بيان، وحق لهم ذلك للرزية العظمى، والمصيبة الكبرى، التى هى بيضة العصر ويتيمة الدهر، ومدى المصائب ومنتهى النوائب.

ولقد سرى هذا الاضطراب النفسى إلى أصحاب الرسول وأنصاره الكرام، وزاد فى حيرتهم الإشاعات التى راجت عن خلافة أبى بكر. لم يعيبوا على أبى بكر شخصيته وإنما حنقوا لتوليه أمرهم بلا مشورة. ثم سعت رجالات من المهاجرين والأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة، وهناك بعد جدال وحوار - بسطوا أيديهم إلى أبى بكر يبايعونه وكف على عن البيعة كرامة لزوجته الزهراء، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً وانضم إليهم أبو سفيان بن حرب رأس بنى أمية والزبير بن العوام بطل قريش وحوارى رسول الله وأقام على والزبير بدار فاطمة لا يبرحنها (١).

وقد أدى ذلك إلى سعى عمر بن الخطاب بقبس من النار إلى بيت على كرم الله وجهه ليحرقه، وهناك خرج له الزبير والسيف مصلت بيمينه، يريد أن يصدع به رأس عمر، ثم تحايل عليه عمر ومعه خالد فأخذه وأخذ من بعده علياً للمبايعة، ولما رأت السيدة فاطمة زوجها يساق قسراً فولولت وقالت:

يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله.

---

(١) شرح ابن أبى الحديد.

إلا أن عمر كان قد ساق عليا إلى مجلس البيعة، حيث أبو بكر، فقام له وقال واعتذر إليه بأن بيعته كانت فجأة، وأنه لم يقبلها طمعاً فيها بل حياطة للإسلام ووقاية من شر الفتنة فأجابه الإمام على والزبير:

– مانفسنا عليك ما ساقة الله إليك من فضل وخير، ولكنا نرى لنا فى هذا الأمر شيئاً، فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك.

وعندما سكنت الخواطر وهدأت الثوائر، قام أبو بكر إلى دار فاطمة وطلب منها الصفح عن عمر فصفحت عنه. ولقد تمكن ابن الخطاب أن يملك روعه فى مثل تلك العاصفة الهوجاء التى أصابت الإسلام بكل ما فيه من قوة وجلد حتى أنقذ المسلمين من شر فتنه كادت تقع فتقوض الإسلام من أساسه رضى الله عنه(١).

تلك مسألة الخلافة وقد كادت تزعزع بنيان الإسلام، وقد كادت لاتتخضب فيها بالدم رأس من أرفع رؤس المسلمين لولا عناية من الله أوقفتها عند حدها، لقد كانت همة عمر سبباً فى إنقاذ روح الإسلام للمرة الثانية. لقد التزم عمر أخف الضررين فهاجم دار السيدة فاطمة، ولكنها انتهت بالصلح وعادت بالصلاح وفهمت سيدة نساء العالمين من هو العامل المجد فيها؟ ولم تمتنع عن مصالحته فما أسمى تلك الفضيلة! أن القلم ليعثر عياً وعجزاً حين عرض لتلك الفضائل المللكية المقدسة التى كمل الله بها سيدة نساء العالمين.

بعد وفاة أبيها فخر الكائنات ببضعة أيام ناولت مولاتها بعض الدراهم وطلبت منها أن تنادى فى السوق من يقبل صدقة بنت الرسول الله، وإذا قبلها أحد أن تحضره إليها ففعلت، وكان الرجل من فقراء المغرب من بلاد البربر فحدثته السيدة الزهراء حديثاً مآله أن الرسول أنبأها بأن ابنيها الحسن والحسين يستشهدان فيفر أولادهما إلى المغرب ويحميهما أهل البربر (٢).

(١) شرح ابن أبى الحديد.
(٢) الدر المنثور.

إننى لا أتمالك من الحيرة تستولى نفسى عند سرد هذه الحادثة، فقد حدث أن استشهد الحسن والحسين وفرا أولادهما إلى المغرب وحماهم المغاربة من أهل البربر ثم تفرعت من أصولهم الدولة الفاطمية الزاهرة التى حكمت شمالى أفريقيا من أقصاها لأقصاها.

كان العالم الإسلامى مظهراً للمدهشات من الوقائع، تظهر حيناً ثم تختفى آونة أخرى كالمحادثات الجوية، فلا يبقى من أشكالها وأحوالها فى لوحة الخاطر سوى أشباح ضئيلة.

الفصل الرابع
حادثة الفدك

ما دامت الدنيا فالمنازعات باقية لا تزول. وما دام الملوان فقانون تنازع البقاء سرمد خالد، يعمل الناس به ويزعجون أنفسهم فى سبيل تنفيذه.

اعترضت حادثة الفدك أيام الأحزان والأكدار التى قضتها السيدة فاطمة الزهراء عقب وفاة أبيها فخر الأنبياء، فكانت ضغثاً على إبالة. وفدك هذه عزبة نخل كانت للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يصرف منها على أهل بيته، وينفق الباقى فى صالح المسلمين، وبعد أن توفى صلوات الله وسلامه عليه طلبت السيدة فاطمة فدك من سيدنا أبى بكر ويروى المؤرخون الحادثة على الوجه الآتى (١)! حضرت السيدة فاطمة ذات يوم إلى خليفة رسول الله وقالت له! أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعطانى فدك وشاهداى على وأم أيمن.

فأجابها أبو بكر:

– لا أرتاب فيما تقولين وقد أعطيتك فدك.

ثم حرر لها حجة بذلك على قطعة من الجلد، وسلمها أياها وفيما هى عائدة قابلها عمر وسألها من أين هى آتية فأخبرته بما تم فلم يرق ذلك فى نظرة وأخذ الحجة من يدها ورجع بها إلى أبى بكر وسأله عن الحقيقة، فأصدقة الخبر فقال أن عليا يريد أن يملك فدك وأم أيمن امرأة. ومحا ما على الحجة من كتابة ومزقها فى الحال وقد أغبرت فاطمة من ذلك وراجعت أبا بكر، وهى تعلم قول أبيها (إننا معشر الأنبياء لا نورث). وعندما بلغها إجماع أبى بكر على منعها لاثت خمارها وأقبلت فى لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ فى ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه

(١) شرح ابن أبى الحديد.

وسلم حتى دخلت على أبى بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضرب بينها وبينهم ريطة بيضاء، ثم أنت أنه أجهش لها القوم بالبكاء، ثم أمهلت طويلا حتى سكتوا من فورهم، ثم قالت:

"أبتدى بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم" وذكرت خطبة طويلة جيدة قالت فى آخرها:

"فاتقوا الله حق تقاته وأطيعوا فيما أمركم به، فانما يخشى الله من عباده العلماء، وأحمدوا الله الذى لعظمته ونوره، يبتغى من فى السماوات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته فى خلقه ونحن خاصته ومحل قدسه، ونحن حجته فى غيبه ونحن ورثة أنبيائه أنا فاطمة ابنة محمد أقول عوداً على بدء وما أقول ذلك سرفاً ولا شططاً فاسمعوا بأسماع وقلوب راعية لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤف رحيم فإن تعزروه تجدوه أبى دون آبائكم وأخاً ابن عمى رجالكم. ثم أنتم الآن تزعمون أن لا إرث لى. أفحكم الجاهلية تبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون. إيها معاشر المسلمين أبتز إرث أبى. أبى الله أن ترث يا ابن أبى قحافة أباك ولا أرث أبى لقد جئت شيئاً فرياً. فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولكل نبأ مستقر، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم" ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت:

"يا معشر البقية وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ما هذه الفترة عن نصرتى والونية عن معونتى والغمزة فى حقى والسنة عن ظلامتى أما كان رسول الله صلى الله علية وسلم يقول: (المرء يحفظ فى ولده)؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ما أتيتم أن موته لعمرى خطب جليل استوسع وهنه واستبهم فتنه وفقد راتقه، وأظلمت الأرض له وخشعت الجبال وأكدت الآمال أضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وإزيلت المصونة وتلك نازلة أعلن كتاب الله قبل وفاة رسول الله، إيها بنى قيلة، اهتضم تراث أبى وأنتم

بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة ويشملكم الصوت وفيكم العدة والعدد، ولكم الدار والجفن وأنتم نخبة الله التى انتخب وخيرته التى اختار ألا وقد أرى الجلد تم إلى الخفض وركنتم إلى الدعة فجحدتم الذى وعيتم ألا وقد قلت لكم ما قلت على معرفة منى بالخذلة التى خامرتكم وخور الفتاة وضعف اليقين فدونكموها فاحتووها مدبرة الظهر ناقبة الخف باقية المعار موسومة الشعار موصولة بنار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تعلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون"

فأجابها أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"يا ابنة رسول الله والله ما خلق الله خلقاً أحب إلى من رسول الله ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحب إلى من أن تفتقرى أترانى أعطى الأحمر والأبيض حقه وأظلمك حقك وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما خلفناه صدقة ولست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به" ثم تعهد لها بعد ذلك أن يدفع إليها ما يخصها من نصيبها وينفق باقيها فى شئون المسلمين، فقامت من مكانها وتوجهت نحو قبر أبيها تستشهد بأبيات ملؤها الشكوى وإشهاد أبيها على ما كان من هضم حقها. ثم نهج عمر فى خلافته على منوال أبى بكر فى صدقة فدك، وكذلك كان شأن عثمان وعلى رضى الله عنهم وعندما توفى الحسن بن على فى خلافة معاوية بن أبى سفيان قسمها بين مروان ابن الحكم ويزيد بن معاوية وعمر بن عثمان بن عفان- وأما فى خلافة مروان بن الحكم فقد انتقلت جميعها إليه من طريق الميراث إلى ابنه عبد العزيز وعندما ولى الأمر عمر بن عبد العزيز أعادها جميعها إلى أولاد فاطمة .

ثم انتقلت إلى العباسيين عندما آل إليهم الحكم وبأفول دولتهم انتقلت إلى الفاطميين، وكانوا يوزعون تمرها على الحجاج إلى أن قطعت أشجارها، فانتهت بقطعها حادثة فدك التى امتدت عصرين متواليين.

سئم، فإن انصرف فلاعن ملالة، وإن أقم فلاعن سوء ظن بما وعد الله الصابرين".

بلى إن الله مع الصابرين إن الله يبتلى عبده بالمصيبة، يهبه صبراً يعادل مصيبته ويوازى نكبته، يرفع تلك القلوب الحزينة التى أحرقها بنار الألم ويجليها. وشدة النكبة وعظم قدرها تكون بنسبة ما فى القلوب من حس، فلذلك نرى القلوب الحساسة تزيدها صدمات الحزن جلاء وقدراً واعتباراً. الأكدار سلم يرقاه المرء ليصل الكمال، أما السعادة فتسوقه إلى مهواة الأنانية. القلوب السعيدة محرومة من مظاهر الرحمة والتسامح أما القلوب الطافحة بأنواع الهموم ففيها منافذ شتى للأنس، فسرعان ما تأتلف بأحزان الآخرين وتختلط بآلمهم وتفهم حاجاتهم.

ينظر المتألمون إلى الحياة بنظرات ملؤها الشفقة وآيات الحنان، وكذلك كان الإمام على كرم الله وجهه أثر عليه الخطب وكان وقعه شديداً على قلبه الحساس. كان يبكى دون أن تطفئ الدموع نيران قلبه. كيف لا يحزن وقد اشتد يتمه بعد فراق زوجته عقب فراق الرسول صلى الله عليه وسلم.

فراق هذين الحبيبين، حرمان ممض وجرح فى القلب لا يندمل وكلما فكر فى الأيام اللذيذة التى قضاها بصحبة سيدة النساء وتذكر خطر وقعها فى قلبه الطاهر، وكيف كانت بأيام عمره التى عاشها والتى مات بموتها، ازدادت لوعته واشتدت كآبته فلا يجد السلوى إلا فى أحضان قبرها، فيترك روحه تطير سابحة فوق التربة، تعانق روح حبيبته وتناجيها وتكشف لها عن مكنون مضضها وجواها. كان يسائل الترب والأحجار (١) ينتظر منها السؤال ولكن أين لها أن تجيب؟.

* * *

ألطف الزهور وأقربها إلى الحس وآخذها باللب، تلك التى تنشر أريجها وقت غروب الشمس ثم تنام فى مقتبل الليل، أجمل الورود أقصرها عمراً.

---

(١) الدر المنثور.

سئم، فإن انصرف فلاعن ملالة، وإن أقم فلاعن سوء ظن بما وعد الله الصابرين".

بلى إن الله مع الصابرين إن الله يبتلى عبده بالمصيبة، يهبه صبراً يعادل مصيبته ويوازى نكبته، يرفع تلك القلوب الحزينة التى أحرقها بنار الألم ويجليها. وشدة النكبة وعظم قدرها تكون بنسبة ما فى القلوب من حس، فلذلك نرى القلوب الحساسة تزيدها صدمات الحزن جلاء وقدراً واعتباراً. الأكدار سلم يرقاه المرء ليصل الكمال، أما السعادة فتسوقه إلى مهواة الأنانية. القلوب السعيدة محرومة من مظاهر الرحمة والتسامح أما القلوب الطافحة بأنواع الهموم ففيها منافذ شتى للأنس، فسرعان ما تأتلف بأحزان الآخرين وتختلط بآلمهم وتفهم حاجاتهم.

ينظر المتألمون إلى الحياة بنظرات ملؤها الشفقة وآيات الحنان، وكذلك كان الإمام على كرم الله وجهه أثر عليه الخطب وكان وقعه شديداً على قلبه الحساس. كان يبكى دون أن تطفئ الدموع نيران قلبه. كيف لا يحزن وقد اشتد يتمه بعد فراق زوجته عقب فراق الرسول صلى الله عليه وسلم.

فراق هذين الحبيبين، حرمان ممض وجرح فى القلب لا يندمل وكلما فكر فى الأيام اللذيذة التى قضاها بصحبة سيدة النساء وتذكر خطر وقعها فى قلبه الطاهر، وكيف كانت بأيام عمره التى عاشها والتى مات بموتها، ازدادت لوعته واشتدت كآبته فلا يجد السلوى إلا فى أحضان قبرها، فيترك روحه تطير سابحة فوق التربة، تعانق روح حبيبته وتناجيها وتكشف لها عن مكنون مضضها وجواها. كان يسائل الترب والأحجار (١) ينتظر منها السؤال ولكن أين لها أن تجيب؟.

* * *

ألطف الزهور وأقربها إلى الحس وآخذها باللب، تلك التى تنشر أريجها وقت غروب الشمس ثم تنام فى مقتبل الليل، أجمل الورود أقصرها عمراً.

---

(١) الدر المنثور.

حمرة الشفق وبهاء الفجر لا يدوم جمالها طويلاً بل لمدة محدودة، فالنغمات والشعر والسرور، كل ذلك معنويات سريعة الفناء. كذلك الابتسامات والغمزات ومعانى الحب، ذكريات للروح محدودة مدتها ونجوم تبدو فى سماء الحياة قصيرة أمدها.

الربيع بهجة الحياة، وخير مواسم الربيع أقربها والا وأسرعها ذبولا كذلك نفائس الحياة: الورد والزهور والنغمات وساعات الفجر وذكريات الشباب والمواسم، أبهجها وألطفها وأملكها للنفس أقصرها أعماراً.

لأن يحب المرء، ويحب فيعيش محترما معززاً مدللا زمناما، ثم يأفل بعد ذلك كما تأفل ساعات الغروب، تاركاً وراءه ذكرى خالدة وألماً وأسفاً دائماً، مرتفعاً نحو النور والسرور والسعادة؛ لأن يكون محبوباً على الدوام... فينثر حوله البسمات والنغمات ليعيش فى جو من الأنس والطرب والشعر ثم يترك ذلك وراءه فتبقى فى القلوب ذكراه الممزوجة بالحزن واللوعة والأسى، تلكم تاريخ القلوب المحبوبة كثيراً الآفلة سراعا.

من بين هذه القلوب، قلب سيدة النساء فاطمة الزهراء، وتاريخ حياتها مستمد من تلك العناصر المعنوية. وكما كانت الرحمة والشفقة من لوازم تلك الحياة، ومن ألصق الشئون كذلك المحبة والظرف من أدوات زينتها وكمالها.

كانت قرة عين والدها والزوجة المحبوبة للإمام على والأم الحنون للحسن والحسين رضى الله عنهم، وقد امتازت فى صفاتها الثلاثة كأبنة وزوجة وأم بمزايا قل أن تجتمع فى سواها وبفضائل مزوده بالجلال والكمال.

كانت حياتها الزوجية مع الإمام على كرم الله وجهه قصيرة جميلة وكذلك أعمار الورود الجميلة والزهور النضرة، فمضت فى ربيع العمر كما تمضى ألوان الغروب وحمرة الشفق بعد أن تترك وراءها ذكريات من الحسن والجاذبية، فتبدل بموتها جمال الربيع وانقلب إلى خريف ممض لو عاشت سيدة النساء، لما ذكرها المسلمون إلى يومنا هذا باللوعة تتملك أفئدتهم ولما كنا نتحدث عن أحزان الإمام على بمثل هذه الشدة.

مثل الشخصيات الماضية نذكرها بالاحترام والإعظام ونبحث عن أحوالها بوضوح وجلاء أملا فى تجديد العهد ورغبة فى إحياء الاسم، كمثل الصور الشمسية التى تحتفظ بها لرجال نعرف أسماءهم ولا نتذكر أشخاصهم. وكلما تجسمت أشكالهم وأنظارهم وأشباحهم أمام أعيننا ازددنا حبا لهم وإشفاقا عليهم وكما نعيد فى الأذهان ذكريات الأيام الحلوة التى نقضيها فى مقتبل العمر كذلك نرى جمالها ماثلاً فى الذهن أما الذين نحفظ فى الذاكرة أيام حياتهم بالتفصيل ونستعرض فى المخيلة ابتسامتهم ودموعهم وآلام نفسهم فإننا نذكرهم دائماً بشئ من الأسف والحزن يتملك أنفسنا:

إلا إنما الدنيا كأحلام نائـم وما خير عيش لا يكون بدائم

تأمل إذا ما نلت بالأمر لـذة فأفنيتها هل أنت إلا كحالـم

فما قيمة المنازعات والمجادلات وأنواع المنافسات؟ ما قيمة كل ذلك ما دامت دنيانا أحلام نائم وما دامت سعادتنا فيها سعادة الحالم؟

- ٦ -

تاج الرجال

رابعة العدوية رضى الله عنها

رابعة العدوية

السيدة رابعة العدوية هى أم الخير بنت إسماعيل ومن موالى آل عتيك (١)، مولدها البصرة، وإننا وإن كنا لا نعلم تماماً تاريخ ميلادها من المراجع التى بين أيدينا إلا أنه نظراً لوفاتها عام ١٣٥ (٢) ولأنها عاشت نحو ثمانين سنة، فإنها تعتبر بحق من ربات الخدور فى أوائل العصر الهجرى.

أفنت حياتها فى العبادة والتقوى وإصلاح النفس وكبح جماح الشهوات، فقد كانت نموذج الكمال فى عصرها، آثرت كل تضحية وعاشت فقيرة معوزة لتصل إلى هذه الدرجة العالية، فهى بحق من أعيان عصرها فى الاسلام.

كانت تفوق نساء زمانها وتمتاز عليهن لا بالزهد والتقوى فحسب، بل بفضلها وعرفانها، بعلمها وأدبها، حتى رنت إليها الأبصار وتطاولت نحوها الاعناق. كان يتلذذ بصحبتها ويستفيد من معاشرتها أمثال حسن البصرى التقى الشهير، وشقيق البلخى الصوفى العظيم، وسفيان الثورى المجتهد الكبير، والملك دينار، حاكم الكرج والشاعر البليغ كل هؤلاء الأفاضل صاحبوها وجالسوها وحضروا مباحثها فى الدين والعلم فأجلوها وقدروا عقلها وذكاءها، وأعظموا حال زهدها وتقواها.

مات أبواها فى مقتبل عمرها فنشأت فى وقت استحكمت فيه حلقات الغلاء والقحط فى مدينة البصرة، فأوقعها نكد الطالع تحت أسر رجل ظالم مستبد احتبسها عنده مدة ثم باعها إلى رجل آخر بعد أن أذاقها أنواع العسف والعذاب، ولم يكن حالها فى هذه الدار الثانية خيرا مما كانت عليه فى الأولى. فقد تعذبت كثيرا وقاست شدة مريرة قابلتهما بصدر رحب دون تململ أو تذمر، إذ كانت ترى الشكوى مزرية بها.

---

(١) ابن الجوزى
(٢) ابن خلكان.

وبينما كانت ذات يوم تهرول مسرعة مجتازة أزقة البصرة، رماها أحد المارة بنظرة منكرة فأرادت أن تعرض عنه ملفتة وجهها فزلت قدماها فسقطت على الأرض فانكسر زراعها. لم تقو على النهوض من مكانها فظلت مغشيا عليها مدة لشدة ما أصابها من الألم. وعند ما رجعت إلى صوابها رفعت نظرها خاشعة إلى السماء تناجى ربها: "رباه، قد انكسر ذراعى، وأنا أعانى الألم واليتم، وسوف أتحمل كل ذلك وأصبر عليه، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ويفكك أوصال الصبر فى نفسى، منشؤه ريب يدور بخلدى وهل أنت راض عنى يا إلهى، هذا ما أتوق إلى معرفته". وما كادت تتم نجواها حتى سمعت هاتفا يقول: لك يا رابعة عند الله مرتبة تغبطك الملائكة من أجلها (١) فنسيت بعد ذلك ما اعتراها من الآلام وقفلت راجعة إلى دار سيدها آمنة مطمئنة.

لم ينم سيدها ذات ليلة، فسمع صوتا يرن فى أرجاء داره فخرج من غرفته يتلمس مبعث الصوت حتى قادته أذناه إلى غرفة رابعة حيث رأى ما أدهشه وحير لبه رأى رابعة تعبد ربها بخشوع ينم عن إيمان عميق، فوقف يراقبها ويسمع مناجاتها واذا بها تقول:

"ربى إنك تعلم أن أشد ما أتوق إليه هو عبادتك وتأدية مالك من حقوق، ولكننى أسيرة لا أملك حريتى الشخصية فلا سبيل إلى تحقيق هذه العناية فلتعذرنى يا إلهى"

فبهت سيدها ووجد من العار إبقاء فتاة طاهرة عفيفة كرابعة العدوية تحت ذل الأسر، فلما مثلت أمامه فى اليوم التالى قال لها: "أنت حرة طليقة يا رابعة ولك الخيار فى أن تمكثى هنا أو تذهبى إلى حيث تشائين" فآثرت هى أن تترك دار مولاها لتعيش من كسب يدها ومنذ ذلك اليوم أصبحت حياتها درسا ممتعا وعظة بالغة إذ وقفت حياتها على أعمال البر والخير، واضعة نصب عينها الدستور النبوى الجليل "اعمل

(١) تذكرة الاولياء.

لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" فأمضت الثمانين عاما التى عمرتها لم تخل بحرف من هذا الحديث الشريف إذ كانت ترى لذة فى تضحية راحتها الدنيوية فى سبيل سعادتها الخالدة.

تجاذبت ذات يوم أطراف الحديث مع أحد مشاهير الصوفيين، فشكا إليها دنياه الفانية فلم تطلق احتمالا لشكواه فأجابته:

"إنك يا هذا تكثر ذكر الدنيا وترددها على لسانك فأنت مفتون بها، مشغول بمحاسنها إذ أن الرجل كثيرا ما يذكر ويفكر فى المتاع الذى يريد أن يستحوزه، فلو أنك قطعت كل صلة بدنياك لما ذكرت شيئا من محاسنها أو مساويها". ومن غرائب رابعة أنها كانت ترد كل ما يعطيها الناس (١) وتقول "مالى بالدنيا حاجة" وقد مرضت ذات يوم فلزمت فراشها ولما عادها حسن البصرى مستفسرا عنها وجد أمام بابها تاجرا يبكى فسأله متحيرا: ما بك ولم تبكى؟ فأجاب :

أحضرت كيسا من الذهب لرابعة وأننى مضطرب لا أدرى أتقبله أم ترفضه فأدخل بالله وانقذنى من هذا الاضطراب. فدخل حسن البصرى ونقل إليها ما كان من أمر التاجر. فأجابت: "ألم تعلم يا حسن أن الله يرزق حتى عباده الذين هم عنه لاهون فما بالك بمن يكن فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل.. إننى يا حسن لم أتوجه إلى غير الله منذ اليوم الذى أدركت فيه قدرته الإلهية كيف أستطيع قبول هدية هذا التاجر وأنا لا أعلم هل اكتسب ماله من حلال أو من حرام (٢) فمحال على قبولها، فأذهب إليه وأشكره مع تقديم عذرى له.

حادثة أخرى: زارها أحد التجار يوما ما فوجد دارها خربا يحتاج إلى إصلاح وتعمير، فأخبرها أنه يعطيها دارا من دوره مؤقتا فقبلت رابعة العدوية ذلك وانتقلت إلى الدار الجديدة. كانت دار الرجل يحف بها أسباب النعيم والرفاهة وتزدهى جدرانها

(١) ابن خلكان.
(٢) تذكرة الاولياء.

بأنواع الزينات والزخرف. ولما كان نظر رابعة لم يتعود أن يقع على أمثال هذا الزخرف فقد أطالت النظر فى الغرف الزاهية بصنوف الزينة وضروب الأشكال المبهجة، ولم تتمالك أن تمتنع من هذا الأمر وهى حيرى والهة وبعد أن أمعنت النظر فيما حولها وتأملت طويلا ما يحيط بها ورجعت إلى نفسها، فخرجت من الدار توا وهى تقول:

"سوف لا أعود ثانية إلى هذه الدار ولو مكثت بها ائتلفت نفسى بهذه الأشياء الجميلة، فيستهوينى لطفها فيحول دون ما أنا صائرة إليه من الأخذ بأسباب الآخرة".

كانت تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فتنهض فزعة وتقول "يا نفس كم تنامين! وإلى كم تنامين! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور، (١) وكان هذا دأبها حتى ماتت كانت رحمها الله عابدة فاتنة زاهدة فانية فى الله ترى كل شئ ما خلا الله باطل ولها كرمات تسمع هتاف الهتاف إليها فتركت كل ما فى الدنيا من متاع وغرور لتصل إلى طريق الذات العلية، وبذلك عدت من أعيان النساء الصالحات فى العالم الإسلامى.

قالت فى مناجاة لها، "إلهى أتحرق بالنار قلبا يحبك" فسمعت هاتفا يقول "ما كنا لنفعل ذلك". كانت لها شخصية ممتازة ولم تصل فاضلة ممن عاصرتها إلى مثل ما وصلت إليه أم الخير، فقد جمعت مزايا كثيرة اكسبتها لقبا جديرا بالاحترام خلدها اسما عاطرا فى صفحات التاريخ اذ كانت تدعى (تاج الرجال) سئلت ذات يوم: هل يتوب المولى عز وجل حقيقة عن عباده النادمين؟ فأجابت، لو أن الله لم يعط الندامة لعباده فكيف يتوبون، فما دام أشعرهم بالندامة وألقى إليهم حسن التوبة فمن البديهى أن يشملهم بواسع عفوه وأن يقبل توبة التائب منهم، وسئلت يوما هل تحبين الله كثيرا فقالت: بلا ريب فقيل لها: الا تعدين الشيطان عدوا لك فأجابت إن محبة الله قد ملأت أرجاء قلبى فليس فيه متسع إلى القلق والاضطراب من عداوة الشيطان (٢) كان

(١) قاموس الاعلام.
(٢) ابن خلكان.

يزورها كثيرون من الناس لشهرتها وشيوع صيتها، ويتبرك بمجالسها رجال من أفضل أهل العلم ويجدون فى محاضراتها أنسا عميقا.

وعندما ماتت زوجة حسن البصرى طلبها للزواج فلم تقبل وأرسلت إليه قصيدتها المشهورة التى ضمنتها كثيرا من التغزل الإلهى، وقد سألها عقب ذلك فى محادثة دارت بينهما "أليس لك رغبة فى الزواج قط؟" فأجابت تاج الرجال: إنما يتزوج من يملك إرادته بنفسه أما أنا فليس لى إرادة. إن أنا إلا عبدة المولى عز وجل "وصنعت نفسى تحت إرادته وتصرفه" فقال لها الحسن البصرى: كيف وصلت إلى هذه الدرجة من الزهد والصلاح فأجابت أم الخير: "بمحو النفس وفنائها تمام الفناء".

قال لها أحد العلماء الأفاضل ذات يوم أثناء زيارته لها: "إن المولى فاطر السموات يا رابعة يكافئ الذين يصطفيهم من عباده بموهبة من المواهب، ليزداد قدرهم ولكن من الغريب أننا لم نجد مثل هذه القدرة والكفاءة فى امرأة فكيف وصلت إلى هذه المرتبة وكيف أصبت مثل هذه السعادة؟". فأجابت: "أنت محق فى ذلك لأن النساء لم يفتتنوا يوما من الأيام بكفاءتهم فلم تتظاهر بدعوى القديسة".

تاريخ أم الخير مملوء بالمدهشات من الغرائب تنقل هذه الحادثة كنموذج لما سواها.

كان من عادتها أن تعتزل الناس فتخلوا إلى ربها للدعوة والمناجاة، فكانت تصوم سبعة أيام وتنقطع إلى العبادة والزهد ليال لا تفتر أثناءها عن مناجاة النفس بهذا الخطاب "إلى متى تعذبين نفسك يا رابعة وتحملينها مشقة ليس بعدها مشقة، وهى فى ذلك وإذا برجل يدق عليها الباب وفى يده صحن من الطعام يتركه لديها ثم ينصرف. أما هى فتأخذ الصحن وتضعه فى زاوية من الغرفة وتتشاغل بإصلاح القنديل وهى على ذلك الشأن، فتدخل هرة فتأكل الطعام الذى فى الصحن وحالما تعود رابعة ترى الصحن خاويا فتقول رابعة فى نفسها "لا بأس أفطر على الماء"، وعندما تذهب لتعود بالماء ينطفئ القنديل، فلم تطق احتمالا وتقول: اللهم لم هذا العذاب؟

فتسمع هاتفاً يقول:

لو شئت يا رابعة وهبناك جميع ما فى الدنيا ومحونا ما فى قلبك من نار العشق لأن قلبا مشغولا بحب الله لا يشغل بحب الدنيا. سمعت ذلك فعزمت على أن لا تعود فتتمنى سعادة الدنيا وراحتها بل ظلت ثلاثين عاما تذكر ربها ولا تعيد تلك الجملة أو غيرها مما ينم عن الشكوى والألم بل كان وردها: رب لا تجعل فى قلبى مكانا لغير حبك.

قال عنها الملك دينار، وقد كان شغفا بها مفتونا بفضلها:

"ذهبت أزور أم الخير يوما فوجدتها على حصيرة باليه وموضع الوسادة قطعة من الآجر وتشرب من إناء مكسور فقلت لها: أعرف يا أم الخير أصحابا إلى من نوات اليسار، فاسمحى لى أن أذهب إليهم وأطلب منهم معونتهم فى أمر رفاهيتك وراحتك فردت طلبه قائلة: إن الله رازق الأغنياء يهون على الفقراء أيضاً حالتهم، فما علينا إلا الصبر والقناعة ورضاء الإنسان بما قسمه الله فرض محتم.

وقد زارها ذات يوم سفيان الثورى أحد الصالحين المعاصرين لها ومعه فاضل آخر يدعى عبد الواحد فوجدها نحيلة الجسم واهية القوى، فلم يتمالكا نفسيهما من البكاء فقال لها سفيان الثورى قدس الله سره: هلا طلبت من الله أم الخير أن يخفف بعض الألم فأجابت. من هو الذى يعذبنى ويسبب آلامى؟ فقال هو الله. فأجابت: إذا كان هذا أمر ربى فكيف أخالفه وأطلب منه تخفيف الألم. فأجابها لا أستطيع أن أرد عليك وها أنا ذا أكل إليك أمورى بدل أن أشتغل بأمرك (١) فاستمرت تقول: لو لم تكن يا سفيان راغباً فى الدنيا كل هذه الرغبة لكنت إنساناً كاملاً، فلم يتحمل سفيان مزيدا وأجهش فى البكاء وهو يقول: هل أنت راض عنى يا ربى فقالت له: ألا تخجل فتسأل ربك إذا كان راضياً عنك فما الذى صنعته لتفوز برضاه فسكت.

(١) مشاهير النساء.

وزراها يوما بعض أهل الفضل وسألوها لماذا تعيش منزوية ولا تتزوج فأجابت إنما يشغل خاطرى ثلاثة أمور: أولاها هل أموت وأنا على إيمان كامل. والثانى هل أنال صحيفتى بيدى اليمنى يوم الحساب والأمر الثالث لا أدرى مع أى فريق أكون يوم الحشر أمع الذاهبين إلى الجنة أم مع الهالكين فى جهنم. فإذا كنت مشغولة اللب بأمثال هذه الأمور فكيف أبحث عن الزواج.

* * *

سألها سفيان الثورى أيضاً وكان من كبار المتصوفين فى عصره: كيف هو إيمانك يا رابعة، وكم هو مبلغ اعتقادك بالله تعالى، فأجابته تاج الرجال: "لا أعبد ربى خوفاً من ناره أو شوقاً لجنته وإنما لمحض المحبة والإخلاص" ثم أخذت تناجى ربها بهذه الكلمات: (١)

" إلهى أحبك لوجهين: لحبى وهيامى لك ولأنك أهل للمحبة والعبادة، فباشتياقى ومحبتى أذكر أسمك وأشغل بذاتك العليا وبأهليتك للمحبة أنال من لدنك مرتبة المشاهدة فلا يقف حمدك وثناءك لأمر منهما وإنما لك الشكر ومنك الفضل للحالين".

وكان كفنها وهو عباءه من الصوف لم يزل موضوعاً أمامها تستصحبه معها أينما ذهبت، وعندما اقتربت منيتها وشعرت بالوفاه طلبت " عبدة بنت أبى شوال" وقد كانت صديقة مخلصة لها فأوصتها بأن يكفنوها (٢) بتلك العباءة، فلما ماتت عملت بوصيتها، فرأتها فى المنام بعد دفنها بعام برداء أخضر وغطاء أخضر على رأسها فقالت لها متعجبة: ماذا صنعت بكفنك الصوف، فأجابتها قد عوضنى الله عنه بهذه الثياب كما ترين.

* * *

(١) مشاهير النساء.
(٢) ابن خلكان.

وكان موتها عام ١٢٥ هجرية وقبرها فى رأس جبل طور شرقى القدس يزوره الناس حتى اليوم.

وإن القارئ يرى من خلال ما شرحناه أنها رحمها الله شخصية غريبة ذات مزايا انفردت بها من بين ربات الخدور فى العصر الإسلامى، كما كانت مثالا نادراً للتصوف والزهد والخشوع عمرت ثمانين سنة كانت فيها مثال الكمال والعمل على التدرج الروحى. ضحت دنياها لقاء أخراها. إذ كانت تستطيع أن تعيش مرفهة كمعاصريها، ولكنها لازمت الفقر والضرورة وأنواع العذاب والمشقة لمحو كل عاطفة دنيوية من نفسها.

لا يمكن الوصول إلى درجة الكمال التى وصلت إليها رابعة إذ يصعب تضحية دنيانا لأجل آخرتنا فى مثل هذا العصر الذى اشتدت فيه الرغبة فى الحياة والصدوف عما سواها، وإنما لو أتخذنا من حياتها اليومية دستوراً ننسج على منواله نزيد فى تدرجنا الروحى ورقينا الكمالى.

لو أننا فهمنا أوامر النبى وتعاليمه التى جاء بها منذ أربعة عشر عاما لعملنا للدنيا والآخرة معاً ولكنا ارتقينا نحو ذرى الكمال.

-٧-

الخنساء

قبل الإسلام

هى الشاعرة الجليلة، بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، ونسبها يتصل بسليم وعيلان إلى قبيلة مضر الشهيرة.

كان أهلها من سكان البادية، العائشين تحت ظلال خيامهم المنصوبة وسط المهامة والقفار، حيث لا قانون ولا سلطان وحيث هم أحرار طلقاء من كل قيد وذل.

كان قومها كشأن العرب سكان البوادى على طباع متنافرة وخصال متضادة تجمع بين المحامد والمثالب:فبين تراهم فى ذروة الكمال من الشهامة والمروءة والأنفة والآباء وكرم النفس، وإذا بهم فى أدنى مراتب الفوضى والهمجية وشدة الطبع، يحبون سفك الدماء ويركبون فى سبيل أخذ الثأر متون الشطط ويتجاوزون فى ارتكاب الشدة حدود الإنسانية، جملوا القتال وخوض غمرات الحروب والطعان دينا لهم وأشتد طلبهم للثارات حتى كانت القبائل جميعاً تطلب الثأر من بعضها كالحلقة المفرغة التى لا يعرف مبدؤها ولا منتهاها. ومن أجل ذلك كنت تراهم فى عداوة مستمرة وحفيظة متصلة وبغضاء تضطرم فى الأحشاء، فيقضون أعمارهم فى الغزوات والغارات يشنونها على بعضهم البعض، يسيطر غنيهم على فقيرهم ويتغلب قويهم على ضعيفهم، ومن أجل ذلك انفرط عقد السعادة من بينهم وساد الشقاء فى ربوعهم.

فى مثل هذا الزمن من أيام الجاهلية، وفى أظلم أدوار الوثنية، فى عهد الحروب والغزوات، فى الأيام الدموية من تاريخ العرب، تنشقت الخنساء نسيم الحياة.

كانت من أعز بيوت العرب نسباً وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عن قبيلتها المضرية ويعدها حصن القبائل العربية، وقد حدث أصحابه رضوان الله عليهم بأنه من بنى العوانك أحد أفخاذ سليم بن عيلان بن مضر.

وقد اشتهرت قبيلة الخنساء بشجاعة أبنائها وكرم طباعهم، فصاحة منطقهم وإجادتهم قول الشعر. وكان لها أخوان تحبهما محبة شديدة، هما صخر ومعاوية، وقد كانا من أشجع العرب وأفصحهم نطقاً وأدرعهم شكلاً وأصبحهم وجهاً، فكان أبوهما يفاخر بهما الشيوخ والأقران، متحدثاً بجمالهما ونجابتهما فتقع أقواله منهم موقع الرضى والقبول.

وسميت الخنساء فى بادئ الأمر (تماضر) لبياض لونها (١) إذ كانت العرب تسمى المرأة ذات البشرة البيضاء تماضر، ثم غلب عليها اسم الخنساء، مؤنث كلمة أخنس، صفة من الخنس أى تأخر الأنف عن الوجه أو انخفاض قصبته وتأتى أيضاً بمعنى الظبية فأطلقت عليها الكلمة من طريق الكناية.

كانت شاعرة بفطرتها. بدأت تقول البيت والبيتين منذ الصغر، إذ كانت فتاة كريمة النفس، متينة الأخلاق، ذات وقار وشمم، تكره النفاق والمداهنة.

كانت فى أول عمرها من أجمل نساء عصرها، رآها دريد ابن الصمة يوماً تهنأ بعيراً لها ثم تجردت واغتسلت، وهو ينظر إليها خفيه فأعجبته وقال فيها قصيدة مشهورة يصفها ويمدحها ويبوح لها بمكنون صدره (٢) وقد خطبها إلى أبيها فى اليوم التالى. فأجابه أبوها:

مرحباً بك يا أبا قرة إنك للكريم لا يطعن فى حسبه والسيد لا يرد طلبه والفحل لا يقرع أنفه، ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذا كرك لها وهى فاعلة.

---

(١) زهر الآداب.

(٢) ومن هذه القصيدة قوله:

حيوا تماضر واربعوا صحبى ... وقفوا فإن وقوفكم حسبى
ما ان رأيت ولا سمعت به ... كاليوم طاف أنيق حزبى
مسدلا تبدو محاسنه ... يضع الهناء مواضع النقب
أخناس قد هام الفؤاد بكم ... واعتاده داء من الحب

ثم دخل إليها وقال لها: "يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم، دريد بن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين" ودريد يسمع قولها فقالت:

– يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم؟ هامة اليوم أو غد؟

فخرج إليه أبوها فقال:

– يا أبا قرة قد أمتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد.

فقال:

– قد سمعت قولكما، وانصرف يائساً حزيناً.

وقد عاود الطلب مرة أخرى وكان يمت إلى معاوية، أخيها من أبيها بحبل النسب، فطلبها من أخيها هذا وألحف عليه فى الطلب، وقد حضر إليها أخوها وقال:

– تعلمين يا أختى ما بينى وبين دريد من المودة والألفة، وقد طلبك وأرجو أن تقبليه زوجا فإننى راغب فى ذلك.

فأجابته:

– ما أعجب هذا الأمر ألم تجد غيرى لسعادة صديقك.

– نعم يا خنساء إننى راغب فى ذلك رغبة شديدة.

– حسناً دعنى أفكر فى ذلك، ويحسن أن ترسل إلى دريد فاشافهه بنفسى.

فقام الأخ مسرعاً نحو صديقه وأخبره بما دار بينهما وأتم الحديث بقوله:

– قم إليها فإنها طلبت مقابلتك.

فأصلح دريد هندامه وأمتطى فرسه حتى جاء خيمتها، وقد استقبلته بالمودة والبشر وأكرمته وأعدت له وسادة يتكئ عليها عند جلوسه، ودار بينهما حديث طويل

سألته خلال كلامها عن أشياء كثيرة، ثم قدمت إليه قدحاً من اللبن كعادتهم. وكانت تراقبه وتتمعن فى حركاته وهو يشرب اللبن ولم يفتها شئ مما أتى به حتى رسخ فى ذهنها تماماً أنه لا يصلح بعلا لها ولم تشأ أن تخبره ذلك فى الحال بل قالت له:

- أذهب وسيأتيك قولى فيما بعد.

فعلم دريد أنه لا مجال للمزيد، فقام من فوره ووصله عقب ذلك رسول الخنساء يحمل إليه هذه الرسالة:

- أنت شيخ طاعن قد ضعف بصرك، ووهت قواك ومضت أيام شبابك، فمالى إليك من حاجة.

فحنق دريد لذلك وأراد أخوها معاوية أن يزوجها منه قسراً، ولكنها أصرت فى الرد وأنه لا سبيل إلى ما يريد فاشتد حنق دريد بعد هذا الرد القاطع وبدأ بهجوها بلاذع القول وقارص الكلام، وعندما بلغها ذلك قالت:

- ما دمت رفضت الزواج منه فلم يبق ما أقوله له فليهجنى ما شاء أن يهجو وما كنت لأجمع عليه أن أرده وأن أهجوه.

فى هذا الرد ما يشعر بالاحتقار والامتنان وإنه لأبلغ من كل هجو قاله دريد فهل بلغه ذلك؟ لو سمع قولها لاستشاط غضباً فوق غضبه.

وبعد هذه الحادثة تزوجت برواحة بن عبد العزيز السلمى (١).

وبعد أن مات خلف عليها عبد الله بن عبد العزى من بنى خفاف، فولدت له عبد الله ثم خلف عليها من بعده مرداس بن أبى عامر المسلمى فولدت العباس ويزيد وحزن وعمر وسراقة وعمرو وجميعهم شعراء، وقد أمتاز العباس من بينهم بالشجاعة وإجادة

---

(١) الاغانى

الشعر، وأدرك الإسلام وتشرف به ثم مات فى موقعة القادسية مع ثلاثة أخوة له بعد أن أبلوا بلاء حسناً.

وكما كانت تحب أولادها فقد أحبت أخويها معاوية وصخر بل أن حبها لهما كان يفوق كل حب وإعزاز، وقد كانت تفضل صخراً حق قدره لحلمه وشجاعته، وتخصه بالجلال لموقعه الممتاز بين رجال العشيرة وأفراد العائلة، وتفخر به لبطولاته وفروسيته وتعتز به لصباحه وجهه، ولذلك فإن قصائدها التى قالتها فيه أثناء حياته ومراثيها التى أنشدتها لأجله بعد مماته من أجود الشعر وأمتنه.

موت أخيها معاوية أول نكبة أصابت كيان حياتها، ولقد زلزلت هذه الحادثة بنيان نفسها وذهنها فغيرت مجرى حياتها إلى طريق آخر غير سنتها الأولى.

أظلمت الدنيا فى وجهها فانقلبت قصائدها المملوءة بالروح والحياة إلى مرثيات مبكية موجعة تسيل حزناً وألماً. فهذه الحادثة هى الفصل الأول من كتاب حياتها، فيه ودعت والهة متوجعة، أيام الشباب وأناشيد الصبا ونغمات السرور. فى عام ٦١٢ من ميلاد عيسى عليه السلام وافى معاوية سوق عكاظ (١) فى موسم من مواسم العرب فبينا هو يمشى فى السوق إذ لقى أسماء المرية وكانت جميلة، وزعم أنها كانت بغياً فدعاها إلى نفسه فامتنعت عليه وقالت:

– أما علمت أنى عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟

فأحفظته، فقال:

– أما والله لا قارعنه عنك.

قالت:

– شأنك وشأنه

(١) العقد الفريد

– فرجعت إلى هاشم فأخبرته بما قال معاوية وما قالت له فقال هاشم.

– فلعمرى لا نريم أبياتنا حتى ننظر ما يكون من جهده، فلما خرج الشهر الحرام وتراجع الناس عن عكاظ، خرج معاوية بن عمرو غازيا يريد بنى مرة وبنى فزارة فى فرسان أصحابه من بنى سليم حتى إذا كان بمكان يدعى الحوزة دومت عليه طير وسنح له ظبى، فتطير منهما ورجع فى أصحابه وبلغ ذلك هاشم بن حرملة فقال.

– ما منعه من الإقدام إلا الجبن فلما كانت السنة المقبلة غزاهم حتى إذا كان فى ذلك المكان سنح له ظبى وغراب فتطير فرجع ومضى أصحابه وتخلف فى تسعة عشر فارسا منهم لا يريدون قتالا فوردوا ماء، واذا عليه بيت شعر فصاحوا بأهله فخرجت اليهم امرأة فقالوا ممن أنت؟ قالت: امرأة من جهينة أحلاف لبنى سهم بن مرة بن عطفان، فوردوا الماء يسقون، فانسلت، فأتت هاشم بن حرملة، فأخبرته أنهم غير بعيد وعرفته عدتهم وقالت:

– لا أرى الا معاوية فى القوم.

فقال:

– يا لكاع أمعاوية فى تسعة عشر رجلا شبهت وأبطلت قالت:

– بلى، قلت الحق وإن شئت لأصفنهم لك رجلا رجلا.

– قال: هاتى.

– قالت:

– رأيت فيهم شابا عظيم الجمة جبهته قد خرجت من تحت مغفرة، صبيح الوجه، عظيم البطن، على فرس غراء

– قال:

– نعم هذه صفته وفرسه الشماء

– قالت:

– ورأيت رجلا شديد الأدمة، شاعرا ينشدهم

– قال:

– ذاك خفاف بن عمير

وهكذا حتى وصفتهم رجلا رجلا إلى أن أتت على وصف الجميع، فنادى هاشم فى قومه وخرج فاقتتلوا ساعة وانفرد هاشم ودريد ابنا حرملة المريان، لمعاوية فاستطرد له أحدهما فشد عليه معاوية وشغله واغتره الآخر فطعنه فقتله.

ولما دخل الشهر الحرام خرج صخر بن عمرو حتى أتى بنى مرة فوقف على ابن حرملة، فاذا أحدهما به طعنة فى عضده فقال: أيكما قتل أخى معاوية؟ فسكتا فلم يخبراه شيئا فقال الصحيح للجريح:

– مالك لا تجيبه.

فقال

– وقفت له فطعننى هذه الطعنة فى عضدى وشد أخى عليه فقتله، فأينا قتلت أدركت ثأرك إلا أنا لم نسلب أخاك قال:

– فما فعلت فرسه الشماء؟ قال:

– ها هى تلك خذها

فأخذها ورجع فلما أتى صخر قومه قالوا له: أهجهم. قال:

– إن ما بيننا أجل من القذع ولو لم أكفف نفسى رغبة عن الخناء لفعلت.

فلما كان فى العام المقبل غزاهم وهو على فرسه الشماء وقال إنى أخاف أن

يعرفوننى ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا فحمم غرتها فلما أشرقت على أدنى الحى رأوها، فقالت فتاة منهم هذه والله الشماء، فنظروا فقالوا الشماء غراء وهذه بهيم فلم يشعروا الا والخيل نوائس فاقتتلوا، فقتل صخر دريدا وأصاب بنى مرة وعاد ظافرا غانما يطفح وجهه بشرا بأخذ الثأر (١)

* * *

وفى الوقت الذى وهبت الخنساء نفسها لمحبة أخيها صخر بعد مقتل عزيزها معاوية، أصيب أخوها هذا بطعنة رمح بعد ثلاثة أعوام ومرض قريبا من حول.

كان لصخر زوجة تدعى سلمى يحبها لدرجة العبادة، ويقال أن بنى عبس غزت قبيلة فى يوم من أيام خروجه للصيد، فانتهكت حرمة الخيام وسبت نساء الحى، وعندما عاد صخر وجد الخراب ضاربا أطنابه فى موطن الحى فركب فرسه وهاجم القبيلة الغازية مسرعا وتمكن من قتل بضعة رجال منها ثم التفت إليه فرسان من أشجعهم فقاتلهم حتى انتصر عليهم، ولما رأى أسراء بنى سليم هذا الظفر الخارق تجرأوا وبدأوا يفكون القيود والأغلال ويهرعون مثنى وثلاث الى حيث صخر ليمدونه بالمعونة فى ميدان النضال، وقد رأى ابنة عمه سلمى ذليلة بين زنجى من القبيلة يمتهنها، فهجم عليه وقتله فى الحال. وعند ما انتهت المعركة وعقدت لصخر ألوية الفخار والظفر عينه رجال القبيلة رئيسا عليهم مكافأة لبلائه الحسن وطلب منه عمه أن يختار من يشاء من بناته زوجة له فاختار سلمى إذ كان مغرما بها.

كانت سلمى أجمل بنات الحى وأملحهن شكلا، وقد كان لها مكانة سامية فى نفس صخر منذ أمد بعيد فكان زواج هذين العاشقين: أجمل الفتيات وأشجع الفتيان من دواعى الطرب والسرور بين القوم.

---

(١) الاغانى.

أصيب صخر بعد زواجه بطعنة رمح أقعدته الفراش مدة طويلة وكان أفراد القبيلة يفدون إلى خيمته يسألون زوجته عن رئيسهم المحبوب من حين لآخر، وكانت سلمى تجلس أمام خيمتها تنتظر إبلال زوجها من مرضه. انتظرت طويلا ولكن على غير جدوى، فبدأت عوامل الملل تتسرب الى نفسها وأخذت آثارها تظهر على صفحة وجهها بما تظهره من التبرم والتأفف، وقد سألها بعض قومها ذات يوم: "كيف بعلك؟" فقالت سلمى:

– لاحى فيرجى ولا ميت فينعى لقينا منه الأمرين.

فسمعها صخر وتأثر من ذلك أيما تأثر(١)

ما كان يخطر على باله أن تقول سلمى فيه مثل هذا القول، سلمى التى أحبها وخاطر من أجلها وخاض غمرات الموت لإنقاذها من يد الزنجى، فاشتد ألم النفس شدة أنسته ألم الجرح وما فتى يكرر قولها للعائد حتى ناداها ذات يوم وقال:

– قد قلت يا سلمى فى حقى كذا وقد نذرت لأجلك نذرا إن شفانى الله.

– فسألته:

– أخير هو هذا النذر أم شر؟

– فأجابها:

– جزاء لخيرك وشرك.

– فأجابته:

---

(١) وفى ذلك يقول:

أرى أم صخر لا تمل عيادتـــى ... وملت سليمى مضجعى ومكانى
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغتر بالحدثـــان
لعمرى لقد نبهت من كان نائمـا ... وأسمعت من كانت له اذنـــان
وللموت خير من حياة كأنهـــا ... محلة يعسوب برأس ســـنان
وأى امرئ ساوى بأم حليلـــة ... فلا عاش الا فى شقا وهـــوان

– والله قد يئست من نفسى ولا أقدم لك عذرا عما قلته فافعل بى ما أنت فاعل.

فأثر عليه قولها كأنه سهام مسمومة نفذت أحشاء قلبه، وبدأت أمه تجلس بعد ذلك اليوم تقابل الزائرين والعائدين فكان اذا سألها سائل عن صحته طمأنته وقالت له ما يتفاءل به خيرا.

وقد بدأ جرح صخر يلتئم وأخذ يسترد صحته ويعود إلى نشاطه السابق، حتى إذا أنس من نفسه بعض القوة، قام إلى زوجه فهجم عليها وصلبها على إحدى أعمدة الخيمة. إلا أن المجهود الذى بذله فى سبيل الانتقام من زوجته أفقده الصحة فانتكس ثانيا إلى أن مات.

لم تنس الخنساء مصيبتها الثانية ومرارة هذه الحادثة حتى الممات، فبكته طول حياتها ونظمت المراثى الطوال.

الخنساء
بعد الإسلام

بعد أن ثكلت الخنساء أخويها جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفود قبيلتها وتشرفت بنعمة الإسلام.

ولم تنقطع عن أوجاعها وأناتها حتى بعد الإسلام، بل كانت تقص شعرها وتلبس ثوباً خلقاً من الخيش الأسود وتندب أخويها على عادة العرب فى جاهليتها.

رآها سيدنا عمر بن الخطاب ذات يوم أثناء طوافها بالكعبة، وهى على هذه الحال فتقدم إليها ونصحها كثيراً فأجابته- لم تصب امرأة بمثل ما أصبت به فكيف أتحمل مضض فراق فارسين فقدتهما.

فأجابها سيدنا عمر بما هون عليها المصيبة وذكر لها أن مصائب كثيرة من الناس أشد هولا لو اطلعت على بواطن أمرهم، وقال لها أن ما هى عليه من الحداد من بدع الجاهلية التى حرمها الإسلام فامتثلت لأمره.

ورأت السيدة عائشة على الخنساء صداراً من شعر وهو ثوب صغير فقالت يا خنساء أتلبسين الصدار وقد نهى الرسول عنه قالت لم أعلم بنهيه وله سبب قالت: وما هو؟ قالت زوجنى أبى رجلاً متلافا لماله فأسرع فيه حتى نفد فقال لى أين تذهبين يا خنساء فقالت إلى أخى صخر فلقيناه فقسم ماله بيننا شطرين ثم خيرنا فقالت زوجته أما كفاك أن تقسم مالك حتى تخيرهم فقال:

والله ما أمنحها شرارها وهى حصان قد كفتنى عارها

ولو أموت مزقت خمارها وجعلت من شعر صدارهـــا

ثم أنشدت قصيدتها التى تقول فيها:

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمـــس

ولولا كثره الباكيـــن حولـى على موتاهم لقتلت نفســـى

وما يبكون مثل أخى ولكـــن أعزى النفس عنه بالتأســـى

لم تستطع الخنساء أن تمحو من ذاكرة الخيال مرارة الحزن وألم الفراق بل ذهبت أيام عمرها مع سيل عبراته واستنزفت دموع القلب زهرة حياتها. لم تصغ إلى نصيحة إنسان بل إن الحزن انطبع على قلبها بحروف من نار وكوى فؤادها كيا لا يزول أثره ما دام فيها عرق ينبض. لو ابتسمت لخلت الحزن مرتسما فى تلك الابتسامة ولو تنفست لشعرت بحرارة الألم تتصاعد مع الزفرات. لم يحلق فى سماء حياتها سوى غمامة كثيفة: هى: شبح الذين ثكلتهم وبكت من أجلهم.

وفى أيام خلافة سيدنا عمر جاء إليه نفر من أصحابها، وشكوا إليه حالها وطلبوا منه إحضارها وبذل النصيحة لها عسى أن ترجع عن حدادها، فلما مثلت بين يدى رجل العدل عمر وجد عينيها غائرتين من كثرة البكاء فقال لها:

– ما دهاك يا خنساء؟ وما الذى صيرك الى هذا الحال؟

– فأجابت:

بكائى لفحول مضر جعلنى فى هذا الحال. فأنبها عمر وطلب منها أن تلتجئ إلى رحمة المولى عز وجل وقال لها إن الإسلام يحرم أمثال ذلك وإننا ظلال زائلة فى هذه الحياة، ولو أن البقاء من نصيب الأحياء لبقى الرسول صلى الله عليه وسلم حيا ثم أتم الحديث بقوله (إن أخويك فى النار) فأجابت

– ذاك أطول لحزنى كنت أبكى لهما من الثأر وأنا اليوم أبكى لهما من النار.

فطلب منها أن تقول ذلك شعرا، فقالت دعنى أنشدك بعض ما قلته ثم أنشدته قصيدتها التى مطلعها:

سقى جدثا أكناف عمرة دونه من الغيث ديمات الربيع ووابله

فتـأثر سيـدنا عمـر من قولهـا وعزم علـى أن يتركـها فى حالـها، ثم التـفت إلى أصحابه وقال لهم:

– دعوها بعد اليوم فى شأنها، فإن للمرء أن يبكى ما شاء لمصيبته ونكبته.

حرب القادسية

هنالك صفحة مشرقة فى تاريخ أيام الخنساء، تنحنى لها الرؤوس إجلالا، هى خير وأبقى من كل قولة قالتها أو قصيدة نظمتها فى أيام الصبا.

فلقد خبا بريق عينيها وانطفأ نور جمالها وتقوس ظهرها وانتابتها عوامل الضعف والشيخوخة، ولكنها لم تزل فتية القلب، جريئة الجنان، تجول فى عروقها المنكمشة دماء الشهامة والجلادة.

عرفنا الشئ الكثير عن تاريخ المرأة الرومانية، وأعجبنا بجلادتها وشجاعتها فى مواقف الشهامة وما كانت عليه الخنساء لم يكن بأقل من ذلك.

لقد بلغت أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر وقوة الإيمان. ما ذهب به الدهر من حديث جزعها، وتصدع قلبها واضطرام حشاها على أخويها صخر ومعاوية، كل ذلك استحال إلى صبر أساغه إيمان وجمله التقى، فلم تأس على فائت من متاع الدنيا.

كانت أما لأربعة أولاد من أشجع الأولاد، هم أشطار كبدها ونياط قلبها دفعتهم جميعا إلى الحرب، وعدت موتهم فى سبيل الاسلام شرفا ليس وراءه شرف. ثم بكتهم وهى تفخر بضياعهم إذ لم يبق لها إنسان بعدهم.

وقعت حرب القادسية فى عام أربعة عشرة من الهجرة النبوية فحضرت الحرب مع أولادها الأربعة وقالت لهم من أول الليل:

"يا بنى إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنو رجل واحد، ماخنت أباكم ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله تعالى للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، لقوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا واربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.

فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب شعرت عن ساقها، واضطرمت لظى مساقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والمقامة".

فلما أصبح الصباح، وقد أثرت فيهم نصيحتها تقدم كل واحد منهم إلى الحرب وقاتلوا واحدا بعد واحد حتى قتلوا وكل منهم أنشد قبل أن يستشهد رجزا فأنشد الأول:

يا أخوتى أن العجوز الناصحة　　قد نصحتنا إذ دغتنا البارحة

بمقالة ذات بيان واضحـــــة　　وإنما تلقون عند الصابحـــة

من آل ساسان كلابا نابحة

* * *

وأنشد الثانى:

والله لا نعصى العجوز حرفـــا　　نصحا وبرا صادقا ولطفـــا

فبادروا الحرب الضروس زحفا　　حتى تلفوا آل كسرى لفـــا

* * *

وأنشد الثالث:

إن العجوز ذات حزم وجلـــد　　قد أمرتنا بالسداد والرشـــد

نصيحة منها وبرا بالولـــــد　　فباكروا الحرب حماة فى العدد

* * *

وأنشد الرابع:

لست لخنساء ولا للأخـــــــــــزم ولا لعمرو ذى السعاء الأقـــــدم

إن لم أره فى الجيش حنس الأعجمى ماض على الهول خضم حضرمى

اشتد أوار الحرب وانتهت بقتل كبير الفرس وتشتت شملهم وانتصار المؤمنين فعقدت للإسلام ألوية الظفر.

وعند نهاية الحرب الضروس التى لقى منها المسلمون صنوف الشدة قام نفر من رجال الجيش إلى الخنساء وأخبروها باستشهاد أولادها الأربعة بعد أن أبلوا بلاء حسنا، وما كادوا يلقون عليها الخبر حتى اهتز كيانها ونالها رعشة سرت فى جميع أطرافها ثم سكتت والتفتت اليهم تقول:

"الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى معهم فى مستقر رحمته".

وعندما عادت الجيوش الإسلامية إلى المدينة المنورة تخفق على رؤوس أفرادها ألوية الظفر كانت الخنساء معهم تجر نفسها على عصاها، تسيل عبراتها ويتخلل وجهها إشراقا وبهاء، فكان الناظر إليها لا يدرى أيغبطها على حالها أم يتوجع لآلامها وقد أجرى عليها رجل العدل عمر بن الخطاب أرزاق بنيها، مائتى درهم عن كل واحد.

مكانة الخنساء بين شعراء العرب

كان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه شعرها (١) ويستنشدها ويقول هيه يا خناس ويومى بيده صلى الله عليه وسلم.

ولما قدم عدى بن هاشم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحادثه فقال:

– يا رسول الله إن فينا أشعر الناس وأسخى الناس وأفرس الناس.

– قال: سمهم. قال:

– أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد يعنى أباه وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ليس كما قلت يا عدى. أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو وأما أسخى الناس فمحمد يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب.

قيل لجرير من أشعر الناس؟

قال: أنا لولا الخنساء

قيل: بم فضلتك؟

قال: بقولها:

إن الزمان وما يفنى له عجـــب أبقى لنا ذنبا واستؤصل الراس

إن الجديدين فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد النـــاس

(١) خزانة الادب.

وكانت فى أوائل أمرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل أخوها معاوية ثم أخوها صخر، فأكثرت من الشعر وتغيرت طريقتها فى القول وأسلوبها فى التفكير لأن المصيبة شحذت قريحتها وصقلت ذهنها فاشتد لمعان أفكارها رونقا وبهاء.

واتفق أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، ويقول الشريشى فى كتابه: "إن النساء ليظهر الضعف فى أشعارهن إلا الخنساء، فقد فاقت الرجال فى قول الشعر" وعندما عد أبو العباس المبرد شعراء العرب قال عن الخنساء وليلى أنهما فاقا الرجال فى متانة الشعر مع تأخر النساء بالنسبة للرجال فى أكثر الصناعات، وكان الأصمعى يفضل ليلى على الخنساء ويحاجيه أبو زيد بقوله "وإن كانت ليلى فى أشعارها أمتن لفظا وأعمق معنى إلا أن الخنساء فى مراثيها أعلى روحا" وكان المبرد تعجبه مراثى الخنساء ويقول عنها "أمتن المراثى ما كانت مملوءة بالألفاظ المفجعة" ويحاجيه أبوزيد بقوله "التى تشعر بمدح المتوفى فإذا كان النظم موافقا والألفاظ صحيحة والأسلوب رائقا فلا ريب فى نفاسه القول إذ ذاك حيث يستفيد المرء ويمتلئ بروح اللذة والإعجاب، وهكذا مراثى الخنساء فى مثل هذا الحد من مراتب الكمال"

كان يضرب للنابغة الذبيانى قبة من أدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فأنشده الأعشى مرة ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء والخنساء تسمع فسأله حسان عن مقدار شعره ففضل عليه الأعشى فقام حسان غاضبا يقول:

"والله لأنا أشعر منك ومن أبيك"

فقال له النابغة:

"يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول"

ثم التفت إلى الخنساء وطلب منها أن تنشده شيئا فأنشدته:

أن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فتأثر الحاضرون وقام إليها حسان يقول:

"لم أر والله امرأة أشعر منك فقالت له:

ألا تريد أن تقول أننى أشعر الرجال أيضا؟

فأجابها بغرور

"كلا أنا أشعر منك ألم تسمعى قولى:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحـــى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فاكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنمـــا

فنظرت إليه الخنساء بازدراء وأجابت:

– إنك لعاجز فى هذا الشعر، وقد أخطأت فى ثمانية مواضع منه.

فسألها عن مواضع الخطأ فأجابته برزانة ووقار:

قلت (الجفنات) والجفنات جمع قلة وكان الأجدر أن تقول (الجفان)، وقلت (الغر) ولا يقال الغر الا لبياض الجبهة، ولو أنك قلت (البيض) لكان المعنى أتم وإنك تقول (يلمعن) واللمعان يفيد النور الضعيف وكان الأجدر بك أن تقول (يشرقن) وقلت (بالضحى) مع أن وقت الضحوة لا يأتى من الضيوف إلا النذر اليسير ولو قلت مساء لكان المعنى أتم وقلت (أسياف) بجمع القلة ولو أنك قلت سيوف لكان دليلا على الكثرة وقلت (يقطران) فدللت بذلك على قلة عدد القتلى ولو قلت (يجرين) لكان أبلغ ثم إنك تقول (دما) ولو قلت (دماء) لكان أتم ثم أنك تفتخر بالاخلاف منكم ولا تفتخر بمن سلف.

فخجل حسان من محاجتها وخرج من المجلس غاضبا كئيبا.

كان من عادة العرب أن يجتمع شعراؤها فى سوق عكاظ للمباراة فى إجادة الأقوال وسبك المعانى وكان ينصب للنابغة الذبيانى قبة حمراء يجتمع تحتها كل شاعر مجيد وكل بليغ عتيد وخطيب منطيق، فيطلقون العنان لبنات الأفكار وينثرون على بساط المباراة درر الألفاظ وغوالى الحكم، فمن نال قصب السبق وحكم له بالتفوق والإجادة تكتب قصيدته على طروس من الحرير تعلق على أستار الكعبة، ومن أجل ذلك فإن لأصحاب المعلقات مكانة رفيعة ومنزلة سامية بين الشعراء وفحول أصحاب القول والحكمة لأن معلقاتهم من أجود القول وأحكمه.

كانت العرب تعبد البلاغة فأوصلتهم عبادتها إلى مراتب الكمال فى التوسع اللغوى حتى لقد أصبح قول الشعر سليقة لهم ينطق بها صغيرهم وكبيرهم، وأصبحت الكلمة الطيبة تعمل فى النفوس فعل السحر بالألباب.

كانت المعانى الجميلة والألفاظ البديعة والأقوال الحكيمة من مزايا تلك الحياة البدوية الصافية، حتى ليقال أن أعرابيا وصل ذات يوم إلى مكة المكرمة فحث مطيته نحو رهط من الناس مجتمعين فى حلقة، مطرقين ينصتون لرجل يقرأ عليهم قولا بليغا فنزل عن ناقته وجلس ينصت معهم، وما كادت بعض الأقوال تتغلغل إلى نفسه حتى قام من فوره فسجد طويلة وعندما انتهره القوم متسائلين عن فعلته أجابهم: "إنما سجدت لفصاحة هذا الشئ الذى تقرأونه" فقالوا له "ما هذا كلام بشر وإنما هو كلام الله عز وجل" فأجاب "اذن لأسلمن معكم".

كانت الخنساء تحضر سوق عكاظ وتعرض شعرها النفيس فى ميدان المباراة تحت تلك القبة الحمراء، وقد قرأت ذات يوم قصيدة بليغة نالت استحسان الجميع وإعجابهم فأشار النابغة إلى الأعشى الواقف أمامها وقال:

"لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت أنك أشعر منه"

هانحن أجملنا لك صحيفة بيضاء من تاريخ العظائم، صحيفة امرأة مستثناه،

أحرزت فى الحياة موقعاً رفيعاً يختلف كثيراً عن مواقع من عاصرتها من سيدات ورجال.

الخنساء سيدة جليلة، ووالدة كريمة، وشاعرة عزيزة، نافست فى عالم الأدب فنالت قصب السبق وناضلت فى ميادين القتال لإعلاء كلمة الإسلام فحازت القدح المعلى، ولا ندرى بأى مزية من هذه المزايا نذكرها ولا بأى مفخرة من هذه المفاخر نشهرها.

عاشت أعواماً كثيرة بعد وقعة القادسية وماتت أيام خلافة معاوية فى العام الخمسين من الهجرة وعمرها سبعون سنة. وقد أجمعت كتب التاريخ أنها ماتت فى البادية.

كيف قضت أنفاسها الأخيرة وأودعت آخر نسمة من نسمات الحياة، أكانت وقتئذ عائدة من إحدى منتديات الشعر والأدب تتوكأ على عصاها المعروفة؟ أم أسلمت الحياة فى خيمتها وهى مستسلمة إلى أحضان الماضى وذكريات الشباب أم كانت إذ ذاك تحد النظر فى منظر غروب الشمس فى يوم قائظ، وقد خيل إليها أن تشبع الروح وتملأ العين بتلك النظرة الأخيرة فى فضاء الصحراء المترامية الأطراف والبوادى الشاسعة التى لا تقع فضاء العين منها إلا على سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وهى تردد مع أنفاسها الأخيرة قولها فى أخيها:

يذكرنى غروب الشمس صخر وأذكره لكل طلوع شمس

سائلتُ التاريخ كثيراً عن ذلك فلم أقع من طياته واسرار على ما ينقع الغليل اللهم إلا نتف وأقوال أجملتها فى هذه الصحائف القليلة التى أعرضها اليوم على الأنظار بعد مرور ألف وثلثمائة وثمانية عشر ربيعا على ذبول تلك الزهرة المعنوية الجليلة.

وقد خطرت لى سانحة أريد أن أثبتها هنا قبل ختم هذه الصحائف، هى ذكرى

صغيرة أريد بها المقارنة بين قلب الخنساء الكبير ونفسية امراة يابانية:

إننا لنعلم الخطوات الواسعة التى خطتها الأمة اليابانية فى سبيل الرقى والمدنية فإن نعجب بمدنيتهم وفلاحهم فإن عصبيتهم نحو تاريخهم وقوميتهم وتمسكهم بتقاليدهم الملية وعاداتهم الوطنية أحرى بالتقدير وأجدر بالإعظام.

إن تحليل وتعميق الشعور الكامن فى النفس اليابانية للوصول إلى حالتها الروحية وللوقوف على أسرار سعادتها والإطلاع على غايتها من الحياة والإحاطة بالعوامل التى رفعتها إلى هذه الرتبة العالية والمكانة السامية، لذة معنوية تدخل على النفس ظلال الغبطة والسرور.

أسعدتنى الظروف فيما مضى بلذة معنوية من هذا القبيل، إذ كنت أطالع كتابا عن اليابان يبحث عن علو أفكار المرأة اليابانية وظرفها الفطرى، وقد ذكر فيها المؤلف بدهشة وإعجاب متانة أخلاقها وقوة جنانها وعلو طبعها إلى غير ذلك من مزايا تربيتها الروحية ثم استطرد من ذلك متسائلا عن أثر الوراثة فى ذلك التهذيب وعن الأجيال التى تمت وتمرنت فيها هذه التربية الروحية حتى كملت إلى حد إظهار الرزانة والوقار أمام مرائر الحياة وجبر النفس وستر دموع العين بابتسامات لطيفة فى أوقات الضنك والشدة ثم استطرد من ذلك تصوير الحرب الروسية اليابانية، وتحدث عن اليابانيات وثبات جأشهن وهن يودعن أزواجهن وأولادهن وآباءهن وأخوانهن الذاهبين إلى ميادين الحروب وكيف أنهن كن يملكن العبرات فى ذلك الموقف الرهيب وتفترثناياهن بالابتسامات المشجعة والكلمات المعزية والمعانى الحماسية بدل أن يذرفن الدموع التى قد تفت فى السواعد وتثبط من العزائم وتقلل من النشاط، وقد كانت الواحدة منهن لتعلم وهى تودع أعز إنسان لديها أنه قد لا يرجع إليها سالماً وقد لا تحظى بقبلاته فيما بعد، ولكنها لا تفتأ عن بذل ما تبعث فيه الحمية وما تجدد فيه العزيمة للكفاح وملاقاة الأهوال وقد أضاف المؤلف أن هؤلاء النسوة ما كانت إحداهن لتتأخر عن سبيل التضحية لحظة واحدة فداء الوطن والأمبراطور، ولو أن التقاليد أو العادات تبيح لهن

الأشتراك فى المعامع والحروب مع الرجال، أنهن ليخضن غمراتها بشوق وتلهف بلا بطء ولا توان.

وبعد أن ذكر المؤلف الشئ الكثير عن شهامة اليابانية سرد هذه الحادثة التى شاهدها بنفسه رأى العين، والتى لا أرى مندوحة من نقلها كما هى أنها لقصة بالغة ذات مغزى سام تسوق المرء إلى التفكير العميق، وقد أستطيع هنا أن أسوق القارئ إلى وادى الحس وأفيض عليه بشئ من الشعور الذى غمرنى عند تلاوتها، قال المؤلف:

"كان ذلك فى أوائل الحرب الروسية اليابانية وكانت الجيوش تساق إلى ميادين المعارك، ففى هذه الآونة كانت يابانية تودع حبيبا لها، ذاهبا إلى الحرب فرأيته يقول لها: هيا بنا نتصافح فإننى ذاهب" فسألته متعجبة إلى أين؟ إلى الحرب فأشرق جبينها وارتسمت على وجهها ظلال الغبطة والشوق وسألته بنغمة كلها سرور ونشاط:

- إلى الحرب أليس كذلك؟ إلى أعدائنا الروس؟

- نعم إلى أعدائنا الروس.

فقامت اليابانية من فورها وقد كانت جالسة على حصير، تبرق عيناها بنيران الشوق والسرور، وما كاد حبيبها يلمح فى نظراتها ذلك الهيجان حتى سألها.

- أكنت ترغبين فى مرافقتى؟

فأجابته وهى تكاد لا تملك خفايا تأثراتها:

- نعم كنت أريد ذلك، أريد أن أموت، أن أجود بحياتى فى ميدان الحرب. ولو أستطيع أن أموت واحيا سبع مرات لجدت بحياتى فى كل هذه المرات فداء الوطن والأمبراطور"

لقد تسنمت اليابان غارب المدنية وارتقت ذروة المجد والفلاح لأنها تملك مثل هذه النفوس المهذبة والشخصية الكاملة، ويمثل هذه النار المقدسة المشتعلة فى نفس المرأة

اليابانية على الدوام غرسوا بذور محبة الوطن والأمبراطور فى قلوب الأولاد والأحفاد جيلا بعد جيل.

الوطنية شعور عام يسود اليوم قلب كل يابانى.

البطولة والتضحية من المعانى الممتزجة بدم اليابانى ولحمه إنهما جزءان لا يتجزآن من كيانه.

هذه هى المرأة اليابانية...

وعلى هذا المنوال نسجت أمهاتنا أمثال الخنساء فى تشجيع أولادهن للحروب وتزكية نيران الحماسة فى قلوبهم، وبمثل هذه الروح العالية كانت الواحدة منهن تنادى فى أولادهما وتصيح: "حافظ على لوائك يا بنى وحذار من أن يقع فى يد عدوك إنما اللواء شرفك ووطنك ودينك فإذا أصابته نقطة من الغبار قل شأنك وشرفك وإذا نالته خدشة أو خمشة صغيرة فى جانب من جوانبه صغر قدر نفسك إنه كيانك وكتاب مجدك ورمز أمانيك لج غمرات الحرب وأنظر دوماً إلى الأمام وأعلم أن الجبن عصيان للوطن، فلا ترض لنفسك أهون الحالين بل أسع فى أن تكون إما غازيا أو شهيداً".

وعندما كانت نساؤنا تدفع أحفادها وفلذات أكبادها إلى غمرات الحروب بأمثال هذه الحماسات كنا نقفز على الدوام نحو الرقى والفلاح لقد ارتفعت إذ ذاك رؤسنا وأشهدنا العالم مجدنا وكيانا وبرهنا لهم أننا نستحق الحياة بجدارة واستحقاق.

ولقد جرت أيام ذيول العفاء على تلك الأزمان المجيدة والأيام العزيزة وتطاولت الأحقاب والأجيال على وقت كنا نقدر فيه نواتنا، ولقد نسينا شخصيتنا وأمحت القومية من صدورنا أو منذ ذلك اليوم صرنا مهجورين مدحورين ثم قمنا نقلد غيرنا ونحاكى سوانا، فما استطعنا إلى ذلك سبيلا وعندما عدنا القهقرى أصبحنا نشك فى شخصيتنا لأننا فقدناها ومثلنا اليوم فى أوقيانوس المدنية وخضم العمران مثل سفينة فقدت دفتها تشق عباب البحر بلا غاية ولا أمل، فطوراً إلى اليسار وطوراً إلى اليمين،

إلى حيث يخيل إليها أنه شاطئ السلامة والنجاة...

ولكن لا شئ يستعصى فى الحياة أمام العزيمة والثبات، علينا ألا نيأس وأن نحيا بالأمل وأن نعتقد بأن حسن الطالع سيكون يوما معنا، وأن نعمل منذ اليوم بما أوتينا من جهد وجلد وقوة على اكتساب ثقة الأيام وانتهاز فرص الزمان علينا أن نكرر من حين لآخر كلمات الخنساء الذهبية لأولادها وهم ذاهبون إلى المعركة ولنخلص فى القول حتى نعمل على وقاية اسمنا وشرفنا والمحافظة على لوائنا لتكن أجسادنا ذرات منفصلة من وطننا، ولتكن قلوبنا قلعة محصنة بأسوار الإيمان أما لوائنا الأخضر ذو الهلال والنجوم الثلاث، فليخفق على الدوام فوق برج هذا الحصن المنيع بالنسمات التى تحركها أبواق الظفر.

-٨-

أميرة المؤمنين زبيدة

(بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور)

الفصل الأول

كما أن شيب الرؤوس والعوارض، من علامات الشيخوخة للأفراد ومن أدلة اقترابها نحو حلقات الضعف والذبول، كذلك انغماس الأمم فى مماشى الرفاهة ومسالك التفاهات، من إمارات انحطاطها ودنو ساعتها، والسر فى ذلك أن عناية الخلق بضروب الزينة، وإعراضهم عن الجوهر، وتمسكهم بأهداب العرض، وإكثارهم من التفاهات على الكماليات، يسوقهم حتما إلى هجر أوضاعهم القديمة وأنظمتهم التى درجوا عليها وتقاليدهم التى نشئوا معها، فيشرعون فى توسيع شأنهم وترفيه حالهم، فتبدأ عامتهم فى مشاركةالملوك والخواص فى مظاهر لباسها ومعاشها، ويصبح حب الراحة من قواعد العرف وأحكام العادة، ويهجر قواد الحروب مضارب الخيام وظهور الخيول إلى التنعم فى مغانى الأنس والتلهى تحت ظلال الأمن والدعة، فيختل النظام وتسرى الفوضى ويسود الفشل وتضعف تبعًا لذلك الأنظمة المقننة لسياج الملك وصيانته، إلى أن يأتى دور الانحلال فالاضمحلال وتتم كلمة المسطرة فى لوح الأزل.

حقًا إن الأمم إنما تسير حسب الحكمة الصمدانية المرسومة لها فى كتاب قدرها وأن «لكل أجل كتاب» ولكن لا يجب أن نستسلم من جراء ذلك ونركن الأقدار تسيرنا ذات اليمين وذات اليسار. وإنما علينا أن نمتلئ بالأمل، ونعمل بجد على إصلاح الحال والمآل، إذ من الثابت المقرر أن من القضاء ما هو معلق كما هو وارد فى الكتاب العزيز «ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»(١)

ما أجل هذه الفلسفة وأروعها، إننا لنسجلها هنا بيد الإعجاب والتقدير لذلك الفيلسوف الداهى والمؤرخ الكبير العلامة الحاج خليفة المعروف فى عالمى الأدب

(١) تقويم التواريخ لكاتب جلبى.

والعرفان باسم كاتب شلبى، ذلك لأنها القانون الأزلى لوقائع الأيام والناموس الخالد لحوادث الزمان هذا الناموس الخالد هو - فى عرفى - المقياس القويم والقسطاس المستقيم لجميع الأدوار التى تتقلب فيها الإنسانية، فالحكومات التى توالت والدولات التى تعاقبت الواحدة تلو الأخرى، ما انحدرت من أوج الإقبال إلى وادى الإدبار وما سقطت من سنام العز إلى حضيض الذل، إلا بسبب تلك العلل والأدواء التى بينها لنا المؤرخ «كاتب شلبى»

ها كم صفحات التاريخ، فكلها عظات وعبر، تحدثنا بأوضح بيان وأفصح لسان عن مصير جميع الحكومات والأمم، شرقية كانت أو غربية، وكيف انطفأ نور سعادتها وخبا ضوء عزها، فى طريق العظمة وسبيل غرورها وتمشيها فى مسالك الرفاهة والنعمة، وكيف كان ضياعها وفقدان مزاياها وإمحاء شخصياتها عقب ولوجها مناهج الغرور.

أجل ما حال تلك الأمم والشعوب؛ لقد خبا نور عزها بعد أن كان ساطعًا مشرفا وتقوضت دعائم مجدها بعد ثبات ورسوخ، فذهبت ضحية الاحتشام والدبدبة وهوت من سماء العالم كما تهوى النجوم السيارة فى ليالى الصيف.

ما من أمة استطاعت أن تقف فى وجه هذا القانون الأزلى، فبغداد لم يغنها علما وعرفانها فتيلا، والقاهرة لم يجدها صناعاتها وفنونها نفعًا، وتونس لم ينفعها سحر بدائعها شيئًا. كل هذه العواصم التى ازدهت بأنوار المدنية والعمران وازدهرت بأشعة العلوم والفنون زمنا ما، وكادت تصل الذروة أو تقترب من قمة الكمال، اعتراها الدوار وهى فى الطريق فلم تحرص على أوضاعها القديمة التى أوصلتها إلى تلك الحال.

هذا داء استعصى دواؤه على نطس الأطباء وأجلة الحكماء واحتار فى تعليله وتشخيصه جمهور العلماء والأدباء، وكما أن تيمورًا الفاتح الكبير لم يتمكن من الاحتفاظ بملكه الشاسع، كذلك الأندلس لم تجد وسيلة إلى تخليد مجدها وعظمتها،

وهكذا الحال مع حكومات الرومان واليونان، فما من قائد وحاكم اشتهر بين قومه بالبطولة والعظمة ترك عادة القومية وتربيته الوطنية وحياته الساذجة الصافية إلى حياة الرفاهة والدعة إلا وقد غلب على أمره ولاقى وبال نفسه. فها هم رجال الحرب والكفاح من أبناء الرومان، من الذين جالدوا وناضلوا فى المعامع والمعارك حتى تكللت رؤوسهم بأكاليل الغار، ما كاد هؤلاء يتقلبون على فراش النعمة ويتوسدون رياش الراحة، حتى فارقتهم صفات البطولة ومزايا لرجولة التى شرفتهم ورفعتهم على هامات الشعوب، فصار أحدهم بعد تلك الخشونة وممارسة أنواع الصعاب وضروب المشقات، يجرحه النسيم ويدميه لمس الحرير ويتأذى من وريقة الورد إذا وجدت عرضًا بين حشايا فراشه الناعم الرقيق.

وهل أتاك حديث الإغريق، وما كان من شأن علماء أتينا الدين خلبوا ألباب العالم بواسع أفهامهم وعظيم ذكائهم؟ ألم تر كيف كان بهاء مجدهم وانتشار مدينتهم واستفحال كلمتهم فى مشارق الأرض ومغاربها!... ثم انظر إلى مصيرهم بعد تلك العظمة وإلى انطفاء نورهم بعد ذلك الإشراق سلكوا سبيل الرفاهة والزينة فانفرط عقد نظامهم حتى أصبح موطنهم مزرعة للدسائس والفتن، وفقدوا الانسجام الكامن فى حياتهم الشخصية كما تفقد الكرات موازنتها الطبيعية وهووا إلى الحضيض فالدمار.

وقد كانت بغداد، تلك المدينة الإسلامية الزاهية الزاهرة وعاصمة الخلافة وركنها الركين، هدفًا لهذا القانون، فتمشت مع تياره. ولم تستطع ثباتًا أمام سلطاته. وصلت إلى أوج العز ومنتهى الكمال ثم تدهورت إلى مهاوى الانحطاط ومنحدرات السقوط كغيرها من الأمم السالفة والممالك البائدة.

كانت بغداد هذه فى العصر الثانى للهجرة تمثالا حيا لمدينة الإسلام وبرهانا ناطقًا على أن هذا الدين المبين من أكبر العوامل على الرقى والفلاح. وما كاد ينقضى عام ونصف على تأسيسها حتى انتشر العمران فى خراباتها وسرى نور العلم والعرفان فى عرصاتها، يخطف الأبصار ببريقه الوضاء ثم تبدل فقر الأهالى وإملاقهم

إلى الغنى والرفاهة وبسطةالرزق وسهولة العيش. وفى ذلك إدلال على إعجاز هذا الدين وتنبيه إلى جلال وعظمة شأنه، فطوبى للأمم التى تصل مواطن العز ودرجات الإقبال من طريق تنظيم حياتها وفقًا لأوامر الدين، وطوبى لأولئك الذين يصلون تلك المرتبة العالية من طريق العمل بالأمر النبوى الجليل: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

الفصل الثانى

لما صار العباسيين واستقر نصاب الخلافة فيهم بتدبير السفاح، وبمعونة الإيرانيين أتباعه وأشياعه، نقل عاصمة الملك ومقر الخلافة من دمشق إلى (الكوفة) ليكون قريبًا من رجاله وحزبه غير أنه لم يجد فيها ما كان يطلبه من الراحة والطمأنينة فغادرها إلى (الانبار) على شاطئ الفرات ومكث فيها إلى آخر أيامه، وفيها انتقل الملك إلى ابنه المنصور. وكان مضطلعًا بالأمر قوى الشكيمة، حازمًا متدبراً فتخوف من أبى مسلم الخرسانى، ذلك القائد العظيم الذى ارتفعت دولة أبيه على أكتافه وتمت له الكلمة بهمته وفضله، فدبر له مكيدة أودت بحياته. ثم ابتنى مدينة (الزوراء) على نهر دجلة من العراق ليكون بنجوة عن شغب أهل الكوفة ممن يكيدون للدولة ويقومون بمناصرة آل على، والدولة إذ ذاك فى ميعة شبابها وأبان نشأتها وسماها (بغداد) أو دار السلام. وكانت تنقسم إلى قسمين أحدهما يدعى (الرصافة) وفيه قصر الخلافة وإلى جانبه قصور الأمراء من أقارب الملك وذوى رحمه ثم يلى ذلك قصور الأشراف وسراة بغداد، والثانى وبه بيوت الباعة وأخلاط الناس ودور الصناعة والأسواق ويكتنفها سوران عظيمان يزيدانها منعة وقوة وبذلك أصبحت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن وأصبح الخليفة فى أمن ودعة، قرير العين ناعم البال فى قصره المحاط بتلك الأسوار المنيعة. ثم بنى خارج هذا الحصن المحكم قصر (الخلد) الشهير. وظلت تلك القصور الذهبية الضخمة حتى أيام الرشيد فكان يقضى أكثر أوقاته بها. وفى أيامه صارت بغداد كعبة الجمال وآية الحسن. ثم حذا من جاء بعده من الخلفاء حذوه فكانوا يأخذون مغارم الحروب من كتب اليونان، وعندما ارتفع شأن الدولة ارتفع معها شأن العلوم والمعارف فى بغداد وبدأ يؤمها العلماء والحكماء على اختلاف طبقاتهم، وينزحون إليها من أقاصى البلدان على بعد المشقة رغبة فى العطايا وأملا فى المنوال. ولم يكن الخلفاء ليغفلوا أمر ذلك بل أجلوا العلماء وعرفوا لهم أقدارهم من الكرامة وأجلوهم أسمى الدرجات وأعلى المراتب. وأسال الرشيد عليهم الذهب النضار وأوسع لهم العطاء،

فتمشى العمران على جانب الدجلة شرقا وغربا بالأبنية البديعة والقصور الأنيقة المحاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزهراء حتى أصبحت الدجلة كالحوض البديع يخترقها بغداد وما يليها من الضواحى والمتنزهات كأنها المرآة الصافية يحف بها اطار شتى النماء والألوان.

نزل علماء الصين والهند على الرحب والسعة فى مدينة السلام وطاب لهم فيها السعى والكد، وإن هى إلا فترة من الزمن حتى امتلأت بأفاضل أهل الأد ب وأعاظم رجال العلم وأكابر أصحاب القول فى الفنون والصناعات من العرب والعجم والترك والكرد والديلم والكرج والروم والأرمن(١). ثم تعددت بها المدارس والجامعات وتنوعت لديها الكتب والمستشفيات وأقيمت بها المراصد والمصانع وغيرها من مؤسسات العمران واشتغل أهلها بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية فبرعوا فى علوم المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات ورسخت ملكات تلك العلوم فالفوا فيها وأصلحوا ما استبانوا خطأه فى مسائلها وأضافوا إليها أبوابًا أصابوا الرأى فيها.

سقيًا تلك الأزمان والعهود التى كان الغرب ينهل فيها من موارد الشرق. ففى بغداد عظم شأن الفلك وفيها تقدم علم الكيمياء. وفى ذلك العهدالزاهر تدرجت الفصاحة والبلاغة وأساليب القول فى الخطب والانشاء إلى أسمى المراتب، فاستنارت العقول ورقت الطباع والمشاعر وتنافس الخلق فى ضروب البهرجة والزينة وأنواع الرفاهة وأصبح الترف والتجمل ودقة الصفة ديدن كل إنسان وشعاره، فسالت أنهر الدنانير وتغالى الناس فى اقتناء المجوهرات وأوانى الزينة من الفضة والذهب بكثرة لا تقع تحت حصر ولا قياس إلى حد أن ضاعت قيمتها الأصلية وكانت العطايا والجوائز من الزمرد والياقوت والفيروز وغيرها من النفائس تنهال على الشعراء والأدباء والحكماء كالسيول الدافقة بلا عدد أو حساب، إذ كان الشاعر أو النديم أو العالم يأخذ ما يتمناه من سامعيه إذا أجاد أو أحكم الشعر فى قولة يقولها أو حكمة يفسرها ولهم فى ذلك

(١) المسعودى.

قصص متواترة تتناقلها الألسن جيلا بعد جيل. وكذلك الغناء كان له شأن يذكر حتى وصل إلى ما وراء الغابة فى تشعب طرفه وكثرة مذاهبه وتفنن الناس فيه استدراراً للرزق وطلبًا للحظوة لدى الأمراء والكبراء، فنبع فيه كثيرون نقل التاريخ إلينا اسماءهم دون ألحانهم ومجهوداتهم التى بقيت للأسف كالألغاز التى لا يتوصل المرء إلى حلها.

فى هذه الأيام السعيدة المبهجة من العصر الثانى للهجرة النبوية ولدت بطلة من بطلات الإسلام زادت نور عصرها إشراقا، وهى زبيدة حفيدة أبى جعفر المنصور، منشئ بغداد.

الفصل الثالث

على مقربة من الموصل قصر جميل بناه المنصور وسماه (قصر الحرب) تم وهبه إلى ابنه جعفر عندما عينه واليًا على الموصل. فى هذا القصر، ولدت زبيدة وفيه مات أبوها جعفر بعد ولادتها بثلاثة أعوام.

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية، فكانت مهبط الحب وموطن العناية والتجلة والإعزاز من قلوب بنى العباس، لا سيما جدها المنصور، ركن الدولة العباسية ومقرها الأشراف وعميدها الأجل، فقد كان يؤثرها بقلبه ويختصها بحب فوق كل حب وهو الذى لقبها بزبيد، لما رأى من بضاضتها نعومتها فغلب عليها هذا اللقب وصارت تسمى به دون اسمها الحقيقى. وقد قام جدها بتربيتها فأحسن أدبها وتربيتها، فعلمها القراءة والكتابة ورواها الشعر وحفظها الأخبار والسير، فشبت كلفة بالشعر(١) والهة بالأدب حتى كانت تزين حوائط غرفتها بالستائر الموشاة بالنظم البديع والأبيات الموثقة.

كانت ذات ملامح جذابة وجمال خاص بنساء عصرها فاشتهر عنها الأدب والكمال والجمال مع علو النسب حتى صار يضرب بها الأمثال فى الأندية العالية والمجامع الراقية، وقد ظهر من إعزازها والمغالاة بشأنها يوم أن زفت على ابن عمها الرشيد، فقد عقد له عليها عا ١٦٥ هجرية وهى فى السابعة عشرة من عمرها وتمت حفلة قرانها بأبهة خارقة للعادة لا يسع له مجال الخيال، فكانت من أبدع الحوادث التى يرويها التاريخ(٢) بإسهاب وإطناب يقصر دونهما كل قول ووصف، وقد نالت تلك

---

(١) ومن شعرها فى رثاء ولدها الامين

أودى بالغيد من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسا
قيت مكتبنا أرعى النجوم له ... أخال سنته بالليل قرطاسا
وزنته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر أساساً
فليس من مات مردوداً لنا أبداً ... حتى يرد علينا قبله ناسا

(٢) قاموس الاعلام

الحادثة استحسان جمهور المسلمين المنتشرين فى أصقاع العالم ووقعت من نفوس كبرائهم وأمرائهم موقع الاستحسان، فتهافتوا على هذه الحفيدة الهاشمية بأنواع الهدايا وضروب المجوهرات وصفوف الطيب وأدوات الزينة استجلابًا لرضاها ورغبة فى حظوتها. ولقد ألقى عليها فى حفلة زفافها من غوالى اللآلئ ما أثقل سيرها وعاق مشيها ولقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقا على البسط الموشية بأسلاك الذهب وهى تتهادى فى الثياب المزخرفة التى بالغوا فى تطريزها وتزيينها بأنواع الجواهر التى يعجز المرء عن تقديرها أو تقويم قيمتها.

كان الزفاف فى قصر الخلد المطل على مناظرالدجلة البديعة. وفى وسط تلك المناظر الخلابة، تمتعا بأشهر الغرام وأوقات السعادة، وما كاد يمضى على زواجها أربعة أعوام حتى ولدت له محمد الأمين ثم بعد ذلك بعام واحد أى سنة ١٧٠ هجرية تقلد الرشيد زمام الخلافة بعد أخيه موسى وهو فى العشرين من عمره.

الفصل الرابع

كانت الأميرة زبيدة وسيمة الوجه، طويلة القد، بضة الجسم، بيضاء اللون، بعينين براقتين وفم صغير(١)، فخورة بأعمالها وحسبها، تعتز كثيراً بانتسابها إلى الدوحة الهاشمية، وفى حالها وطورها ما يشعر بالهيبة الممزوجة بالوقار، وبالعظمةالتى تنحنى لها الرؤوس طوعا لا كرهاً(٢).

لقد كانت على ما وصفنا، لأنها كوكب السحر فى سماء العظائم، ولأنها حفيدة خليفة وزوج خليفة. فكيف لا تباهى ولا تعتز ومن تكون من نساء عصرها أجدر بالفخر والسؤدد؟

أما وفور فضلها ونبل خليقتها وصفاء قريحتها فمما سار مسار الأمثال. ومن أجل هذه المزايا التى قل أن تتوفر فى امرأة أخرى تربعت على عرش عصرها المشعشع وقبضت بيدها على صولجان زمنها الزاهر.

وكان لباسها المعتاد جلباباً شاملا إلى الأرض، وعلى هذا الجلباب وشاح يزينه نطاق مرصع بالجواهر، تشده بين عاتقيها وخصرها. وكانت تتجافى عن التحلى بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة ترفعاً وأنفة ورغبة فى التميز عن عامة الناس. فما كنت ترى فى أصبعها خاتماً ولا فى معصمها سواراً ولا فى جيدها قلادة، وإنما كانت تسيج وحدها فى لباسها وزينتها ولهذه الخصلة المتغلبة على نفسها كانت تزين بتلك اللآلئ النفيسة التى تضن بها على أى قسم من أقسام جسمها أحذيتها ونعالها المرصعة المقصبة بخيوط الذهب. وقد سألها ابنها المحبوب محمد الأمين عن ذلك ذات مر. فأجابته بوقار وشمم:

---

(١) كتاب الفرج بعد الشدة.
(٢) زيدان.

«أفعل ذلك لأننى لا أريد التشبه بغيرى من النساء»(١)

أجل لقد كانت تنفر من التقليد والمحاكاة نفوراً شديداً، وهذا النفور حدا بها إلى إدخال تعديل كبير فى عصابة الرأس التى ابتدعتها العباسة أخت زوجها الرشيد. فما كانت تضع شيئًا من اللآلى والجواهر فى عصابتها كما كانت تضع نساء زمنها، وإنما تضع قطعة من النسيج الأسود الرقيق، بلا ترصيع ولا تطريز، تزيد من هيبتها وتكسبها كثيراً من الروعة والجلال.

تكاد زبيدة تكون المرأة الإسلامية الأولى فى استعمال أوانى الفضة والذهب والإكثار من اقتنائها كما كانت نموذجاً لغيرها فى اقتناء الملابس الحريرية والتأنق فى صناعتها، ويروى التاريخ أن ثوبا من ثيابها بلغت تكاليفه خمسين ألف دينار. وبالغت كذلك فى تزيين نعالها وقباقيبها حتى كانت تجعلها من الفضة والأبنوس وخشب الصندل وتصنع سروجها من القصب وسلوك الذهب أما نسيج ثيابها فمن السمور والأطلس وضروب شتى من الأقمشة وكان يعجبها من الألوان الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق(٢).

تركت بعد زواجها قصر الخلد وانتقلت إلى قصرها الخاص المسمى بدار الفرار على شاطئ الدجلة البديع وكان مقطوع النظير فى زمانه تحيط به حديقة غناء، تجلب الأنظار بزهورها وخمائلها وأشجارها المثمرة الزاهرة. أما داخل القصر فكان لا يقل بهاء عن خارجه، إذ كان مفروشًا بنوق خاص وبأثاث منتخب وغرفه وردهاته مزدانة كل منها بزينة تغاير لما فى الأخرى.

الزينة، والأبهة فى الرياش والأثاث من أحب الأشياء إلى زبيدة. فجلبت إلى قصرها أبدع ما أثمرته العقول وأجمل ما أنضجته الأيدى، فغدت غرفه آية الآيات ومعجزة المعجزات، ومن بين تلك الغرف القاعة الكبرى التى كانت تتلاقى فيها مع ابنها

(١) زيدان.
(٢) المسعودى.

المحبوب محمد الأمين وقد كانت مبنية على الطراز الأرمنى ذات الرياش المجلوبة رأسًا من بلاد الكرخ. ففى أركانها الزرابى والحشايا والأرائك والوشائز، مبثوثة فوق بساط ثمين كبير الحجم من صنع العجم، منقوش عليه صور الطيور وأنواع الوحوش والصيادين من ملوك الفرس حولها، على أهبة الصيد والنقص(١) وفى أطراف البساط أبيات حكيمة وأشعار رائقة تأخذ بمجامع القلب، وقد كانت قبة القاعة من خشب الصندل وتتدلى منها قطع القماش من الحرير والنجود المنمقة ذات الصور والأشكال، مشدودة على الجدران بحيث تغطيها وفى كل زاوية من زوايا القاع شمعدانات من الذهب الخاص توقد فيها شموع العنبر، وقد كانت هذه الشموع المعنبرة من أنواع الزينة التى اختصت بها زبيدة فى ذلك العهد الزاهر وكان ينصب لها وسط القاعة مقعد نفيس الصنع من الأبنوس المطعم بزخارف الذهب وفوقه الحشايا الرقيق من ريش النعام المطرزة بسلوك الذهب(٢).

ومنذ أيام هذه الأميرة العظيمة، المغرمة بأنواع الزينة الكلفة بضروب البهرجة(٣)، اشتهر الشرق بأنه معرض النفائس وطار صيته فى الآفاق. أجل إن أنوار الشرق الساطعة فى تلك الأيام بهرت أعين أهل الغرب. أما اليوم فإننا مع الأسف نأخذ أنماط الزينة ونماذج البهرجة من الغرب فنهنئ أنفسنا إذا ما أجادت إحدانا محاكاة الغرب وتقليد أنماط الزينة المعمول بها عند أهله.

وكان سكان دار الفرار لا يقلون شهرة عن شهرة القصر نفسه لقد كانت جوارى زبيدة من نخبة الجوارى فى عصرها، من ذوات الجمال والمعرفة والقراءة والكتابة وإنشاد الشعر وبينهن مائة جارية اشتهرن بحفظ القرآن وتلاوته ليل نهار. وكانت زبيدة المتمسكة بأهداب الدين، يعجبها كثيرًا سماع أيات القرآن المبين من جواريها الحافظات، وقد اشتهر أمر هؤلاء وطار صيتهن فى الأصقاع. ففى كتب

(١) زيدان. (٢) المسعودى. (٣) زيدان.

التاريخ أن المار بجانب دار القرار يسمع أصوات ترتيلهن كطنين النحل عندما تكون على مقربة من خلاياها.

وكان لها من قلب الرشيد حمى لا يرام إذ لبثت ربة القول فى قلبه وقصره رغم المنافسات من جواريه العديدات، لوفور عقلها ونبل صفاتها ومزاياها التى انفردت بها دون سواها من نسائه، فكان لا يسعى لأمر دون مشورتها ولا يمضى فى عمل دون رأيها، وبالإجمال كان مفتونًا بنفاذ لبها ونبل خليقتها وعظمة قلبها.

كانت زبيدة من ذوات البر والإحسان. وخيراتها كثيرة جمة تجعلها من أمهات المحسنين فى الإسلام، وكما كانت أياديها عظيمة ومبراتها جمة كذلك كانت أموالها وأملاكها وفيرة لا تقع تحت حصر أو قياس، حتى تحدثوا عن مزارعها وضياعها فى بلاد العجم، فضلا عن البلدان العربية. فكما كانت ظاهرة ممتازة فى أكثر شؤونها وأطوارها كذلك كانت فى غناها وثرائها.

انشأت كثيراً من المدارس والمستشفيات وأمرت بتأسيس الملاجئ وحفر الآبار والعيون، فكنت ترى أثرها فى كل مرافق البر التى رفعت من صيتها فى الآفاق.

كانت تكنى (أم جعفر)، ولكن التاريخ يكاد لا يذكر اسم أبيها كثيراً وإنما محور سيرتها يدور مع حوادث الأمين ووقائعه، وفى ذلك ما يملأ الصحائف ونقيض من دونه المجلدات. وابنها المحبوب هذا كان نقطة الضعف فى تلك الحياة العظيمة المملوءة بالحسنات.

كان ذلك الأمير الخليع المارق الذى لا يستحق شرف الولاية قد ملأ قلبها وغمر كل عاطفة من عواصفها. فكان تماديها فى محبته وإيثاره على كل أمر آخر مهما عظم أو صغر هنة لا يغفرها التاريخ.

إن التاريخ ليصب جام غضبه وسخطه على ذلك الحب الوفير الذى خصت به ابنها الأمين، لقد طفا ذلك الحب وجاش فتغلب على كل عاطفة أخرى وتعسف إلى حد

الإضرار بالمصلحة العامة.

كانت تعادى كل من ينظر إلى مساوئ ابنها المحبوب نظرة اللوم، وتغضب من كل إنسان لا يغض الطرف عن هفوات ذلك الطائش. إن حب الأمومة ألقى حجابا كثيفا بينها وبين عاطفة الإنصاف إلى حد الكلل عن كل عيب للامين والعداوة إلى كل انسان ينقل إليها لومًا فى حقه.

كان الذين يفضلون المأمون على الأمين - فى نظرها - مجرمين لا يمكن الصفح عنهم وكان جعفر البرمكى من هؤلاء المجرمين الذين لا يمكن التسامح فى حقهم. لماذا؛ لأنه كان من أجرأ الناس على نشر مساوئ الأمين وإذاعة نقائصه، فأصبح من جراء ذلك هدفًا لسهام غضبها، تكن له الحقد فى سويداء قلبها.

إنما كان كرهها لجعفر وسعيها فى إسقاط منزلته حبًا فى ابنها الأمين، وكان جعفر يرى أن الأمين لا يصلح للولاية فلم يخش من مجابهة أمه بهذه الحقيقة. أغضبها ذلك التصريح فأشهرت عليه منذ ذلك اليوم حربًا عوانًا وقصرت كل همها على إسقاط منزلته من نفس الرشيد فكانت لا تعترف بمزية لجعفر، وترى فيه عدوًا يجب سحقه ومحاربته. وقد نمت هذه العاطفة فى نفسها إلى أن تمكنت منها، وبدأت تتشوق إلى الانتقام منه وإرواء غليانها بنكبته.

لقد نكب البرامكة لأجل الأمين وكانت زبيدة من أهم الأيدى العاملة على حياكة وتدبير تلك النكبة المفجعة، ومن جراء ذلك يحملها التاريخ أكبر تبعة فى هذه الحادثة الأسيفة.

لو أن زبيدة امرأة ذات عقل متوسط وذكاء عادى، لو أنها امرأة مجردة عن صبغة العلم ومزية الإدراك، لالتمسنا لها المعاذير والمبررات فى عاطفة الأمومة التى تغلبت عليها ولكن امرأة كزبيدة ذات عقل وافر، ولب نافذ، وشخصية بارزة، لا يمكن الصفح عن تماديها فى تلك العاطفة إلى حد الإجرام وانتاج تلك المذبحة، التى سودت

صحائف بنى العباس، لأن حادثة العباسة إنما جاءت ضغثًا على ابالة وكانت بمثابة الفطرة الأخيرة للكأس الطافح ومن أجل ذلك كانت تلك المذابح وصمة سودت تلك الصحائف البيضاء من حياة زبيدة.

لو أن الأمين من الأبناء الجديرين بتلك المحبة والشفقة لكان هناك مجال للصفح عنها إلى حد ما، أما وهو خليع مارق معربد جليس الكأس والطاس فليس ثمة سبيل إلى تبرير تماديها فى عاطفة الأمومة.

كيف ضحت زبيدة الكاملة المهذبة برجل كجعفر فى سبيل رجل كابنها الأمين؟

هذا اللغز الغريب من المظاهر الموجعة للأقدار ومن المحال أن يصل المرء إلى حله. ووجه التسلية فى هذه الحادثة هو الاعتقاد بأن يد الأقدار هى التى حكمت على حياة جعفر الطيبة بتلك الخاتمة المفجعة.

الظلم والجور يحركان مشاعر التمرد فى النفس ولكن ماذا عسنا أن نعمل وللانسانية المعلولة حد من الكمال لا تستطيع أن تتعداه. لنسع فى سبيل التكامل ولنبذل قصارى الجهد، ولكننا لا نصل إلى ما نريد مهما أجهدنا أنفسنا لأنه ليس للبشرية أن تصل إلى ذلك.

الفصل الخامس

فى العام السادس والثمانين بعد المائة من الهجرة، حج الرشيد مع امرأته زبيدة(١). وكان فى رفاقته خلق كثير من الأعوان والأمراء، من بينهم ولداه الأمين والمأمون ووزيره جعفر بن يحيى البرمكى.

وقد أظهرت الأميرة أثناء حجها هذا، من المبرات والحسنات مالا يدع لقائل قولا، ولا لمفتخر سبيلا، مما أبتنته فى طريق مكة من مساجد ومكاتب وملاجئ ومنازل ومشارب. فكل ذلك ألسنة تنطق بخيرها العميم أبد الدهر ومدى العمر وما كان ذلك كله إذا قيس بمفخرتها الخالدة (عين زبيدة) شيئا مذكوراً. قد احتملت هذه العين ماء الحياة سائغة، هينة إلى أم القرى، إلى متجه أبصار المسلمين ومعقد آمال الموحدين. وبتلك العين التى احتفرتها فى صحارى الحجاز الجرداء وفرت العناء واحتمال ضروب المشقات عن مئات الألوف من حجاج بيت الله الحرام الذين كانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤددهم ويوقر ظهورهم، فلو فنى ذكرها من جميع الأمصار وتناسى الناس صيتها فى جميع الأقطار فسوف يبقى اسمها خالداً خافق اللواء إلى ما شاء الله فى ذلك الوادى المقدس، مناط وحدة المسلمين.

وقد كلف حفر اثنى عشر كيلومترا من هذه العين الجارية التى يعد مشروعها نفحة من نفحات السماء مليونا وسبعمائة ألف دينار(٢).

ومن غرائب آثارها فى مكة قصر من البللور أنشأته فى نفس مكة المكرمة يعد آية الآيات فى بابه.

هذه الرحلة الحجازية من أهم الوقائع خطراً فى حوادث عام ١٨٦هجرية لأنها كانت مبدأ سقوط جعفر من عز إقباله وأوج سعوده إلى حضيض الإدبار.

(١) الامير على.
(٢) كل التواريخ متفقة فى هذا التقدير.

كان جعفر البرمكى صاحب المكانة السامية فى نفس الرشيد إذ ذاك، وكان لا يفارق مولاه لحظة واحدة أثناء تلك الرحلة، وكان الخليفة يعتمد كثيرا على وزيره الصادق الأمين ولا يبرم أمراً دون استشارته، وكل هذه الحالات كانت زبيدة تنظر إليها نظرة الحقد والاشمئزاز.

كان جعفر يحب المأمون كثيرا إذ كان صبيا محبوبا نشأ فى حجر البرامكة وتأدب بإرشاد من جعفر وتعاليمه فغدا أميراً فاضلا مهذبا نافذ اللب واسع الفهم(١) وكان محبوبا من عامة الشعب لإنصافه بهذه المزايا التى يتصف الأمين بعكسها، فكان أخوه ينفس عليه ذلك أما زبيدة فكانت لا تحتمل هذا التفوق ولا تظهر ما يدل على اغبرارها مع أنها لا تفتأ تبحث عن الوسائل التى تقضى عل هذه الحالة التى تضرم فى نفسها نيران الغيظ والحقد، أجل كانت تجتهد فى إخفاء ما يساورها من عوامل السكين إكراما لزوجها الرشيد، ولكن جعفراً لا يتمالك من إظهار تقديره وإعجابه بربيبه المأمون علنًا أثناء هذه الرحلة، ففاض إناء حقدها الكامن فى نفسها وبدأت تفكر فى الوسائل إلى القضاء على جعفر. كان الرشيد وهو فى مكة المكرمة قد كتب وصيته وبايع للأمين بولاية العهد والمأمون بعده وكتب الكتب بذلك وأشهد فيها الشهود وأرسل نسخها فى الأمصار وعلقت نسخة من تلك النسخ على الكعبة توكيدا لها، وقبل تعليقها جمع من فى معيته من العلماء والفضلاء والوزراء. وعقد منهم مجلسا كبيراً للشورى وأحضر فيه زبيدة والأمين والمأمون وجعفر، وقرأ عليهم وصيته تأكيدا لها، وعندما حلف الأمين والمأمون يمين الطاعة أمام أبيهما، قال جعفر للأمين عقب يمينه قل معى: (إذا خنت الأمانة فليقهرنى الله) فكررها الأمين ثلاث مرات وكانت زبيدة تنظر إلى جعفر بعين الحقد وتحدجه بنظرات ملؤها الغيظ والغضب(٢).

هذه المعاملة المعنوية التى استعملها جعفر مع الأمين، جرأة كبيرة، تدعو إلى غضب زبيدة وحقدها ولكن جعفراً، ذلك الوزير الأمين كان يفكر فى سلامة المملكة

(١) الامير على.
(٢) الفخرى.

ويضع نصب عينيه المصلحة العامة فلم ير بدًا من المضى مع وحى الوجدان وإلهام الضمير. لم يخش من قولة الحق ولم يلتمس سبيلا إلى إنقاذ حياته من الاستهداف لغضب رقيب عتيد كزبيدة...

تملك الغضب زبيدة وارتعشت من الحدة أمام ذلك المنظر وقررت منذ ذلك الوقت أن تقضى على جعفر، ولقد تمكنت من أن تبر بقسمها الذى أقسمته أمام هيكل نفسها بعد مرور عام واحد على تلك الحادثة ففى عام ١٨٧للهجرة قتل جعفر بن يحيى ذلك الوزير الفذ، على يد مسرور الجلاد(١) وذهب ضحية عاطفة الأمومة التى جاشت فى نفس زبيدة، وفريسة غرور الأمين واعتسافه.

فتش عن المرأة فى كل حادثة: قتل جعفر فتعين الفضل ربيب نعمتها ومحبوب ولدها بدله وقد كان لها أكبر يد فى هذا التعيين، بعد ذلك بستة أعوام مات الرشيد بطوس(٢) ودفن فيه وملك بعده ابنه الأمين عام ١٩٣هجرية.

---

(١) زيدان (٢) الامير على.

الفصل السادس

لما مات الرشيد بطوس، كان المأمون فى مدينة (مرو) واليًا على خرسان، وكان الأمين ببغداد وزبيدة بالرقة، فانتشر نعى الخليفة بسرعة البرق وسعى صالح بن هارون إلى الأمين بخاتم الخلافة وسيف أبيه وكسوته الخاصة، مبايعًا له حسب التقاليد والعادات(١) وكان الأمين قد انتقل من قصر الخلد إلى دار الخلافة. ولما كان من الغد صلى مع الشعب فى المسجد جماعة، وأعقب صلاته بخطبة وجهها إلى الخلق والجند والوزراء فبايعوه بالخلافة عند انتهاء خطبته حسب العادة الجارية، وكان المأمون فى خراسان فلم يتمكن من مبايعته بشخصه، وإنما اكتفى بإرسال الهدايا وتقديم التهانى التى تقوم مقام البيعة.

أما زبيدة فقد طاب لها المقام فى الرقة ولم تشأ أن تحضر إلى بغداد، ولكن ابنها الخليفة ألح عليها بالحضور والتمس منها ذلك بكل وسيلة، فلم تر بدا من الإجابة إلى دعوة ولدها المحبوب، فتوجهت إلى العاصمة فى شهر شعبان المعظم، وقام ابنها حتى مدينة الانبار يستقبلها، باحتفال مهيب، احتشد فيه خلق كثير، وكانت الأعلام المتماوجة والزينات المختلفة وابتهاج الشعب ونشاطه العظيم باقى على مدينة الانبار ثيابا من الروعة ضافيًا وجلبابا من الجلال شاملا.

لقد كان لوصول زبيدة أثر من العظمة الخالدة التى لا يمكن نسيانها، ولتلك المواكب الفخمة وروعة دائمة الذكر فى صحائف التاريخ. بمثل هذا الاحتشام تقدم موكب الأمين ومن ورائه الوزراء والأمراء والأعيان ثم صنوف الخلق لملاقاة زبيدة القادمة إلى عاصمة الملك وقصر الخلافة.

هنا أخذ الخيال بيدى إلى منظر آخر فى صفحات التاريخ، إلى صورة بارزة للجلال والاحتشام، إلى موكب اجتماع ملكة سبأ، بسيدنا سليمان عليه السلام ودخولها

(١) الامير على.

فلسطين تحف بها آيات الاحتشام ومظاهر الجلال والكمال.

بين هذين الموكبين مشابهة ومحاكاة، فياالله من بهجتها وإشراقهما!.. وأى جمال للغرب يضاهى جمال هذا الإشراق الذى يستمد بهجته من ألوان الشرق؟..

وصل موكب زبيدة بين الهتاف المتواصل وأصوات التهليل ومظاهر التبجيل والتقدير إلى بغداد. ووقف أمام قصر الخلافة بإلحاح الأمين ورجائه المتواصل وهنا ألقت عصاها واستقر بها النوى.

كان المأمون أثناء ذلك فى خراسان لا يستطيع تركها لما كانت عليه من الفتن والدسائس، فكانت الأحوال تحتم عليه البقاء فى خراسان وتأخير الشخوص إلى بغداد.

كان الرشيد على علم تام بأخلاق ولديه الأمين والمأمون وبصفات ومزايا كل واحد منهما، وقد كان تعيين الأمين لولاية العهد مراعاة لخاطر زبيدة، أما المأمون فقد كان يقدره حق قدره لشخصيته الفذة ومزاياه النادرة، ولهذا السبب وجه إليه ولاية خراسان، فأظهر حسن السيرة والورع حتى استمال القواد وأهل البلاد وكان فاضلا أديبًا يميل إلى إتقان العلوم والفنون، ذا إطلاع واسع وأهلية تامة فى تفسير القرآن وفى الحديث الشريف(١).

وقد كانت له ملكة عظيمة ودراية كبيرة فى مسائل الفقه والتشريع حتى فاق أمره زمانه وأصبح بينهم علمًا يعتد برأيه وفضله.

كان الرشيد ثاقب الفكر بعيد النظر فتوقع ما قد يفعله الأمين من التهوس وسوء القصد بأخيه، فأوصى قبل موته بجميع ما فى المعسكر للمأمون، وكان الفضل بن الربيع، ربيب نعمة الأمين، خليفة جعفر بن يحيى على منصب الوزارة بغير جدارة، يعلم مقدار هذا المعسكر وما دق وجل من شئونه رجاله وأحواله.

---

(١) الامير على

وعندما انتقل الرشيد إلى جوار ربه، وولى ابنه الأمين شئون الخلافة من بعده، زرع الفضل بذور الفساد والتمرد بين أفراد الجيش، ثم روج بينهم الدعوة إلى نكث أيمانهم ومواثيقهم للرشيد بأن يكونوا فى إمرة المأمون، حتى مالوا معه وقفل بهم إلى بغداد، ومعهم جميع ما فى المعكسر من مال وذخيرة، وعندما وصل وزير الأمين وربيب نعمته إلى عاصمة الخلافة قابله الخليفة بالحفاوة والإكرام وأغرقه بالصلات والهبات، ثم وزع على الجنود الخائنة ضعفى مرتباتهم تلطيفًا لخواطرهم.

أما المأمون فقد وجد نفسه بلا جيش ولا مال، فعمل على استمالة قلوب الشعب واكتساب رضى الناس وجمع رؤساء خراسان وأكابرها حوله وبدأ يدبر شئونه بمعونتهم وخفض الضرائب وسار فى الرعية سيرة العدالة والمروءه، ولم يجابه مع ذلك أخاه بالعدوان أو يقابله بالاساءة إنما كان فى أحواله وأطواره أميراً عادلا يصدرعن روية ويورد عن إنصاف وتدبر.

وبينما كان المأمون فى خراسان على هذا النحو من التدبر والتعقل وحسن السيرة، يجمع حوله أمراء أبيه المحنكين وشيوخ الدولة المدربين، ليستعين بثاقب أفكارهم وناضج آرائهم، كان الأمين ببغداد منهمكا فى اللذات وشرب الخمر، حتى أرسل إلى جميع البلاد فى طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق، واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقسم الأموال والجواهر فى خواصه وفى الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات فى دجلة على صورة الأسد وعلى صورة الفيل وعلى صورة العقاب وعلى صورة الحية وعلى صورة الفرس(١) يتنقل من واحدة إلى أخرى، عاكفًا على تمضية الوقت بين الغناء والمنادمة، وقد كان لراقصاته صيت ذائع وكن مائة قد

---

(١) وفى قول أبو نواس:

سخر الله للامين مطـــايا ... لم تسخر لصاحب المحـــراب
فإذا ما ركابه ســـــرن براً ... سار فى الماء ركباً ليث غــاب
عجب الناس إذ رأوك عليـــه ... كيف لو ابصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحـين ... تشق العباب بعد العـــباب

انتخبهن من أمصار مختلفة، تجيد الواحدة منهن ضروبا من الرقص وفنونًا من الحركات التى تدهش الأبصار، وقد صرف عليهن مبالغ جسيمة إذ كن فى أبهى لباس وأثمن حلية يبهرن النواظر وهن يرقصن بأغصان النخل فى أيديهن، وكلما اشتد إعجاب الناظرين ازداد غروره وتمادى فى غيه والاعتداد بما صنفه من مظاهر العز والترف. فى تلك الفترة الرهيبة كان أعداء الإسلام يراقبون الأحوال بعين اليقظة، منتظرين الفرصة السانحة التى تبدو لهم من خلال غفلته وانهماكه فى اللذات وقد انفرجت لهم ثلمة الفرصة فى خلال هذه الفترة وبدأوا يرفعون ألوية العصيان ويتحركون بعد السكون والجمود والأمين لاه ساه كأنه فى نوم عميق يبدد أموال الدولة فى سبيل لذاته وشهواته بدل أن ينظر فى شئون حكومته، ويعمل على سد حاجاتها المادية والمعنوية.

أما الفضل بن الربيع، وزيره الأمين فقد خاف العواقب وكان كلما افتكر فيما فعله مع المأمون من نكث عهد الرشيد ووصيته بطوس، ارتعدت فرائصه فرقًا، وقد وضع نصب عينيه أن ولاية المأمون للخلافة إن عاجلا أو آجلا معناها موته والقضاء عليه لأن المأمون لا يترك له هذه الخيانة دون عقاب صارم، فلم يطق احتمالا لهذه الفكرة التى كانت تقلق خاطره ليل نهار وتنفى النوم من عينه، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى، فلم يوافقه أولا ورأى الفضل أن آماله كادت تخيب فألح عليه فى هذا الرأى وأشرك معه شريك النفاق والرياء، على بن عيسى، فروجا هذه الفكرة وحسناها للأمين وما زالا به حتى مال إلى أقوالهما وشرع فى خداع المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم ينخدع وأدرك ما فى ذلك من الخطر والبوار إن هو ترك خراسان، فكتب يعتذر وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما، ونهض الفضل بن سهل بأمر المأمون واستمال له الناس، وضبط له الثغور والأمور، واشتدت العداوة بين الأخوين الأمين والمأمون، وقطعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان، وفتشت الكتب وصعب الأمر، وقطع الأمين خطبة المأمون ببغداد وقبض على وكلائه، ثم خلعه وولى بدله ابنه موسى وليًا للعهد بلقب (الناطق بالحق) وأحضر كذلك وصية أبيه من

مكة المكرمة ومزقها إربًا.

على هذا المنوال نما الشر بين الاثنين وقضى على مشروع الرشيد، ولم يبق من آثاره سوى ما كان له من حسن النية.

لقد حنث الأمين بيمين قطعه على نفسه ونكث عهداً عاهد به أباه ولم يعبأ بتلك الوصية التى تحرمت بتعليقها على جدران بيت الله الحرم.

لم يندم الأمين على ما فعل، ولم يخجل عندما ارتكب تلك الفعلة الشنيعة فلا بدع ولا عجب لأنه شب منذ الصغر، صغير النفس وضيع الهمة لا يقدر لشرف الوعود والإيمان قدراً.

لذلك رأينا المأمون يستعد، وكان بقدر ما عنده من التيقظ والتبصر والضبط؛ بقدر ما عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفلة، وقد بلغ من تفريطه أنه أرسل إلى حرب أخيه رجلا من أصحاب أبيه يقال له على بن عيسى بن ماهان فى خمسين ألفًا ويقال أنه مارئى قبل ذلك ببغداد عسكر أكثف منه، وكان معه السلاح الكثير والأموال الوفيرة وخرج معه الأمين مشيعا مودعا، وكان أول بعث بعثه إلى أخيه، فمضى على بن عيسى بن ماهان فى ذلك المعسكر الكثيف وكان شيخًا من شيوخ الدولة، فالتقى بطاهر بن الحسين قائد عساكر المأمون بظاهر مدينة (الرى) وكان عسكر طاهر حدود أربعة آلاف فارس فاقتتلوا قتالا شديداً، فكانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى وجئ برأسه إلى طاهر.

وأرسل طاهر إلى المأمون يبشره بذلك الفوز وأرسل البشرى مع رجلا من رجال البريد، فوصلت إلى المأمون فى ثلاثة أيام وبينهم مسيرة مائتين وخمسين فرسخا.

ومن الغريب أن الطاهر فى كتابه الذى بشر به بذلك الظفر أوجز غاية الإيجاز مع الإلمام بالموضوع من جميع وجوهه وهذه نسخته:

(أما بعد فهذا كتابى إلى أميرالمؤمنين أطال الله بقاءه ورأس على بن عيسى بين

يدى، وكان خاتمه فى يدى وجنده تحت أمرى والسلام.

وقديمًا فعل ذلك (جول سيزار) عندما تغلب على قبائل الغول ودخل مدين (لوتاس)، وهى المدينة الأثرية التى بنيت على أطلالها باريس، فقد كتب إلى مجلس الأعيان بروما ثلاث كلمات فيهن كل وصف وإطناب وهى: (جئت فرأيت فقضيت).

لقد اغتاظ الفضل من انتصار المأمون وأطلق لغضبه العنان إلى حد مصادرة أمواله وعقاره وحجز ولديه الصغيرين ببغداد، ولقد هم أن يقتلهما لولا ممانقة الأمين، ثم توالت البعوث من جانب الأمين بعد هزيمته المنكرة، وكانت الغلبة للمأمون فى كل مرة وفى سنة ثمان وتسعين ومائة هجم طاهر بن الحسين على بغداد بعد قتال شديد وحاصرها عدة أشهر وأخذ الأمين أمه وأولاده إلى عنده بمدينة المنصور، وتحصن بها ولقد أشاروا عليه بالفرار إلى الشام فلم يفعل ارتكانًا على مروءة أخيه وشهامته إن هو سلم نفسه إليه، وبادر فى مذكرات الصلح وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه وحصره طاهر هناك وأخذ عليه الأبواب والمنافذ ولما أشرف على أخذه طلب الأمين الأمان من (هرثمة) وأن يطلع إليه فروجع فى الطلوع إلى طاهر فأبى ذلك، فلما كانت ليلةالأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، خرج الأمين بعد العشاء الآخرة وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة يقول، إنى غير مستعد لحفظك وأخشى أن أغلب عنك فاقم إلى الليلة القابلة، فأبى الأمين إلا الخروج تلك الليلة، ثم جاء راكبًا إلى الشط فوجد حراقة هرثمة، فصعد إليها فاحتضنه هرثمة وضمه إليه، ثم شد أصحاب طاهر من الإعجام على حراقة هرثمة حتى أغرقوها فسبح الأمين وهرثمة حتى وصلا إلى الساحل بكل جهد ومشقة والتجنا إلى بيت صغير. وكان هرثمة قد غطى الأمين بطيلسانه حفظًا له عن الأعين وعمل ما فى وسعه لنجاته، ولكن كيف يستطيع ذلك بمفرده وأنى له أن يثبت أمام مشيئة الأقدار أن (لكل أجل كتاب)...؟ فقد وصل الإعجام إلى الأمين فى مكمنه وهجموا عليه بسيوفهم المصلتة حتى قتلوه؛ ولقد غضب المأمون من جراء ذلك على القتلة، وأمر بجمعهم ومجازاتهم لما ارتكبوه وأجرى النفقات على الموجودين فى قصر أخيه وألحق ولدىّ الأمين زبيدة لتربيتهما وهكذا عمل ما فى

الإمكان لتلافى ما حدث بغير رضاه وبلا أمر منه.

قتل الأمين، ولد زبيدة المحبوب فى الثامنة والعشرين من حياته وكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكسر.

لقد أقسم الأمين أمام أبيه بحفظ وصيته وعاهد ربه ثلاثا أمام جمع حافل أن يكون مستحقًا لغضب المولى عز وجل وقهره إذا هو خان الأمانة، ثم نكث بالعهد وحنث بالقسم ولم يعبأ بشرف الوعد أفلا يكون فى ذلك دليل على الغباوة والجهل وقلة التدبر؟.

الفصل السابع

اضمحل نفوذ زبيدة وتلاشى شأنها بعد خلافة المأمون، ولم يبق لعظمتها مجال ومتسع. ولقد اضطرت أن تعيش فى دائرة محدودة تحت ظلال السكون والاستكانة والنسيان على غير ما تعودت وبخلاف ما نشأت عليه، لأن طاهر بن الحسين، قائد المأمون، ذلك الذى تغلب على ابنها الأمين وقهر جيوشه وكسر شوكته لم ينس ما لحق المأمون من الإهانة وما ناله من الأذى وما تجشمه من المشقة فى سبيل الأمين فاضطهد زبيدة وعمل على تعذيبها وأذاقها ألوان التحقير والاهانات. ولقد صبرت زبيدة على الأذى وتحملت كل ذلك بصبر وثبات جأش وإنها لجديرة بالتقدير لثباتها هذا. لأن زبيدة العظيمة (امرأة الرشيد) تلك التى عاشت مكرمة معززة مرفهة طوال حياتها دون أن يصيبها مكروه أو يعكر صفو حياتها أذى أو تسمع أو ترى ما يشعر بهوانها ومذلتها لم تذق طعم الهوان قبل ذلك اليوم.

لم يرض طاهر أن يسمح لنفسه بالنسيان عن أحوال زبيدة وحركاتها التى بدرت منها أيام ابنها الأمين. فحكم عليها، على امرأة الرشيد الأصيلة النجيبة بأن تعيش فى ضيق وشدة، إنه الانتقام ليس من الشرف فى شىء بل هو ضرب من ضروب النذالة. ولقد تألمت زبيدة من تلك المعاملة ولم تدر ما تفعله ازاءها لأن يد الأقدار التى ضربتها بتلك الضربة القاسية جعلتها فى حيرة من أمرها لا تهتدى إلى سواء السبيل، ولأنها ما كان يخطر على بالها أن تظل كذلك متروكة منسية فى بغداد وعندما فاض إناء صبرها ضاق ذرعها تجلدت فأمسكت القلم بيمينها وسطرت تستعطف المأمون وتقول:

«كل ذنب يا أميرالمؤمنين وإن عظم صغير فى جانب عفوك، وكل اساءة وإن جلت يسيرة لدى حلمك، وذلك الذى عودكه الله، أطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير ودفع عنك الشر والضير وبعد فهذه رقعة الولهى، التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر، وفى الممات جميل الذكر، فإن رأيت، أن ترحم ضعفى واستكانتى وقلة حيلتى، وتصل

رحمى وتحتسب فيما جعلم الله له طالبا وفيه راغبًا، فافعل وتذكر من لو كان حيا لكان شفيعى لديك» ثم أضافت إلى ذلك أقوالا شرحت فيها معاملة طاهر واضطهاده لها وقالت: «فإن كان ما يفعله صادراً عن رضاك رضيت بنصيبى من الأقدار، وإن كان يعتسف بغير رأيك فإنك قادر على تغيير الحال».

وقد أرسلت الرقعة مع جارية لها تدعى خالصة وأوصتها أن تسلمها إلى المأمون يداً بيد.

وما كاد المأمون يقرأها حتى بكى وقال لمن حوله قول على عليه السلام عندما وصل إليه خبر استشهاد عثمان رضى الله عنه: «والله ما كان ذلك برأيى ولا علمى» ثم أجاب زبيدة بكتاب لطيف ورد إليها أموالها وضياعها وعمل على رفع قدرها وإصلاح شأنها ليمحو من نفسها أثر الأحزان التى انتابتها. كما وبخ طاهراً على ما فعله.

بعد ذلك ترى زبيدة فى عيش رضى ونعمة تامة. تستعيد بهجتها السابقة وعظمتها السالفة، وتعمل على نسيان الإساءة التى لحقتها على يد طاهر بن الحسين. تحت ظلال وارفة من نعم المأمون وإحساناته المتوالية.

الفصل الثامن

بعد انتهاء الحادثة بتلك الخاتمة الحسنة، يظهر اسم زبيدة مرة ثانية فى صفحات التاريخ، يسطع بإشراقه السابق وروائه السالف وقد ظل هذا الطابع مظهراً لحياتها الباقية الممتدة حتى عام ٢١٠ من الهجرة.

وكما أن الجماعات التى تمر أوقاتها فى سعادة ورفاهة، قل أن توجد فى سلسلة وقوعاتها حادثة مكدرة أو واقعة تحرك كوامن الألم، كذلك الأفراد الذين تتوالى سلسلة أيامهم بالسرور والصفاء لا يجد الرائى خلالها من الحوادث المؤلمة والوقائع المكدرة ما نسجلها عليهم. وهكذا الحال مع زبيدة: ظلت هنيئة مغتبطة بعيشها بعد خلاصها من شر طاهر بن الحسين وأذاه، فقد تعاقبت عليها الأيام بصفاء غير ممزوج بأكدار الحياة وهذه حالة طبيعية فى حياة امرأة عظيمة تعيش فى كنف خليفة عالى الهمة، رقيق الحس، جميل الشيم كالمأمون.

من الحوادث التاريخية البارزة فى تلك الفترة من حياة زبيدة، عقد قران المأمون على بوران بنت وزيره الحسن بن سهل، فقد كانت زبيدة من أكابر الرؤس التى حضرت تلك الوليمة وظهرت فيها بمظاهر الأبهة والجلال ولم تكتف بهدية الجهاز التى قدمتها للعروسين مما كلفها ٣٥مليون من الدراهم، وإنما تبرعت كذلك لبوران بإحدى ضياعها الكبيرة فى ولاية (البلخ).

لقد كانت وليمة الزفاف فى مدينة (مرو) فى شهر رمضان المبارك من العام العاشر بعد المائتين بعد المائتين للهجرة وانتهت بأبهة فخمة لا مثيل لها فى حوادث التاريخ، حتى لقد قيل أن أيام العرس دامت سبعة عشر يوما تجلى فيها الشرق واستفحاله فى الأبهة والفخامة مما لا يقع تحت وصف أو حصر، ولقد كانت كبريات السيدات من نساء بغداد وغيرها من عواصم الإسلام وأمصاره يختلن فى الحفلة

بالثياب الفخمة والحلى الثمينة التى يأخذ بريقها بالأبصار، ومن لنا بتصوير حالة زبيدة ونفسيتها فى ذلك الموقف، وهى تشاهد تلك الحفلة. لقد تذكرت بلا ريب، بشىء من اللوعة والمرارة المعنوية حفل زفافها فى قصر الخلد منذ خمس وأربعين سنة مضت، ومن يدرى إلى أى حد ذهبت بها ذكريات تلك الأيام الذهبية الماضية لقد كانت إذ ذاك واحدة بغداد فى الحسن والجمال وقرة عين جدها المنصور عميد آل بنى العباس، ولقد خيل إليها وهى فى تلك الحال من الرفاهة وما يحيط بها من أنواع الحفاوة والدلال أن الحال سيدوم معها على ذلك المنوال وأن حسن الطالع سيلازمها طول الوقت ومدى العمر.

لقد كانت صبية حسناء فى السابعة عشر من عمرها، ولقد كانت محبوبة معززة من عريسها الرشيد الذى يبسم له حسن المستقبل فكان اليوم يومها. ومن البديهى أنه لم يكن فى تلك الحفلة امرأة أشد ذهابا مع الذكريات وأكثر استعراضا للحوادث منها تلك الحوادث التى تمر فى المخيلة تباعًا كما تمر الوقائع فى شريط السينما...

أما عروس اليوم فهى بوران محبوبة المأمون أكبر رأس تنحنى له الرؤس. والشعراء الذين تهافتوا على وصف جمالها وتدبيج القصائد فى ذكر كمالها، يتهافتون اليوم على وصف بوران وقدح زناد الفكر فى ترصيع آيات التمجيد والاعظام لها.

لقد كان اليوم يوم بوران فزبيدة فى تلك الحفلة تمثال الماضى وبوران صورة الحاضر، وجود هاتين المرأتين معًا جنبًا إلى جنب فى الحفلة لوحة بديعة ذات معان سامية تصور منظرًا من أغرب مناظر الحياة!..

كان المأمون يحب بوران إلى درجة بعيدة المدى فأراد أن يظهر لها حبه متجليًا فى إعزازها وتكريمها بتلك الحفلة، فتم له ما أراد وظهرت حفلة زفافها عظيمة بليغة بقدر حبه العظيم.

لقد كانت حفلة مشرقة باهرة، سطعت فيها القلائد على النحور، والأقراط فى

الآذان والحلى على المعاصم ببهاء ورواء ولكن شخصية بوران كانت أكثر إشراقا من أى شىء آخر وجمالها الساطع فاق روعة تلك المجوهرات والنفائس: ولقد قيل إنه عندما أخذ المأمون بيدها إلى الغرفة المخصصة لها نثرت جدة العروس قطعًا من اللآلئ الكبيرة من على صينية من الذهب فوق رأسيهما، وقد جمعت فيها بعد فصارت عقدًا بديعًا زينوا به جيد بوران الناصع، وقد قيل كذلك أن جدتها أوقدت فى غرفتها شمعة عنبر تزن أربعين منًا، وكتب الحسن بن سهل أسماء ضياعه فى رقاع ونثرها على القواد، فمن وقعت له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها هذا خلاف الذهب والجوهر الذى نثره على عامة الناس فى ذلك اليوم مما بلغت تكليفه خمسين مليونًا من الدراهم، ولقد هال ذلك المأمون وأراد أن يعرض على وزيره ما أتلفه فى سبيل إعظامه فوهبه إيراد سنة واحدة من دخل إحدى ضياعه الخاصة.

على هذا النسق البديع من الفخامة والعظمة انتهت حفلة زفاف بوران وبهذه الصورة البديعة بدأت حياة الزوجين السعيدين، وبعد هذه الحادثة بست سنوات ارتحلت زبيدة إلى دار البقاء فى التاسعة والستين من عمرها.

هذه الفاضلة الممتازة من بنات بنى العباس، من أجل نساء الإسلام ذكرًا، وحياتها التى دامت تسعة ستين عامًا، صفحة ممتازة من صفحات التاريخ الإسلامى.

كانت ذات شخصية بارزة، وصفات سامية ونفس جذابة، ولقد سار ذكر جمالها مثال الأمثال فى بغداد، وتغنى الناس بذكائها وفطنتها فى سائر الأمصار أما حديث غناها فما أدهش أهل التوحيد، وذكر خيراتها مما وقع موقع القبول والشكر فى قلوب جميع المسلمين.

لقد أتت من عظائم الخيرات مما لا يدخل تحت حصر أو قياس، فأصبح اسمها مرادفًا لمعانى البر والمعونة والإحسان فهى لهذا السبب من الأميرات الجليلات اللواتى يفتخر الإسلام بهن على الدوام.

لقد أحبها الخلق لجمالها ولصفاتها المعنوية ولعرفانها وسمو أدبها، ولكن شهرتها الخالدة جاءتها من طريق خيراتها العديدة وببركة الدعوات الصالحة الصادرة من القلوب المكلومة التى عملت على تخفيف ويلاتها. ظل اسمها خالدا عظيما وسوف يظل كذلك تلهج به الألسنة بالمحمدة والتمجيد إلى ما شاء الله.

أما أثرها فى عصرها فظاهر جلى، فقد كانت قطب رحى الظرف والمبتدعة لأنواع كثيرة من ضروب الزينة حتى لقد يمكن وضعها فى صفوف كبار أهل الفن العاملين على إحيائه وإنمائه فى ذلك العهد.

فى سيرتها شىء من الزلل وجانب من الخطأ، ولكن لو وضعت حسناتها إلى جانب تلك الهفوات لرجحت كفة خيراتها رجحانًا كبيرًا. وأى امرئ من أبناء البشر مبرأ من العيب، معصوم من الخطأ؟...

فزبيدة هذه من ملكات الشرق ذات الأثر الباهر، ومن مخدرات الإسلام التى كانت عونا على رفع كلمة الشرق. فإذا ما ذكر اسمها وجب أن يذكر مقرونا برفاهة الشرق وفخامته، وما كان له من علو شأن وارتفاع فى العصر الثانى للهجرة.

ولهذا الاسم أثر كبير فى الإعجاز فإن له سحرًا خاصًا يجذبنا إليه ويجبرنا على الانحناء بإعظام أمام شخصيته لنقول من صميم أفئدتنا «لقد كانت امرأة عظيمة».

بهذا الخشوع والإعظام فحسب تطوى سجل هذه الحياة الصالحة.

- ٩ -

الأميرة صبيحة
ملكة قرطبة

الفصل الأول

عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله، ثامن ملوك بنى أمية فى الأندلس، ناصية معروفة فى التاريخ الإسلامى وعلم من أعلام الأندلس، ما كاد يجلس على عرش الخلافة حتى بذل ما فى وسعه لترقية المملكة وإعلاء شأنها، إلى أن وصلت أعلى درجات الرقى وفاقت ممالك أوروبا مدنية وحضارة فى المدة التى تقلد أثناءها الحكم وتقدر بنصف قرن.

عاش هذا الخليفة المقتدر وله أمل واحد، سعى لإدراكه وتحقيقه طول الحياة. ذلك الأمل هو مجد الأندلس وعظمتها، وقد كانت همته أكبر من أن تكل، فواصل ليله نهاره مجداً، مجتهدا، حتى صير قرطبة جنة فيحاء، تتخللها القصور الشاهقة والمساجد الكبيرة والمدارس العالية والمستشفيات العديدة ودور الكتب الحاوية لأنفس الآثار والمآثر. أراد ترقية العلم فى ربوع بلاده، فأحضر لها العلماء والحكماء من سائر ممالك العالم(١) ورغب كذلك فى زينتها وبهرجتها، فلم يألّ جهده فى تخطيط الشوارع وغرس الأشجار وحفر الترع والجداول الموصلة للأنهار، وإن هى إلا عشية وضحاها حتى كانت قرطبة تنافس بغداد فى أبهة الحضارة وأسباب الرفاهة والعمران، وأصبحت موضع إعجاب كل من يقصدها من الزوار بحسن نظامها وبديع ترتيبها. واجتمعت كلمتهم على أنها عروس المدائن ومعدن الظرف ومنبع أنواع الكمالات(٢) وإن التاريخ لن ينسى أياديه البيضاء على العلوم والفنون وترويجه الزراعة والتجارة فى تلك البلاد الجميلة التى أضاءت نفوس أهلها من رجال ونساء بأنوار العلم والعرفان(٣) حتى أصبحت ترفل فى تلك الحلل الجميلة، حلل المدنية فى وقت كانت فيه أوروبا غارقة فى ظلمات الجهل، تتلمس لنفسها سبيل النور والضياء.

(١) الامير على (٢) دوزى. (٣) روزفيت.

وجه همته إلى تنظيم الجيش وبناء الأساطيل(١) وبذا أصبح صاحب الكلمة العليا فى مياه البحر الأبيض. ولم يكتف بما كان يحرزه فى ميادين الحرب والقتال بل تطلع أيضا إلى التغلب فى ميادين السياسة، فما لبث أن ظل فيها قصب السبق وعقدت له بها ألوية الظفر والفخار.

أكبر المسلمون من كافة أنحاء العالم ما كانوا يرونه فيه من إمارات الذكاء ودلائل العدل مع ما كان عليه من حسن التدبير ووفرة الجاه وقوة السلطان وعزة الملك، فعظمت منزلة قرطبة فى أعينهم وأصبحت بمثابة القلب النابض لأجزاء الممالك الإسلامية الأخرى المنتشرة من أقصى المعمورة لأقصاها.

كان عصر نهضة وزمان تجدد وانتباه وكان للعلوم والفنون وقتئذ تجارة نافقة وللأندلس من هذه النهضة نصيب وافر، حيث كانت مطمحا لأنظار الشعراء والعلماء وقبلة أهل الأدب وغيرهم من الوجوه ورجال الفضل من كل صوب وحدب(٢).

قال عبدالرحمن الناصر يخاطب ابنه الحكم: «كلما طال عهدى قصر زمانك يا بنى» وقد طال حقيقة عهد عبدالرحمن وكان ذلك لمجد الإسلام وعظمته لأنه من أحسن الأزمنة التى عادت على الأمة الإسلامية بالخير العميم، بل أقول بأنه كان بلا مراء العصرالذهبى للإسلام المتوج تاريخه بأكليل المجد والفخار.

حسبك حسنة من حسنات عبدالرحمن جامع قرطبة الشهير والمعروف ببيت الزهراء(٢) ذلك القصر المشيد على مقربة من قرطبة فى أجمل بقعة من بقاع الأندلس.

لقد عجز المؤرخون عن وصف هذا القصر، وأوقع قلوب زائريه من أهل الفن فى الدهشة والإعجاب، لأنه كان أجل من أن يوصف وأبدع من أن يصور. كان مملوءاً بضروب الصناعة وصنوف البهرجة وأنواع الزينة من الداخل والخارج بحيث لا تقع العين إلا على آية من آيان الفن أو منظر من المناظر الرائعة الجديرة بالإجلال والتقدير.

(١) دوزى.
(٢) تاريخ الاندلس لضيا باشا.

كان ما يراه الإنسان خارج القصر لا يقاس بما تقع العين داخله، فقد كان لكل زخرفة من زخارفها حالة جذابة خاصة بها. وبالإجمال فهو من تلك القصور التى لا نسمع عن نظائره إلا فى أقاصيص الجان وأساطير الأولين.

كانت الحديقة المحيطة بالقصر من أجمل البساتين البالغة غاية الكمال فى التنسيق والترتيب، تزينها أبسطة زمردية خضراء وأشجار باسقة شامخة بأنفها فى الفضاء وأحواض رخامية تحيط بها صنوف شتى من الورد والأزاهير.

وقد كان فى القصر مائتان وألف عمود من أفخر الرخام وقاعة استقباله مزينة بالذهب مطرزة باللؤلؤ والأبواب من خشب الأرز، منقوشة نقشا يحير الألباب والعمد غاية فى الإتقان والإحكام كأنها أفرغت فى قوالب. وكان بها برك عظيمة يجرى منها الماء الصافى إلى أبدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصورها.

قال (المقرى) يصف أحد مجالس هذا القصر:

«سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافى لونه، المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك، وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أهداها (لاون) ملك القسطنطينية إلى الناصر، وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة وفى وسطه صهريج مملوء بالزئبق. وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون ذى البللور الصافى وكانت الشمس تدخل تلك الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار»(١).

كل زينات هذاالقصر كانت بديعة مونقة وكل النقوش التى تزينه دقيقة ومحكمة أما الحوائط فقد كانت لوحات فنية نفيسة والأعمدة شفافة رقيقة ذات قوام جاذب

(١) نفح الطيب للمقرى.

وجماع هذه النفائس كان ينبعث منها نور وجلال يتضاءل أمامها أبهة قصر الخالدين الذى بناه الرشيد فى بغداد.

قصر الزهراء تاج أعمال عبدالرحمن الناصر، شيده لتخليد اسم زوجته المحبوبة فزاد بذلك من شأن قرطبة وأهميتها، وكان سببًا فى لفت أنظار العلماء والأدباء إليه واكتسابه محبة الشعب ونواله حمد أهل المشرق واستحسان أهل الغرب هذا إلى تخليد اسمه فى طيات التاريخ بطريقة لا يمكن محوها إلى أبد الآبدين.

ولقد توفى سنة ثلثمائة وخمسين هجرية وهو فى الثانية والسبعين من عمره بعد أن سلخ خمسين حجة فى حكم بلاده.

كانت قرطبة عند وفاته تحتوى على ١٣٠ ألف مسكنا وثلاثة آلاف جامعا وخمسين مستشفى وثمانمائة مدرسة وتسعمائة حماما وستمائة خانا، بينما كانت المكتبة الملوكية تضم بين جدرانها كتبا يتراوح عددها بين ٤٥٠ألف و٧٠٠ألف مجلد(١) إلا أنه ترك ما هو أبلغ من ذلك وأعظم شأنا، فقد ترك بين أوراقه الخصوصية جملة حكمية ضربت بها الأمثال وسارت بذكرها الركبان، هى قوله: «أحصيت أيام حياتى التى عشتها فى صفو وهناء لا تظللها سحب الأكدار فإذا هى أربعة عشر يوما فقط».

ملك عظيم دانت له الرقاب وتوفرت له أسباب العز والجاه عاش مبجلا، معززا، ترمقه العيون بالمهابة وتحفه الأنظار بالإجلال ولم يتمتع من أيام حياته الطويلة إلا بجزء صغير - أربعة عشر يوما فقط!.. فما أبلغ هذه الحكمة السامية التى تتضاءل أمامها جلائل المعانى.

(١) المقرى.

الفصل الثانى

مات عبدالرحمن وبموته طوى بساط ذلك الزمن الزاهر وفتح للأندلس أبواب عهد جديد هى: أيام الحكم المستنصر بالله.

كان الحكم قبل تقلده منصب الخلافة عالما وقورا محبوبا من الشعب، وفى مصاف أكابر الأمراء فى عهده(١)، ذا دراية بتدبير الملك وفنون السياسة، خاض غمار الحرب بنفسه واشترك فى إدارة دفة الإحكام على عهد أبيه، ولذلك قابل أهل الأندلس خبر توليته وهو فى الثامنة والأربعين من عمره بمظاهر الارتياح والسرور، إذ كان خير خلف لخير سلف.

كان رحمه الله من حماة العلوم وأنصار الفنون، يعتبر الكتاب من أحسن الندماء ويجد له الاعتكاف فى مكتبته الحاوية لنفائس الآثار الساعات الطوال يقطع أوقات فراغه من العمل بالدرس والمطالعة، وكان للشعر الموسيقى فى نفسه منزلة لا تقل عن منزلة الكتب. وبالإجمال كان موسيقى الطبع، مغرما بكل أمر معنوى نفيس، تخلبه نغمة العود والناى ويستهوى لبه الصوت الموسيقى الرنان. سمع ذات يوم وهو يروض النفس فى حدائق بيت الزهراء تلك الحدائق الوارفة الظلال المزينة بالورد والأزهار، صوتًا جميلا نفذ إلى أعماق قلبه وملك كل جارحة من جوارح نفسه، فبحث عن مصدره وعلم أنه صوت فتاة جذابة الملامح جمال صورتها يضارع حسن صوتها(٢) تلك الفتاة هى: صبيحة التى ملكت على الخليفة حواسه وجعلته يتطرف معها إلى حد الجنون فى الحب، هاجرًا مكتبته ناسيًا كل شىء فى العالم حتى كتبه وقد كانت أحب الأشياء لديه.

كثيرًا ما يصادف الإنسان فى حياته وجوها جميلة تترك جاذبيتها أثرًا فى النفس لا يمكن نسيانه إلى الأبد، وصبيحة كانت إحدى هذه الخوارق، ذات جمال

---

(١) المسعودى
(٢) المسعودى

ساحر ونفس جذابة وروح حلوة ذات لطافة ورقة فتنت الخليفة بخفة روحها وجميل صوتها فغدا أسير اللحاظ مكبلا بقيود الهوى.

كانت الفتاة على شىء من الأدب، أدب العلم والنفس وكانت تسامر الخليفة بأحاديثها الحلوة وفكاهاتها العذبة فلا يطيق مفارقتها طول يومه، أما الليالى فكانا يقضيانها فى حدائق الزهراء الخيالية تحت ظلال أشجارها العطرة جنبًا لجنب، وهى تسكب فى نفسه كؤوسا من صوتها الرخيم لتزيده سكرًا وهيامًا.

كان لصبيحة جسم شفاف ذات طراوة تحاكى نداوة الفجر ولذا كان الخليفة يدعوها على الدوام باسم (صبح) فهل أراد بهذا النداء المصغر المحبوب، ذكرى تلك السهرات المسكرة والأوقات اللذيذة، أم أنه أراد بذلك أن يعيد إلى ذاكرته أحلام الفجر المشوبة بحمرة الشفق، لا أدرى... وإنما يخيل لى أنه إذا ذكر اسم صبيحة لأى انسان تمثلت له صورة متوردة وتجسمت فى مخيلته مناظر تلك الحدائق العطرة، حدائق الزهراء فتحيا فى ذهنه صورة الأندلس بخواطرها العذبة وذكرياتها اللذيذة بكل ما فيها من لطف وظرف.

أراد الله أن يتم نعمته على صبيحة فرزقت من الخليفة غلاما كان موضع سروره وفرحه، كأنما ملك به الدنيا بأسرها، ومبعثًا لسعادة الوالدة حيث كانت هذه الحادثة سببًا فى عقد نكاح الخليفة عليها، وقد اشترك الشعب فى أفراح الخليفة وعد هذا العام، عام ٣٥٢ من الهجرة النبوية، أحسن الأعوام فى تاريخ الأندلس فتهافت الشعراء على مدح المولود وتخليد ذكراه وهرع الكبار والأعيان لتهنئة مليكهم والقيام بفروض التبريك، حتى أن وزير الحكم خاطب الخليفة بقوله: «إن هذا المولود الشريف، سليل ملوك بنى أمية ليسطع علينا بنوره منذ الآن فلماذا لا تشرق علينا كذلك الأميرة صبيحة التى منها هذه الشمس المنيرة؟»(١) ومنذ ذلك اليوم توطد مركز صبيحة وعرف أهل القصر قدرها فأحلوها المقام اللائق بها.

---

(١) دوزى.

وبعد عامين أى فى سنة ثلثمائة وأربعة وخمسين هجرية ابتسم لها الدهر مرة ثانية فولدت للخليفة غلامًا آخر سمى هشام، فعظمت منزلتها فى نفس الحكم وازداد حبه لها إلى حد بعيد المدى لأن مولوده الجديد ضمن له حصر الملك فى أولاده وذراريه.

كان الحكم يعد نفسه إذ ذاك أسعد مخلوقات الأرض. له زوجة محبوبة هى: صبيحة، وله من زينة الحياة الدنيا كل ما تصبو إليه النفوس: مال وبنون. فلم يبق شىء بعد ذلك يرغب فيه، فكان يخصص مقدارًا من وقته لإدارة أمور المملكة والجزء الأكبر من أوقاته كان مصروفًا إلى مشغوليته المحبوبة لنفسه، وهى المطالعة واقتناء نفائس الكتب. وبذلك أخذت مكتبته تزداد قدرًا(١).

كان الخليفة عبدالرحمن ملكا جليل القدر وحاكما مقطوع القرين. أما ابنه الحكم فكان عالما يجل العلم ويحترم أهل الفضل ولا يحجم فى سبيل نصرة العلم والأدب عن نضحية أمور دولته فانتهزت صبيحة هذه الفرصة وأخذت تشارك زوجها فى إدارة الحكومة ولم يمض على ذلك زمن كبير حتى كانت تشغل مركزًا ساميا فى ميدانى السياسة والإدارة وتمكنت من إظهار ذكائها الفطرى وقدرتها على ممارسة الأحكام بشكل أدهش رجال الدولة. وكان الحكم من أولئك الذين يقدرون الأشياء قدرها ويقيمون للأمور أوزانها ففطن إلى مزايا زوجته فى مسائل الحكم والإدارة، فأشركها فى الحكم علنا ووسع المجال لدائرة نفوذها وتأثيرها.

كانت صبيحة فى أول أمرها صاحبة السلطان المطلق على عقل الخليفة وقلبه ثم أصبحت بعد ذلك بفطنتها وذكائها تملك روحه، وما زالت تتدرج فى مراتب الكمال حتى صارت الملكة النافذة الكلمة فى كل بلاد الأندلس.

---

(١) ابن خلدون

الفصل الثالث

أخذ عهد الحكم يمر براحة وسكون تظلله رايات الأمن والسلام لأن أمراء الفرنجة ناوأوه فى مبدأ حكمه، كانوا قد تعبوا من كثرة ما لقوه من الهزائم المنكرة والاندحارات المتوالية فلم يروا بدًا من إعادة السيف إلى نصابه والإخلاد إلى السكينة والمسالمة. وقد كان لهذه الحالة أثر بين فى توطيد أسباب الراحة فى أطراف البلاد الإسلامية، مما جعل المسلمين من أهل الأندلس يرتعون فى بحبوحة الأمن داعيين لخليفتهم بالعز والإقبال. أما الخليفة نفسه فقد انكب على مكتبته يرتبها ويزيد فى نفائسها، حتى بلغت قائمة ما فيها من الكتب ثمانية وأربعين مجلداً. قنع بهذه الحالة ولذ له أن يغوص فى لجج من العلوم لا حد لها، ناسيًا كل شأن من شئون الحياة اللهم إلا مقابلة جماعات العلماء الوافدين إليه من سائر أطراف الممالك الإسلامية لا سيما من بغداد ودمشق والقاهرة، فازدادت بذلك شهرة قرطبة وأخذت جامعاتها تنافس الأزهر والمدرسة النظامية فى أهميتهما العلمية.

يقولون أن العلم ليس له جنس ولا يمت إلى وطن أو دين بآصرة قرابة أو نسب. ولذا كان الخليفة يشجع كل عالم ويأخذ بيده من أى جنس كان، لا فرق لديه بين مسلم أو نصرانى، وكثيراً ما جادت يده بالعطايا والهبات لكتاب قيم أو مجلد نفيس، أما الكتب النادرة التى لا يرى سبيلا إلى مشتراها فكان يأمر بنسخها وأخذ صورها، وبهذه الوسيلة أصبحت مكتبة قرطبة شعلة نور يستضئ العالم بأنوارها.

فى أيامه وصلت الآداب العربية إلى ذروة عزها وسامق مجدها كما نضجت علوم كالفلسفة والبلاغة والشعر، وكما تعددت الطرائق وسبل التحسين فى علمى الجغرافيا والتاريخ وفنى الرصد والكيمياء. أما دروس الفقه والتشريع فكانا يدرسان بشرح وتطويل ويهرع الطلبة إلى ورود مناهلها باشتياق كبير من كل حدب وصوب، فقد كان عدد الطلبة الذين أموا حلقات دروس الفقه فى ذلك المعهد يتجاوز عدة آلاف. أجل

إن جامع قرطبة هو مهبط النور والهدى. فيه كان يعظ أبو بكر بن معاوية يملأ قلوب الموحدين بأنوار الدين الإسلامى، بينما كان ابن رشد وابن سينا والسعودى وأحمد بن سعيد الحمدانى وغيرهم من أقطاب الحكمة وأولياء الحجى يزينون عهد الحكم ومن وليه من الخلفاء بثمار قرائحهم وأنوار معارفهم.

فى هذا العهد الزاهر، الساطع بأشعة الحكمة، كنت ترى طالبًا منكبًا على دروس الجامعة بكليته، يميل إليه الطلبة وتخدمه الأساتذة. كان هذا الطالب شابًا ذكى الفؤاد جميل الصورة، إذا صادف وجوده وسط جماعة من الناس أصبح هدفًا لأنظارهم. وإذا مر على قوم جذب إليه التفاتهم. كنت ترى فى عينيه بريقًا من صور الآمال وفى حاله وطوره وكلامه حالة خاصة به. كانت تظهر عليه إمارات عظمة تترك الناظر إليه فى دهشة وحيرة. فكل من رأى هذا الشاب يحكم لأول وهلة وبدون أن يعرف أصله بأنه أحد أولئك الذين سيرتفع شأنهم فى بلاد الأندلس ويحرزون مقامًا ساميًا فى مناصبها العالية.

هذا الشاب هو محمد بن أبى عامر، فخر الإسلام والشرق الذى أصبح بعد حين وزير الأندلس الملقب بالمنصور.

الفصل الرابع

محمد بن عبدالله بن أبى عامر يمنى المولد، ينتسب إلى قبيلة بنى معاذ الشهيرة(١) وأسلافه من مشاهير الأبطال ذوى الذكر العاطر فى تاريخ الفتح الأندلسى.

كان شابًا نشطًا ذكى الفؤاد، جميل الصورة. تلوح عليه إمارات العزم والإقدام(٢) ويرى المتفرس فى أسارير وجهه رجلا لا يعرف لليأس معنى، لا يعزم على أمر حتى يمضى فيه غير هياب ولا وجل. أتم دروس الجامعة ثم احترف بعدها مهنة الكتابة واتخذ لنفسه حانوتًا صغيراً أمام القصر السلطانى لكتابة العرائض وتنميق المظالم وتحبير الشكاوى، وقد كان له بين نفوس خدمة القصر المترددين عليه مكانة رفيعة واشتهر بينهم ونبه ذكره عندهم حتى كنت ترى حانوته على صغر حجمه غاصاً بهم. إلا أن نفسه كانت تطمح إلى ما فوق ذلك، كان يفتش عن سعادته فى ركن واحد من أركان الأمل، جعله نصب عينيه ليله ونهاره، فقد كان يسعى جهده إلى الالتحاق بإحدى الوظائف فى القصر.

جلس ذات يوم فى حانوته يحادث أصدقاءه ومعارفه كالمعتاد، فإذا به وقد غاص فى لجج من الأفكار وطار محلقًا فى سماء الآمال ثم انتبه فجأة لنفسه بعد حين وخاطبهم قائلا:

«ساكون يوما ما حاكم هذه الدولة، فليسرد لى كل منكم آماله وأمانيه والوظائف التى يصبو إليها منذ الآن فإننى محقق مطالبكم عند نوال بغيتى إن شاء الله». فتضاحك رفقاؤه وأخذوا يذكرون له - على سبيل المازحة - الوظائف التى تطمح إليها أبصارهم.

---

(١) دوزى. (٢) تاريخ مسلمى الاندلس لدوزى.

بعد هذه الحادثة بزمن قصير طلب ابن أبى عامر إلى قصر الخليفة كأنما الأقدار أرادت مداعبته، وكان الحكم راغبًا فى انتخاب كاتب بارع لزوجته صبيحة فطلبوا بضعة أشخاص ممن توسموا فيهم القدرة على هذا العمل ليكونوا على أهبة الاستعداد لمقابلة الخليفة لهذا الغرض وبينهم ابن أبى عامر، الصديق المعروف من خدم القصر وحاشيته.

ولقد كانت أجوبته بين يدى الخليفة من أحكم الأجوبة وأدلها على الفهم والروية، فنال قصب السبق وفاز على المتقدمين معه إلى تلك الوظيفة بدرجة فائقة لفتت إليها أنظار الأميرة نفسها. فقد كانت له حالة خاصة به تجذب أنظار المتطلع إليه لأول وهلة(١) ومع ذلك فالخليفة التبس عليه الأمر وتردد مبدئيًا فى قبول شاب جميل كهذا لتلك الخدمة وفى النهاية لم ير بدًا من أن يكل أمر الاختيار إلى الأميرة نفسها صاحبة الشأن، فوقع اختيارها عليه لأنها لم تجد بين المتقدمين أليق منه للوظيفة المطلوبة. وانتهى الأمر بموافقة الخليفة على تعيين ابن ابى عامر رئيسًا لكتاب الأميرة.

ألا تعترف معى أيها القارئ بأن كاتب الأميرة هذا سعيد الحظ موفق الطالع، فها قد نال أول أمنية من أمانيه العذبة التى طالما قضى الساعات الطوال مفكرًا بها تحت ظلال حدائق قرطبة بسهولة ما كان يحلم بها...

قد خدمه حظه ورقى أولى الدرجات المؤدية إلى ذلك القصر البديع، قصر الآمال والتصورات، فكان يرى بعين الخيال أنه سيدخل ذات يوم ذلك القصر ويمتع أنظاره بزينته وبديع رياشه وجميل أثاثه بل أن الأمل كان يذهب به إلى أبعد من ذلك، فقد كان يرى أنه سيفتخر بأبهته وسلطانه ويكون صاحب الكلمة بين سكانه.

كان يحلم بمثل هذه الآمال وكلما لج به الفكر ازداد سروره واشتدت بهجته.

وبينما كان الخليفة الحكم المنتصر بالله منعكفا فى مكتبته النادرة، كانت الأميرة

(١) دوزى

صبيحة تدير دفة الأمور بمعونة حاجب الدولة عثمان بن جعفر المصحفى(١) وكان كاتبها الخاص محمد ابن أبى عامر يحرر أوامرها، ويقوم بتبليغها إلى مختلف الجهات.

كان الحكم خليفة البلاد اسميًا أما السلطان الفعلى فكان بيد صبيحة، فزينة الأندلس ورفاهيتها والنظر فى شئون الشعب واحتياجاته وتعليم أولياء العهد وتثقيف أذهانهم وتربية مداركهم كل هذه أمور كانت تقوم بها الأميرة.

وهى التى كان من رأيها جعل قرطبة محطًا لرحال أهل العلم ورجال الفضل والأدب، وهى التى كانت تقوم بترتيب الحفلات المتعددة داخل القصر وتدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد خارجًا. وهى التى كانت تعقد الجلسة تلو الجلسة بالاشتراك مع المصحفى وابن أبى عامر للمذاكرة والمداولة والمشاورة فى أحوال البلاد وتدبير الخطط اللازمة لمكافحة شر الأعداء والتنكيل بهم.

كانت لسان بيت الزهراء الناطق وحياة قرطبة الزاهرة وروح الأندلس النابض، فانتشرت أنوار ذكائها فى كل صوب وناحية وقد اشتهرت بين الجميع بالكياسة وإصابة الرأى حتى لم يبق إنسان لم يعجب بحسن إدارتها وقيامها بالشئون العامة(٢)

كانت الأميرة صبيحة معجبة بمقدرة ابن أبى عامر، لا تدرى كيف تكافئ كاتبًا نشيطًا مثله!! أما هو فكان يلازمها بخفة روحه وطلاقة لسانه، ويظهر لها الرغبة فى استخدامه ليس فى الأمور الكتابية فحسب بل فى كل شأن من شئونها، وكان إخلاصه فى العمل مما يزيدها إعجابًا به إلى حد بعيد(٣) المدى.

اكتسب أبو عامر ثقة الجميع واستأنس به الكل حتى أصبح شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه، وفى الحقيقة كانت أهميته تزداد من يوم لآخر حتى بدأ الناس يتوددون إليه. وقد كان يتزلف إلى أصغرهم شأنا من قبل، وما كاد حاجب الخليفة جعفر

---

(١) لان بول.
(٢) كتاب مشاهير النساء.
(٣) ابن الزهارى.

المصحفى يستشيره ويعتمد عليه فى بعض أموره حتى ازدادت منزلته رفعة بين أهل القصر الذين بدأوا يعقدون عليه الآمال، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن الخليفة نفسه لم يتمالك من الإعجاب به وقد رأى إخلاصه فى العمل وأدرك مواهبه ومزاياه.

فى هذه الفترة، وقد ابتسم له الدهر، عهدت إليه الأميرة إدارة ضياعها وممتلكاتها، فأصبح مديراً بعد أن كان كاتباً، وبعد مضى زمن قصير احتاج الخليفة إلى شخص أمين يعهد إليه إدارة الضياع الخاصة بولى العهد، ولما كان متردداً فى انتخاب الشخص اللائق لهذه الوظيفة عرضت عليه الأميرة تعيين ابن أبى عامر لهذا الغرض. تردد الخليفة بادئ ذى بدء لأنه صاحب الرأى الأول فى قبول أو رفض المرشح لهذه الوظيفة، حيث ما زال له نصيب فى حكم البلاد. ومع ذلك فقد كان يعلم قبل أى انسان أن الرجل الذى يعهد إليه أملاك ابنه يجب أن تتوفر فيه مزايا جمة، وأن كل هذه المزايا مجموعة فى شخص ابن أبى عامر وإلا فهل هناك امرؤ أقدر منه على العمل وأشد منه إخلاصاً؟(١).

فكان لزاما على الخليفة أن يقبله بلا تردد، ولذا انتهى الأمر بنزوله عند رأى الأميرة، وأصدر الأمر بتعيينه مديراً عاما على تلك الأملاك والضياع، ففى عام ٣٥٦ من الهجرة اجتمعت لابن أبى عامر ثلاث وظائف بمعونة الأميرة وحمايتها جعلته يطأ الدرجة الثانية من عرش آماله وأمانيه وهو فى السادسة والعشرين من عمره.

كان ابن أبى عامر سعيد الحظ فخوراً بوظائفه الثلاثة يصرف فى سبيل القيام بأعبائها كل ما لديه من وقت وجهد، كان أفق المستقبل يبدو لناظره منيراً مشرقا وأحلامه زاهية زاهرة، فاطمأن ولم يقلق من المستقبل. أما كان يشعر بأن الحظ سيواليه بنعم أكثر ما دام ينسج على هذا المنوال، وإلا فمن ينكر رقيه السريع فى زمن قصير. ألم يتقلد سلطة واسعة لا تخطر على البال وهو فى مثل هذا السن، فى عامه

(١) دوزى.

السادس والعشرين؟ وهل لم يكتسب ثقة المصحفى وصداقته؟ ألم يكن أهل القصر بما فيهم الأميرات يعجبون بظرفه ورقة شمائله؟ وفوق هذا ألم تكن الأميرة نفسها تظهر له ضعفًا وميلا شديدين، وتبذل ما فى وسعها لرعايته وحمايته، أجل كانت تفعل كل ذلك لدرجة اضطرته إلى طرق أبواب الحيل ولبس ثياب المداهنة لأنه كان مضطرًا فى حالته تلك إلى ملاطفة أهل القصر ومراضاتهم جميعًا، فكان يبسم لهذا ويلاطف ذاك ويعطف على تلك مراعاة للجميع حرصًا على إبقاء الظواهر على حالتها. وهذه حالة أكسبته رضى الجميع وجعلته محبوبا منهم يتقبلون هداياه بسرور وابتهاج، وكان الخليفة يقول لأحد مقربيه: «إن كاتب صبيحة هذا رجل غريب الأطوار، قد استمال إليه جميع من فى القصر وإننى لأرى بعينى رأسى كيف يجلون هداياه التافهة ويفضلونها على أثمن هدية تقدم منى إليهم. فلست أدرى هل أعده من المخلصين إلينا أم اعتبره ساحرًا محتالا» ومع ذلك فإن أبا عامر استمر يتقدم حتى أصبح بمساعى الأميرة ناظرًا لخزينة الدولة ثم عين بعدها المدير المطلق لإدارة (صك النقود)، وبذلك أصبح فى مصاف كبار الموظفين فى الأندلس. وكانت الأميرة تباركه فى سرها وتهتم برقيه السريع، وكم كانت شاكرة لمحاسن الصدف التى وضعت فى طريقها مثل هذا الكاتب الحائز لمزايا عديدة، فلشد ما انتفعت بمواهبه وكثر ما اهتم هو بكل شأن من شؤونها. فهو إليها الشخص الوحيد الذى لا يمكن الاستغناء عنه أو الركون إلى غيره. إنه ليعلم آداب المعاشرة أكثر من المتربين بين جدران القصور، ظريف لبق. تطربه النغمة الحلوة، نو إلمام بالموسيقى، قادر على مزاولة أى عمل يكلف به. أضف إلى ذلك علمه بحالة الأميرة الروحية وإدراكه للأشياء التى تبهجها وتقع من نفسها موقع الرضى والقبول، فلله دره من شخص رقيق الحس عالى الفكر!!

كل هذه الصفات كانت الأميرة تفكر فيها وتراجع نفسها عما إذا كانت متغالية فى تقديرها. كلا كلا إن أبا عامر ليستحق منها هذا التقدير... هنا يتساءل القارئ هل كان ذلك مجرد تقدير فحسب أم أنها تميل إليه دون أن تعترف حتى لنفسها بهذا الميل؟

جوابًا على ذلك نقول أنها كانت تحبه(١) لدرجة أنها أصبحت تجد لذة سائغة فى إعطاء الأوامر إليه وتكليفه بكتابة التحريرات المهمة وغير المهمة إلى غير ذلك من الأسباب والمعاذر المؤدية إلى مقابلته والاحتكاك به.... ولكن هل كان هو يشعر نحوها بمثل هذا الميل؟ ألم تكن فى ريعان شبابها وعز جمالها ذات صوت رخيم وملاحة جاذبة؟ أليست هى الأميرة صبيحة ملكة قرطبة المحبوبة؟ فهل يمكن ألا تحب. نعم إن أبا عامر كان يطيعها لدرجة العبادة لا لجمالها أو لمحاسن نفسها بل لوجاهتها ونفوذها. وكانت هى لا تميز فيه هذه الحالة لأنها أحبته من أعماق نفسها حبا ناريا تغلب على ما لديها من إرادة وعقلية. كانت تحبه محبة غير محدودة، كحب شجرة الدر لعز الدين بن أيبك. كلتاهما، صبيحة وشجرة الدر وقعتا بين براثن محبة قاسية، قوضت أركان شخصيتهما الممتازة وتركتهما تعانيان مرائر السلوى وآلام الهجران. كلتاهما بذلتا ما فى وسعيهما لإرضاء حبيبيهما إلى حد أن أسقط ما لهما من كرامة وهوى بهما من سماء الرفعة والعز إلى حضيض الذل ليمتزجا بالشخصين العزيزين لديهما فكل رغبة لهما أو كل أمل كان مقيداً بهواهما كلتاهما كانتا شمسًا تتألق فى سماء دولتها – تحيط بها نجوم وسيارات ثم انعكست الآية بعد أن تجرعتا كأس الحب، فتبدل الحال بغير الحال وانحطتا إلى دركة السيارات بعد أن كانتا فى دائرة الشموس والأقمار. وارتفع تبعًا لذلك شأن حبيبيهما، محمد بن أبى عامر وعز الدين بن أيبك حتى أصبح كل منهما الشمس الساطعة فى دولته. أجل استفاد كل منهما من حالة حبيبته الروحية وجعلها ساعداً لأغراضه ومرامية، وتم لهما ما أرادا بخاتمة مؤلة تكتنفها الدموع وتحيط بها الآلام.

تولى أبو عامر منصبه الجديد، وأظهر امتنانه وشكره لأميرته وولية نعمته بهدية ذات قيمة سارت بذكرها الركبان كانت هديته نموذجًا صغيراً لإحدى قصور الأندلس الجميلة مصنوعًا من الفضة ومنقوشًا بغاية الدقة والإحكام، وقد كان يوم نقلها من بيته

(١) لان بول.

إلى القصر الملكى يومًا مشهودًا اجتمعت فيه آلاف الجماهير لمشاهدة هذه التحفة اليتيمة(١) وقد سرت الأميرة من هذه الهدية الثمينة التى كلفت أبا عامر مبالغ طائلة، وكان لها أثر بليغ فى نفسها. من ذلك الحين بدأ يقدم لها الهدية تلو الهدية مراعيًا فى ذلك أن تكون هديته الثانية أثمن وأرفع قدرًا من الأولى. كل هذه أمور زادت سرور الأميرة وضاعفت من شكرها وامتنانها له إلا أن تكرار هذه الهدايا على وجه من الإسراف لا يطابق حالة أبى عامر، فك ألسنة الجمهور من عقال السكون، وأخذوا يتساطون ويتهامسون فى المجامع عن مصدر تلك الأموال الباهظة التى أنفقت فى سبيل مجاملة الأميرة، فكانوا يقولون فى أنفسهم: إن هى إلا من مال الأمة ومتوفرات بيت المال وإلا فمن أين له كل هذه الأموال؟ وقد اتسعت دائرة تلك الإشاعات وتماوجت حتى اتصلت بمسامع الخليفة نفسه، فأرسل يطلب أبا عامر إلى بيت الزهراء.

أرسل الخليفة بطلب أبى عامر إلى بيت الزهراء لتقديم الحساب عن أموال الحكومة المودعة تحت تصرفه.

هذه صدمة لم تكن فى الحسبان ارتعدت لها فرائص أبى عامر لأن الخزائن كان بها عجز ظاهر لا يعوضه إلا مال وفير. ففكر فى الأمر وقدح زناد الفكر، فلم يجد أمامه سوى الالتجاء إلى صديقه العزيز ابن خضير وقد التجأ إليه وطلب منه يد المعونة، فكان عند حسن ظنه به لأن ابن خضير أعانه على أمره وأقرضه المال الناقص، وبذا أتم أبو عامر شؤونه وأكمل حسابه ويمم نحو بيت الزهراء آمنا مطمئنا وهناك أمام مولاه قدم حسابا دقيقا برهن به على أمانته وأظهر إخلاصه وقطع ألسنة المخرصين والعداة كانت دفاتره مرتبة منسقة وخزائن الدولة ملأى بالأموال ودار الضرب تتوهج بسبائك الذهب والفضة، فخجل الخليفة من نفسه ولم يسعه إلا تقديم عبارات الشكر والإعجاب بناظر ماليته القدير ودفعًا للشبهة وسوء الظن عهد إليه بوظيفة جديدة هى وظيفة التفتيش العام.

(١) دوزى.

وفى اليوم الثانى لهذه الحادثة أعاد أبو عامر ما اقترضه إلى صديقه الحميم وكان عمله هذا معجزة ألجمت ألسنة أعدائه - وأوقعتهم فى مهاوى الدهشة والحيرة. إن حسن الطالع ما زال يناصره ويشد أزره وينجده أكثر من ذى قبل، فها هو قد أظهر إخلاصه لخليفته، وخرج من تهمته نقى اليد عالى الرأس وازدادت مكانته فى نفس الأميرة وعلت كلمته فى طول البلاد وعرضها حتى أصبح وأوسع رجال الدولة نفوذاً وأعلاهم كلمة.

إن انتصاره على أعدائه بتلك الكيفية زاد من محاباة الأميرة له، فتمكنت من تقريبه إلى الخليفة أكثر من ذى قبل، وأخذت تنشر محاسنه بين الناس جهاراً ولا ترى بأسًا من المضى معه فى تيار الهوى، فصار ما بينهما حديث القوم فى سمرهم ومجالس أنسهم ولهوهم(١) حتى أصبح يخشى من وصول ذلك إلى مسامع الخليفة، ولذلك ارتأى المصحفى بعد موافقة الأميرة أن يذهب أبو عامر إلى أشبيلية(٢) كحاكم مطلق فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين هجرية، وبعد أن أقام بها مدة عبر إلى مراكش عن طريق جبل طارق.

فرح أعداؤه بهذا الإبعاد واختلقوا عليه أكاذيب شتى كادت أن تمحو ماله من شهرة وبعد صيت، إلا أن صبيحة كانت ترمقه بعين رعايتها، وتظلله بجناح حمايتها وهو بعيد عنها، فقد كانت تذيع سراً أن الخليفة أرسله لمراكش لمراقبة دفاتر بيت المال وكشف أحوال القائد الأكبر غالب. كان المصحفى يحقد على غالب ولذا اغتبط بمهمة أبى عامر لعلمه بأن هذا الأمر يضايقه ويحرج مركزه إلا أن غالبا كان قائداً جسوراً مقتدراً وما كان يجتمع بأبى عامر حتى تفاهما وتآلفا وقد ذكره أبو عامر بخير وأثنى عليه فى حضرة الخليفة وبين ماله من المآثر فى قمع الثورات وتسكين الاضطرابات فى ربوع مراكش مما سبب رجوعه مكرمًا محترمًا إلى قرطبة رغم اعتراض المصحفى

---

(١) الاطهارى

(١) المقرى

وإصراره فى ذلك.

ظهرت لأبى عامر فى هذه الرحلة خدمات جليلة دلت على إخلاصه لأمته وحببته من نفوس مواطنيه الذين عرفوا له فضل هذه الخدمات والمساعى، وقد ظل يراسل الأميرة طول غيابه فى مراكش ويخلد ذكراه فى نفسها بالهدايا النفيسة(١) والذكريات المعنوية الجميلة مما جعلها تظن فى أنها تشغل مكانا ساميًا من مخيلته، فلم تطق صبرًا على بعاده، وكان أهل القصر يواصلون سعيهم ويكررون أمنيتهم فى عودة محبوبهم الظريف. وحدث إذ ذاك أن ولى عهد السلطنة توفى وخلفه هشام فى ولاية العهد واحتاج الأمر إلى من يدير حركة ضياعه وتدبير شئون أمواله، فأشارت الأميرة باستدعاء أبى عامر لإلقاء إدارتها إلى عهدته وفى سنة ثلاثمائة وتسع وخمسين هجرية عاد أبو عامر إلى قرطبة بعد أن لهجت الألسنة بأفول شمسه وسقوط شأنه ودخلها ظافرًا شامخ الرأس، حيث عهد إليه بإدارة ضياع ولى العهد وبتولى إدارة الشرطة والدرك.

---

(١) بوزى.

الفصل الخامس

فى العام الخامس والستين بعد الثلاثمائة مرض الخليفة الحكم، واشتدت عليه وطأة المرض حتى لزم فراشه، ولما أيقن من نفسه أنه فى مرض الموت، وأنه أصبح من المنية على قاب قوسين أو أدنى اضطرب باله وازداد قلقه لأمر واحد: هو أمر ابنه هشام البالغ من العمر إذ ذاك إحدى عشر عاما، وكانت العادة المتبعة إلى عهده فى أمر الخلافة هو انتقالها بالإرث من الأرشد إلى الأرشد غير أن الحكم كان لا يطيق أن يرى أخاه المغيرة متقلداً زمامها يوما ما. أضف إلى ذلك أن كاهنًا تنبأ له بأن الخلافة قد يتزلزل ركنها فى بنى أمية وتتقوض دعائمها إن لم يتقلدها أولاد من صلبه، وهذه النبوءة جعلته يعتقد بأنه من أكبر الواجبات عليه نحو أمته إقناعها بقبول خلافة ابنه هشام من بعده.

وأخذت زوجته صبيحة تناصره فى هذا الأمر وعضدته فيما ذهب إليه من وجوب حصر الملك فى ذريته من بعده، فإن فكرة تنحية هشام عن منصب الخلافة هيجت عواطفها وأثارت ما فى نفسها من كوامن الذكاء والفطنة، فقدحت زناد الفكر أملا فى الوصول إلى حل مرضى، وكانت كلما أمعنت فى البحث هالها الأمر وأضناها لهيب الفكر. كانت تقول فى نفسها: كيف تكون النتيجة إذا لم يرض الشعب بخلافة هشام وكيف تكون العاقبة إذا ثارت ثائرة الأندلسيين ألا ينتهز أمراء الفرنجة هذه الفرصة لسوق جيوشهم على قرطبة، وكيف تكون حالتها هى إذا لم يصبح ابنها الخليفة؟ ألا تكون فى هذه الحالة كمية مهملة مقضيًا عليها بالانقراض والتلاشى.

كانت قد يئست من شفاء زوجها، وأيقنت بأن كل يوم يمضى يدنيه من حافة القبر، ولذا شعرت بوجوب الإسراع فى التدبير وإعمال الرأى لإيجاد طريقة تحل هذه العقدة. وما زالت تفكر وتقلب الرأى على وجوهه حتى توصلت أخيراً إلى رأى صائب أوحت به إلى الخليفة فسارع إلى تنفيذه فى الحال. وفى غرة جمادى الأولى من سنة

ثلاثمائة وخمس وستين هجرية انعقد مجلس كبير(١) ضم كل ما فى الأندلس من الأشراف والأعيان وأصحاب الكلمة العليا وذوى الحيثيات حيث قرأ الخليفة عليهم إقراراً بقبولهم تولى هشام للخلافة من بعده للتوقيع عليه ممن حضر ذلك المجلس.

لم يجبرهم الخليفة على توقيع الإقرار، ولم يستعمل نفوذه أو تأثيره للضغط على حريتهم فى قبول التوقيع، غير أنهم لم يجدوا من اللياقة عصيان أمر رئيسهم وخليفتهم المحبوب فوقعوه عن رضا نفس وطيب خاطر. وفى تلك الجلسة أمر رئيس الكتاب وكان من مماليك الأميرة بنسخ هذا الإقرار وأخذ جملة صور منه لتوزيعها فى جهات مختلفة من الأندلس للتوقيع عليها من وجوه البلاد وأصحاب الشأن فيها تحت إشراف ابن أبى عامر مأمور الضبط ورئيس شرطة البلاد. وقد أرسلت نسخ متعددة إلى جهات أخرى غير بلاد الأندلس، مثل مراكش وأفريقيا فكنت ترى عامة الشعب يتسابقون إلى توقيعها مع الكبراء والأعيان حبًا فى إظهار إخلاصهم وولائهم لخليفتهم.

سر الخليفة من نجاح المشروع وقدر عمل زوجته هذا حق قدره، أما هى وقد رأت انحلال قواه ودنوه من الموت. فقد بذلت ما فى وسعها ليكون ابن عامر المفتش العام للقصر السلطانى ووصلت إلى ما تريد كما كان منتظراً(٢).

الآن وقد تم توقيع الإقرار وبدئ بذكر هشام فى خطب الجمعة بعد اسم الخليفة اطمأن بال كل من الحكم وصبيحة إلا أن الظروف كانت لا تزال خطيرة، فإن للمغيرة أعوانًا ومريدين على أهبة الاستعداد عند ظهور أى حركة تنبئ بسوء التدبير، أضف إلى ذلك أن أمراء الفرنجة المقيمين فى شمال الأندلس كانوا على ساق وقدم لتعبئة الجيوش وإعداد الرجال، يتربصون سنوح الفرص وقد سمعوا بمرض الخليفة.

أخذت وطأة هذه الأحوال تزداد شدة وازداد تبعًا لها قلق الأميرة، فإنها كانت تنظر إلى المستقبل، إلى يوم وفاة الحكم فترى أفق السياسة ملبداً بالغيوم، بالتدبير

---

(١) ابن الزهارى. (٢) المقرى وابن الاثير.

والتجهيز استعداداً للطوارئ، بكل ما فيها من قوة وعزم غير أنها كانت رغم كل وقاية واحتياط لا تدرى كيف يكون خروجها من تلك المشاكل، فهناك المغيرة، أخو الخليفة هل يجب منازلته أو لا؟ أم الأجدر مجابهة أمراء الفرنجة والاهتمام بما قد يحدث من الموقعين على الإقرار ظاهراً والمتمردين على الحالة باطناً، كل هذه أمور خطيرة تستحق النظر والاهتمام، لا تدرى أية طريقة تتبع للتخلص منها، فحصت هذه المشاكل ودققت النظر بمعونة المصحفى وباستعداد الرأى من أبى عامر لترتيب الخطط اللازمة، وكانت وطأة المرض قد اشتدت على الخليفة ولم يبق لديها أمل فى شفائه، وما كادت تطلع شمس اليوم الثالث من شهر صفر سنة ثلثمائة وست وستين هجرية حتى فاضت روحه إلى بارئها.

مات الحكم وقد حكم ستة عشر عاما كلها أمان وسلام، بالغًا من العمر اربعًا وستين عاما، محبوبا من الشعب مبكيًا عليه من أقاربه وأهله لفضله ومكانته بينهم، تاركا دولته وهشامه وديعة فى أيادى زوجته المحبوبة صبيحة وحاجبه الأمين المصحفى وكاتبه النشط محمد بن أبى عامر. مات مطمئن البال، مرتاح الضمير لوثوقه من حسن سياستهم وجميل تدبيرهم ولعلمه بأن ترك وديعته لأشخاص أكفاء لا تغمض لحظة واحدة عن حفظها ووقايتها من كوارث الدهر ونوازل الزمان.

فى اللحظة التى توفى فيها الخليفة لم يعلم بوفاته سوى صبيحة والمصحفى وابن أبى عامر ومملوكان يسميان جوهر وفائق، أما أهل القصر عدا هؤلاء فكانوا يعتقدون بأنه ما زال فى فراش المرض لأن صبيحة بذلت ما فى وسعها لكتمان الخبر ولعبت دورها بكل اتقان إلى أن وفقها الله لتخليص الدولة من اختلال كبير يهدد البلاد. اهتمت أولا بالمملوكين وتدبرت معهما أمر كتمان الخبر عن الشعب وعن أهل القصر أما المصحفى وابن أبى عامر فكانت واثقة من صداقتهما مطمئنة لإخلاصهما. هنا فى هذه اللحظة ظهرت صبيحة بكل ما فيها من نبوغ ودهاء، حيث كان مستقبل الأندلس فى يدها وأقل إهمال أو خلاف يكفى لإنتاج أخطر العواقب ويوقع بيت الزهراء فى يد

المغيرة وقرطبة لحكم الحزب المخالف. ثم تقع الأندلس جميعها بعد ذلك فريسة فى يد الأعداء غير أن حسن الحظ خدمها ومكنها من إتمام دورها بإتقان خلد لها شهرة ذائعة فى صفحات التاريخ أجل إنها جاهدت وكافحت ولكنها انتصرت وتوقفت لتخليص التاج والعرش لابنها هشام، وبذا تمكنت من الاحتفاظ بمكانتها ووقاية شوكتها ونفوذها بعد أن كانت من السقوط قاب قوسين أو أدنى.

الفصل السادس

كان المملوكان، فائق وجوهر، من الجنس السلافى، يحكمان على ألف مملوك آخر فى القصر ومتصفان بالظلم والغدر والعمل لما فيه نكاية أهل الأندلس وكانا يحقدان على المصحفى وهو أيضًا يحقد عليهما، ويعلمان بأن نفوذهما سيذهب أدراج الرياح منذ اليوم الذى يستولى فيه هشام على تاج الخلافة. وعندما علما بموت الحكم خطر ببالهما أمر تآمرا عليه سرًا وعقدا النية على تنفيذه فى الحال، فاستدعيا الحاجب بدون علم أبى عامر وأفضيا إليه بواقعة الأمر وأعلماه بأنهما غير راغبين فى خلافة هشام وطلبا إليه مساعدتهما فى ذلك.

أسقط فى يد الحاجب وعلم بأن أقل معارضة تورده حتفه فى مكانه، فلم ير بدًا من التظاهر بالانحياز إليهما وأنه راض عن خطتهما ثم أفهمهما أنه من صالح العمل تركه فى مكانه كحارس بينما هما يذهبان لإخراج الفكرة من حيز القول إلى دائرة العمل.

كان المصحفى يعلم بأن الأندلسيين الذين لم يذوقوا طعما لحكم الأوصياء بعد، يصعب عليهم قبول مثل هذه السنة الآن. إن صغر سن هشام حجة قوية فى يد الخصوم لرفض خلافته، فلا يبعد إذن أن تروج فكرة تنصيب المغيرة للعرش. اضطرب المصحفى لهذا الأمر، وأخذ يقلب الأمر على وجوهه ليتبين وجهًا للخلاص فعول على أن يستدعى أبا عامر إلى تلك البقعة سرًا ليتشاور معه فى هذه الكارثة المقبلة ثم التحقت بهما صبيحة عند ما علمت بوجودهما هناك وشاركتهما فى التدبير والتفكير. لم تكن هناك إلا طريقة واحدة لحل هذه المعضلة، هو إزالة المغيرة من الطريق حقًا إنها الطريقة المثلى ولكن من يقدر على تنفيذها. اتجهت الأنظار إلى أبى عامر لأنه أقدر الثلاثة على إتيان هذا العمل. إذا قبل أبو عامر تنفيذ ذلك فإنه ينقذ صبيحة من أشد الأزمات وأحرج المسالك فى حياتها بل هناك ما هو وأهم من ذلك إنه ينتشل ولى العهد من وهدة

السقوط، وبالأحرى ينتشل الأندلس من أحضان الفوضى والانحلال. إنها لفرصة سانحة تجرب بها الأميرة صداقة محسوبها وربيب نعمتها.

أمام هذه الظروف وإصرار المصحفى لم يسع أبو عامر إلا الإذعان، فشمر عن ساعد الجد وذهب توًا إلى قصر المغيرة يصحبه العدد اللازم من الجنود الأشداء للقضاء على حياة المغيرة.

كان المغيرة شابا فى السابعة والعشرين من عمره، إلا أنه جبان رعديد، فما كاد يرى وجه أبى عامر ويده على قبضة السيف حتى قال له ونبرات صوته تدل على الخوف والاستسلام «إننى طوع ارادتكم فافعلوا بى ما شئتم»، فأخبره أبو عامر بوفاة أخيه الحكم وبتنصيب هشام ابن أخيه للخلافة فأجاب: «إننى أقسمت قسمًا على مبايعته أطال الله بقاءه»

حركت هذه الحالة عاطفة الشفقة فى نفس أبى عامر وجعلته يمسك عن قتله، حتى أنه خرج إلى ناحية من القصر وكتب إلى الصحفى رسالة يخبره فيها بعدم موافقته على الأمر المتفق وأرسل الرسالة مع رسول خاص، فلما قرأ المصحفى رسالته اضطرب لأن المجال كان لا يتسع لإظهار مثل هذا التألم والإشفاق فكتب إليه فى الحال يقول: «وإنك بمثل هذا التردد توقعنا فى ورطة أشد مما نتحملها الآن فهل أنت عازم على خيانتنا أيضًا؟

وصل الكتاب إلى أبى عامر مع الرسول نفسه فأمعن نظره فى الأمر وقد جاشت عواطفه ولم يتمكن من إسكات ثائرة الشفقة القائمة بين جوانحه إلا أنه مع ذلك لم ير بدًا من إصدار الأمر إلى جنوده بالإجهاز عليه، فانقضوا عليه وكتموا أنفاسه ثم واروا جثته فى إحدى زوايا القصر.

علم المصفحى بتنفيذ المشروع فسر فى نفسه وأبدى ارتياحه أما الأميرة فكان سرورها أشد وكان يلوح عليها مظاهر الامتنان والشكر لهذا العمل الذى كان سببًا فى

زيادة تعلقها به.

أذيع بعذ ذلك خبر موت الخليفة، وتقلد هشام منصب الخلافة مكان أبيه فى اليوم الثانى كما كان مقرراً وبايعه الناس فى حفلة عظيمة سمى فيها بلقب (المؤيد بالله)، وهو إذ ذاك لم يتم الحادثة عشرة من عمره، وقدم كذلك المملوكان، فائق وجوهر، طاعتهما للخليفة ومن ثم اختفى هشام عن العيان فى إحدى زوايا القصر مع مربيه الذى عهد إليه فى أمر تربيته.

تم الأمر كما أرادت صبيحة وكما شاء ابن أبى عامر والمصحفى، وظهرت الأميرة على مسرح الحكم علنا(١) إذ كانت الآن تحكم باسم الخليفة ابنها، لأنها أصبحت الوصية عليه، فكان اليوم يومها والزمان زمانها، كانت الحاكمة المدبرة لكل أمر منذ عشر سنوات إلا أنها كانت تحكم من وراء ستار، وكان لها نفوذ واسع ولكنه نفوذ عار عن الصبغة الشرعية أما الآن فقد استكملت نفوذها وظهرت بمظهر الوصية، صاحبة الأمر والنهى.

أخذت فى دورها العملى تنظر فى قرارات المجلس الأعلى وتبحث عن الوسائل المؤدية لاستتباب الأمن فى ربوع الأندلس، وكان من أول أعمالها تخفيض الضرائب الباهظة التى أثقلت كاهل الأهالى مما جعلها محبوبة لدى الشعب مرعية الجانب لدى الخواص لأن رجال الدولة لم يقع اختيارهم عليها كوصية عينًا بل لأنها كانت مشهورة بينهم بذكائها، معروفة لديهم بحسن درايتها فى سياسة البلاد(٢).

كتب التاريخ المصورة لتلك الأيام مشحونة بذكر سجاياها وسرد فضائلها ومزاياها، أما شعراء عهدها فقد نظموا لها عقود مدح سارت بذكرها الركبان وشبهوها بالنجوم، وأعلوا قدرها إلى السماكين حتى طبقت شهرتها كل ربوع الأندلس.

---

(١) قاموس الاعلام.

(٢) تاريخ لاندلس لضيا باشا.

كل شىء فى تاريخ حياتها جميل ظريف، سوى أمر واحد يؤسف له جد الأسف، هو عدم كتابة خواطرها فى مذكرات تعبر عما كان يخالجها من المشاعر والإحساسات فى الظروف المختلفة التى تقلبت أثناءها لو كتبت مثل هذه الخواطر فمن يدرى أى الأساليب الشعرية الخالدة وأى المعانى السامية الخلابه كنا نجده لذة فى تصفح حياة تلك الأميرة وهى تروض النفس فى حدائق قصر الزهراء وتفكر فى ماضيها. هل كانت تتأثر الآن بذكر لياليها الغرامية التى قضتها مع الحكم فى نفس ذلك المكان!!

هل تذكر الآن أيام شبابها وتلك السويعات السعيدة التى كانت تشعر فيها بمحبة الحكم لها؟ وهل لتلك الأويقات أثر فى نفسها أو هى نست حتى الأيام التى كانت فيها تتغنى بين تلك الخمائل والأفنان؟

لو كانت لها مذكرات لكنا علمنا فى أى مركز احساسها الآن أو كنا علمنا فيما تفكر وهى تمر فى طرقات تلك الحدائق. هل كانت أفكارها معطوفة إلى المستقبل أو أنها تحترم الماضى أيضا، فتلتفت إليه من حين لآخر؟ من يمكنه إدراك ما فى خفايا هذه المرأة المتعلمة القادرة ومن يعلم وجهة أفكارها الآن؟ ربما كانت تحسب ضحاياها وربما كانت تتأمل فى حسن طالعها وربما كانت الآن تقلب صفحات حياتها الصفحة بعد الأخرى بلا قيد ولا روية.

يحفظ لنا التاريخ أنها بعد الفراغ من أعمالها السياسية كانت تجلس على مقربة من بركة مزخرفة وسط الحديقة لاستنشاق نسيم السماء المعطر بروائح الزهور والرياحين، فى ذلك الوقت الذى يطير فيه المرء سابحًا فى عالم الخيالات، فى عالم أثيرى بعيد عن ماديات هذا العالم الأرضى.

كم يشتاق الإنسان إلى معرفة تصوراتها وما يدور بخلدها فى تلك اللحظات اللذيذة القصيرة!! هل كانت أفكارها موجهة إلى ابنها وأمر تربيته أو أنها كانت تفكر فى أمر الحياة؛ لتعرف حقيقتها فتقول فى نفسها: إن هى إلا رؤيا نرى فيها الحقيقة فى ثوب الخيال والخيال فى لباس الحقيقة أو أن تصوراتها تنحدر بها فى تلك اللحظة إلى

مظاهر الوجاهة وآثار النعيم والترف التى تقلبت فى أحضانها منذ الساعة التى كانت تغنت فيها بين خمائل الحديقة؟ أو أنها تحصى الحوادث والصدمات التى تحملتها منذ ستة عشر عاما؟ كلا كلا إنها فى تلك الجلسات بجانب البركة، كانت تنظر إلى النجوم اللامعة فى صفحة السماء لتقارن بينها وبين القصائد التى نظمت فى مدحها والتشبيهات التى قيلت من أجلها، وربما كانت لا تفكر لا فى شىء واحد، ولا يشغل ذهنها إلا أمر واحد هو غرامها وهيامها بأبى عامر...

آه من يدرى، ذلك كل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها وستبقى سرًا غامضًا إلى الأبد.

لم أجد فى أى كتاب حبا يشابه حب صبيحة ولا نفسية كنفسيتها.

وقد علمت بالبحث والتنقيب أن أبا عامر كان روحها وحياتها، ولكننى بكل أسف عجزت عن وصف تصوراتها وأفكارها فى تلك الساعات القصيرة التى كانت تتنزه فيها فى حدائق بيت الزهراء.

الفصل السابع

قدم المملوكان فروض الطاعة ورضخا لحكم الزمان مؤقتًا، إلا أنهما لم ينسيا قتل المغيرة ومديرى تلك المؤامرة، ولذلك لم ينفكا عن تحريك الفتنة وإذكاء نارها الخامدة كلما استطاعا إلى ذلك سبيلا. اندفعا فى هذا السبيل حبًا فى الانتقام من المصحفى وابن أبى عامر، وأوشكت ثمار أعمالها تنضج، فإن الشعب بدأ يشكو من احتجاب الخليفة عنه وأخذ الناس فى مجامعهم يتحدثون عن صغر سنه، وقد كان لهم بعض العذر فى التذمر لأنهم فى عهد عبدالرحمن وابنه الحكم اعتادوا أن يروا خليفتهم من وقت لآخر أما هشام فقد بقى منزويا فى حجرات القصر منذ يوم المبايعة.

اغتبط لهذه النتيجة مدبروها وقلقت لها صبيحة، التى كانت تراقب مجرى الحوادث بعين يقظة، فاستدعت المصحفى وابن أبى عامر، وطلبت منهما إبداء الرأى فى هذه الصدمة فقر رأيهما على إخراج الخليفة لشعبه، وفعلا ظهر هشام للأندلسيين فى حفلة عظيمة جمعت كل دواعى الهيبة والعظمة وكان ممتطيًا جواده وعلى يمينه حاجبه المصحفى وعلى يساره ابن أبى عامر، وقد زاد أبهة المهرجان اشتراك فرق عديدة من الجنود فى الموكب وفى نفس هذا اليوم ألغيت إحدى الضرائب (ضريبة السمن) عن كاهل الأندلسيين، فهلل القرطبيون لرؤية خليفتهم وكبروا وقد ازدادوا محبة له والتفافا حول عرشه.

لم يفت ذلك فى عضد المملوكين بل أغراهما على التمادى فى إشعال نار الفتن، وقد أدت بهما الجرأة إلى نصب حبائل مكيدة داخل القصر، كانت سببًا فى فضيحتهما ونفيهما إلى الجزيرة. أما أعوانهما وأتباعهما فقد ناولا الجزاء الصارم من أبى عامر، وبينما كانت الأحوال فى داخل البلاد على هذه الوجة كان أمراء الفرنجة فى الخارج قد اشتدت قوتهم وتعددت منهم حوادث النهب فى البلاد الآمنة، فقلقت صبيحة لهذه الحالة لعلمها أن قيام هؤلاء الأقيال دفعة واحدة بعد سكونهم مدة طويلة منذ عهد الحكم ينذر

بقرب وقوع حروب شديدة بينها وبينهم، فأمعنت الفكر فى ذلك واستمدت كعادتها برأى الحاجب وصنيعتها أبى عامر، فأشارا عليها بعرض الأمر على وجوه الأمة وأعيانها فجمعتهم فى مجلس عام وطرحت المسألة على بساط البحث والتدقيق وكان رأى سوادهم فصل المشكلة بحد السيف وقد خطبهم ابن عامر خطبة بليغة شرح فيها الأسباب الموجبه لشن الغارة على الأعداء وتأديبهم قبل استفحال الأمر، فاستهوت الخطبة ألبابهم ولم يبق فى المجلس نفر على غير رأيه غير إنهم لفتوا نظره إلى نفقات الحملة وما تستدعيه من المصاريف، فطلب منهم بيانا بجملتها فلم يجر أحدهم جوابا عند ذلك أجابهم بأنها ربما بلغت مائة ألف دينار تقريبا، فرد عليه أحد الحاضرين مستعظما ذلك فأجابه على الفور: (خذ إذا شئت مائتى ألف وتول قيادة الحملة، وخفف عن عاتقى هذه المسئولية) فأقحمت هذه الكلمات قول المعترض. وبعد أن وصل المجلس إلى هذا الحد أخذ يفكر فى تعيين من يعهد إليه بقيادة الجيش وكانت هذه المشكلة جديرة بالبحث حيث لم يقبل أحد من الحاضرين أن يتولى مثل هذه المأمورية إلا أن أبا عامر فض الإشكال بأن قبل القيام بذلك على شرط أن يدفع إليه مقدار النفقات، وأن تكون له الحرية(١) فى انتخاب رؤساء الجيش. فرضى الحاضرون، وباركته صبيحة ولم تتمالك من المجاهرة بأنها تؤمل النجاح فى مهمته وأنها مطمئنة على سلامة الدولة ما دام يعضد ما فى إدارة الملك والدفاع عن حقوق السلطنة أمثاله من الرجال العاملين فرد عليها شاكراً حسن ظنها، وقد ضمن كلامه بعض التلميح فى ضعف سياسة المصحفى ولين جانبها إزاء هذه الصعاب، فلم تجبه صبيحة إلا أنه فهم ما لكلامه من الأثر فى نفسها.

تحرك جيش الأندلسيين وعلى رأسه ابن أبى عامر حتى تقابل بأمراء الفرنجة والتحم بجيوشهم فى معارك شديدة انجلت عن هزيمة الأعداء وانتصار المسلمين واستيلائهم على بعض المدن عدا الأسلاب الوافرة والغنائم الكثيرة، وبعد حروب دامت

(١) تاريخ لاندلس لضيا باشا.

خمسين يوما عاد ابن أبى عامر إلى قرطبة مقر الملك، منصورا غانما، تحف به رايات الفوز والظفر(١) لقد برهن على دراية تامة فى قيادة الجيوش وأظهر صفاته الحربية المغروسة فى نفسه ومواهب الفروسية الموروثة عن آبائه فأحبته الجنود ودهش من أمره من كان يظنه على جهل بأمور الحرب، وقد أعد القرطبيون لاستقباله يوما مشهوداً وكان فى مقدمة المحتفلين بقدومه الأميرة وابنها الخليفة هشام، وقد أغرقاه بطوفان من الإنعامات وحسن الاستقبال وكان هو كعادته فى كل الأمور البطل الموفق، مظهر احترام الأعيان والأشراف ومعقد آمال أهل القصر ورمز أمانى العامة وطبقة الشعب؛ وقد أجمع الكل على تسميته بالمنصور، اعزازًا له واكباراً لشأنه، واعترافا بخدمته فى تلك الحروب.

أصبح الآن لا يحفل كثيرا بالمصحفى. وعلاقاته بالخليفة رسمية محضة، لعدم بلوغه سن الرشد أما صبيحة فحدث عن منزلته لديها ولا حرج، فهل يوجد فى العالم مخلوق أسعد من المنصور؟

ها قد تحققت آماله الذهبية الواحدة تلو الأخرى بقوة ساحرة، وها لم يمض على حديثه مع رفقائه فى الجامعة أمد كبير حتى نال ما تمنى. ها هو الآن أكبر رجل فى قرطبة وها هى الأنظار موجهة إليه وها هو التاريخ خص له فى طياته صحيفة بيضاء لتدوين أعماله المجيدة، إن الآمال التى كان يتصورها والمشاريع التى كان يرسمها وهو جالس فى حانوته الصغير بميدان قرطبة أمام القصر قد تحققت جميعها، ذكر ذات يوم لأصدقائه بأنه سيكون حاكم الأندلس الفذ وها هو الآن الحاكم الحقيقى للأندلس ومن أكبر رجالات العالم الإسلامى.

---

(١) دوزى.

الفصل الثامن

استفحل نفوذ المنصور وارتفعت كلمته فى شئون الإدارة والسياسة(١) وبنى له قصراً فخما بجوار قرطبة بل قل مدينته الصغيرة التى سماها (الظاهرة) فنقل مأمورو الدولة مساكنهم بجوارها وأسس التجار والباعة أماكن لهم على مقربة منها حتى أصبحت تضارع فى شهرتها بيت الزهراء.

كانت الظاهرة محاطة بالحدائق الغناء والبساتين الزاهرة والأحواض الجميلة وبها من دواعى الأنس وموجبات السرور ما يشهد لمنسقها بالذوق، وكم شهدت هذه المدينة من ولائم المنصور واحتفالاته العظيمة، تلك الأعراس التى بهرت أنظار الأندلسيين وأوقعتهم فى دهشة من مظاهر تلك الرفاهة!!

هل كان المنصور، وقد وصل إلى هذه المكانة وارتفع إلى تلك الغابة التى ليست وراءها غاية يحب صبيحة وهو فى حالته هذه؟ أم أن ما يجيش بصدره من الإحساس لها هو أثر من آثار الشكر والامتنان لحسن صنيعها معه؟

كانت الأميرة صبيحة تحبه وتقدس ذاته إلى درجة الهيام ولكن هل كان لشعورها هذا رجع صدى، وهل كان محمد المنصور يخصها بمحبة تكافئ هذا الحب؟

إننى استنادا على أعماله وعلى ما أظهره بعد تمكنه من إدارة الأندلس أقول: إنه لا يحبها!... وإنما كان يحترمها ويظهر لها دلائل المودة والاعتبار، لإنها سبب نعمته ومنشأ رقيه وإليها يرجع الفضل فى السعادة التى يرفل فى بحبوحتها الآن.

قد ظهر الآن أمامها بثوبه الحقيقى وأصبح يأنف من رؤية يدها - تلك اليد التى طالما قبلها بإعزاز وتقديس - تشترك معه فى الحكم منذ أصبح يشعر بأنه فى غنى عن

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا.

حياتها، نعم كان يتوق إلى رؤية الأوامر غفلا من اسمها ليس عليها إلا كلمة المنصور، غير أنه لم يستطع أن يرفع لواء عصيانه دفعة واحدة فظل محافظا على سابق مودته لها، يكلمها بلسانه العذب ويعاملها بلطفه المعهود ولا يقصر فى أمر يكون فيه راحتها، وهو هو فى كل أطواره وحركاته التابع الأمين والخادم المخلص للعرش والخلافة.

عرضت عليه ذات يوم جارية ليشتريها وكان نخاسها قد لقنها بعض أبيات وأمرها بانشادها بين يديه.

دخلت الجارية قصر المنصور وهناك فى حضرته أمام جمع حافل من جلسائه غنت تلك الأبيات بصوت رخيم، فاسترعت الأغنية مسامعه وأخذ يصغى إليها باهتمام زائد وهو يرتجف من غضبه وما كادت تتم الإنشاد حتى هجم عليها شاهرا سيفه وألقاها على الأرض تتضرج بدمائها(١).

لماذا – لأن الجارية نطقت بأبيات مضمونها التلميح بعلاقته مع صبيحة فلم يحتمل أن يرى اسم الأميرة مضغة فى أفواه الناس فأنزل العقاب بمن تجرأ على تلويث ذلك الاسم أمامه، وأمر بجمع وإحراق ما قيل فى حقها من الهجاء ومجازاة قائليها بشدة دلت على مكانة الأميرة من نفسه.

كان لا يشغل باله فى هذه الفترة إلا أمر واحد أقلقه غاية القلق، هو استكانة المصحفى وظهوره بمظهر الضعف. أراد أن يتخلص منه لأن حاجب البلاد ترك مصالح الأمة ليلتفت إلى مصالحه الشخصية، وكان المنصور يظهر هذا الأمر لصبيحة ويشير إليه من طرف خفى، وكانت هى كلما أمعنت النظر فى أحوال المصحفى ازدادت وثوقا بصدق أقوال المنصور الذى كان يجتهد بإعلاء شخص آخر بنسبة اجتهاده فى إسقاط الحاجب، هذا الشخص هو القائد غالب وقد تمكن أخيراً بمعونة المنصور وحسن

(١) ابن الاطهارى.

وصايته أن ينال رتبة الوزارتين(١).

بعد هذا وضع المنصور يده فى يد غالب واخترقا حدود المملكة فى سبيل شن الغارة على أعداء البلاد، حيث كان أمله الوحيد جعل أسبانيا جميعها فى قبضة يده(٢) وسرعان ما تكللت أعمالهما بالنجاح، وأعقب غزوتهما هذه غزوات أخرى عقد للمنصور فى جميعها رايات الظفر، حتى أصبح شخصه طلسم النصر لجيوش المسلمين لا يشن على الأعداء غارة إلا يعود منها غانما رابحا.

وإذ هما منهمكان فى خوض غمار الحروب وإعلاء شأن الأندلس خارجا، كانت صبيحة تدبر شئون البلاد وتشيد ما يخلد ذكرها فى التاريخ(٣) أما المصحفى فلم يبق له بعد ذلك أدنى نفوذ، وأصبح يشعر متألمًا بأفول نجمه وإدبار طالعه لقد انفض من حوله الناس ولم يبق من يعضده من الأمراء(٤) والكبراء وقد آذى الكثيرين منهم بغروره وكبريائه أيام أن كانت له الدنيا ومع ذلك عز عليه أن يترك مركزه بسهولة وانقياد، فأراد أن يجرب حظه ويقامر بآخر جهوده، علم شأن غالب فأراد أن يتقرب إليه بأن يزوج ابنته أسماء من ابنه عثمان، وما كاد يخطر فى باله هذا المشروع حتى كتب إليه فى الحال يعرض عليه ذلك.

فكر غالب فى الأمر مليا وقلبه على وجوه كثيرة، وفى النهاية اقتنع بنفع هذا الزواج، فكتب إليه يخبره بالقبول ففرح المصحفى بذلك، وقد كاد يطير من شدة ما ناله من السرور وشاع خبر هذه الخطبة وذاع، حتى وصل أسماع المنصور، فلم يشأ أن يصدق بادئ ذى بدء إلا أنه عندما تحقق صحتها استشاط غضبا والتجأ إلى كل باب من الأبواب التى رآها مؤدية إلى منع هذا الزواج، وكان منه أن استدعى غالب ووسوس إليه بالضرر العائد عليه من أمر الخطبة، وأن زواج ابنته من مثل عثمان لا يولد شرفا ولا يكسبه فخرا لأن المصحفى لا ينتسب إلى بيت حسب ونسب، فاحتار غالب فى أمره

(١) ابن خلكان. (٢) تاريخ الاندلس. (٣) تاريخ الاندلس لضياء باشا. (٤) دوزى.

ولم يجد لنفسه مخرجا من ذلك المأزق. لم تكن حفلة الزفاف قد جرت بعد، إلا أن الخطوبة كانت قد تمت فماذا يفعل الآن ولقد ندم ولا ندامة الكسعى؟ ولكن لات حين مندم! فما كاد المنصور يرى منه ذلك حتى أضرم فى نفسه ما يذكى نيران ندمه بقوله: «إن ابنتك جديرة بمثلى فهل تقبل أن تزوجها منى؟»

أدهشه هذا التصريح لأنه ما كان يعتقد بنوال مثل ذلك الشرف، فقبل مسرورا أن تزف ابنته إلى أكبر رجل تعرفه الأندلس، أما المنصور فكان فرحا فى سره لتمكنه من إحباط خطة منافسه المصحفى، فأصبح بعد ذلك من أسهل الأمور عليه عزله من منصبه لا سيما وقد كانت أغلاطه ظهرت لصبيحة، فتم له ما أراد، وزاد من نكايته له رجوع غالب عن كلمته ورفضه زواج أسماء من ابنه عثمان.

ارتقى المنصور إلى درجة حاجب، أى وزير الوزراء، كما كان المنتظر!! فيكون قد وصل الدرجة الأخيرة من عرش آماله الذهبية، وجلس مفتخراً على أريكتها العلياء، ولقد أصبح بعد تلك الحادثة معكس أنظار العالم الإسلامى فى جميع الأقطار إذ كان رقيه سريعا، مدهشا لدرجة أنه هو نفسه كان فى حيرة من أمر هذه السعادة وحسن ذلك الطالع.

أرأيت أيها القارئ كيف يكون سحر الحب وفعله العجيب!

الحب هو الذى خلق هذه المعجزة والحب هو الذى أخذ بيد كاتب صغير لم تحتكه التجارب إلى ذروة المجد وسنام العظمة.

المحتكون بالمنصور، الحائمون حوله، ذهلوا من رقيه السريع، بينما كانت صبيحة تبارك نفسها لإتحافها الأندلس بنابغة قل أن تجود الأجيال بمثله(١).

مصاهرة المنصور لقائد مثل غالب، صاحب المنزلة الكبيرة فى نفوس القبائل القاطنة مراكش وشمال أفريقية، أمر ارتاح إليه جد الارتياح، حيث كان يطمع فى مد

(١) دوزى

نفوذه وشهرته حتى تلك الأصقاع فكم سهر الليالى وهو يذهب بتصوراته إلى تلك البلاد ويبنى القصور والعلالى لإدارتها وتسخيرها لحكمه كما يريد ويشاء، فها هى الآن فى مقدوره ومتناول يده.

لندع المنصور جانبًا بين آماله وأمانيه ونفكر قليلا فى حالة صبيحة الروحية فى تلك الفترة؟ فإلى أى حد وصلت تصوراتها يا ترى؟ وكيف قابلت تلك الصدمة، صدمة زواج حبيبها وأعز مخلوق لديها بامرأة أخرى، وكيف رضيت هى بمثل هذا الأمر وأمكنها إسكات النزاع القائم فى نفسها وامتلاك شعورها والتوقيع على عقد النكاح بيدها ودعوة غالب وابنته إلى قرطبة ومقابلتهما بحفاوة وسرور.

لم يكن فى مقدورها تدبير أمر يعكس هذه الحالة لأنها لم تستطع أن تجرى مع عواطفها، لقد منعها مركزها السامى من إظهار ما فى نفسها من الآلام والآمال. إن سمو مقامها وقف فى سبيل منع المنصور من مثل هذا الأمر المؤلم، فلم تر بدًا من الاستسلام لحكم الأقدار ومقابلة الضربة بشجاعة وثبات - لقد أبدت شجاعة تفوق حد التصور والإدارك فى كتم عواطفها، وظهرت بمظهر الرازنة الجديرة بملكة جليلة القدر عظيمة الشأن، فأشرفت بنفسها على حفلة الزفاف التى دفع الخليفة جميع نفقاتها. قد يكون فى نفسها بقية من الأمل ولم لا؟ ألم يكن الغرض من هذا الزواج سياسيا؟ إن الزواج المبنى على غرض مخصوص يكون ذا أساس واه لا يبشر دوام البقاء والخلود. كان الغرض من هذا الزواج أن يكون سهام تحقير مسددة إلى صدر المصحفى، فليس فى الأمر ما يوجب القلق.

بمثل هذه الآمال كانت صبيحة تعلل النفس إلى أن تم الأمر، وزفت أسماء إلى المنصور، حبيب الأميرة وأقرب الناس إلى نفسها، فى العام السابع والستين بعد الثلاثمائة من الهجرة النبوية.

كانت الحفلة من أحسن حفلات الأندلس فى التاريخ، وذات أبهة ملوكية قل أن يسمح الزمان بمثلها، وقد زاد من بهائها أن الأميرة نفسها كانت زينتها وبهجتها. أما

موكب العروس فحدث عن فخامته ولا حرج. تقاطر الناس لرؤيته من كل صوب وناحية مدهوشين من عظمته وجلاله. ولقد شاءت الأقدار أن يكون ختام العرس السياسى مقرونا باليمن والسعادة، فقد كانت العروس ذات جمال نادر، على جانب عظيم من الظرف والكياسة والأدب فافتتن المنصور بها وملأت نفسه بملاحتها الروحية، حتى أصبح لا يرى غيرها من النساء ولا يصير عنها ساعة واحدة. لقد أحبها محبة غير محدودة، حبًا يماثل غرام صبيحة له، فتصور حالة الأميرة الروحية إذ ذاك، وهى منعزلة فى بيت الزهراء، تقاسى مرارة الهجران.

لم تكن صبيحة إذ ذاك فى نضارة الشباب. لقد انقضى موسم الأمانى العذبة وفات أوان الاسترسال فى التأمل والتخيل. لقد انطفأت شعلة آمالها ولم يبق لديها ما يذكى نيرانها، فليس أمامها إلا رماد من اليأس. لقد أنزلت بمحض اختيارها الستار على رؤية غرامها، واضطرت أن تفتح عينها فى نور الحقيقة المؤلمة؟

ولكن بعد هذا ماذا هى فاعلة؟ وما الذى تستطيعه وبأى الألوان تصبغ حياتها الآن؟ هل تنزل إلى حدائق قصرها وترمى بنفسها فى أحضان الورود والزنابق والياسمين لتجد التسلية فى مناظرها وما يتصاعد من شذاها وعبيرها؟ إنها الآن فى خريف العمر ومن كان فى مثل سنها لا تسليه هذه الأشياء. إن هى إلا امرأة بائسة كسيرة الخاطر، انتهى غرامها على غير ما تشتهى، ولكن قد حم القضاء ووقعت الواقعة فتزلزل بنيان عشقها وانهار، فهى الآن تشاهد بين الأنات والآهات أنقاض ما تخرب من احساسها وتنظر وعيناها مملوءتان بالدموع فى القطع المبعثرة من آمالها المحطمة، فتشفق على نفسها عندما ترى الأجنحة الدامية من خيالاتها السابقة ترفرف حائرة على تلك الخرائب.

كان تقهقرها مدهشًا فيا لهول الهزيمة!! ما أقرب الاتصال بين نقطتى الفوز والاندحار!! ليست السعادة إذن إلا غشاء واهى الجدران، مؤسسة دعائمه على شفا هاوية عميقة ولكن ما الفائدة؟ كل هذه ملاحظات ترد الخاطر بعد فوات الوقت وضياع

الفرصة...

تحملت صبيحة ما أصابها وتلقت الضربة بشجاعة نادرة، ولكنها بذلت فى سبيل ذلك ثمنًا غاليًا. هى دموع القلب التى كانت تسكبها وهى جالسة على عرش الحكم والإدارة. بالله كم كانت أناشيدها التى ترنمت بها فى ليالى الصيف مؤثرة حزينة ذات نغمة محرقة؟ لا ريب أنها بعد الانتهاء من أناشيدها كانت تفتح غرفتها تترحب بالنسيم، وربما ألقت فى مسامعه ما يخفف من لوعة قلبها.

فإن الصبا ريح إذا ما تنفست على كبد حراء قلت همومها من لنا الآن بمعرفة كلماتها فى تلك الساعات التى كانت تخلو فيها إلى النجوى، ولكن هيهات قد أطارت نسمات الأندلس تلك الكلمات وقذفت بها إلى أعماق اللانهاية.

الفصل التاسع

أخذ المنصور يمهد على مهل سبيل حصر النفوذ فى يده، فأبعد الذين توسم فيهم روح التمرد والعصيان ومجابهة ما كان يتصوره من الآمال والأحلام، ونفاهم من قرطبة مركز الحكم والخلافة حتى لايكون بينه وبين ما يرمى إليه حاجز أو عقبة، فضرب بيد من حديد أولئك الذين أرادوا الدخول فى شئون الإدارة وإحداث القلاقل والاضطرابات حول عرش سلطانه المطلق.

كان لا يقبل نصيحة إنسان ويفهم الذين حوله بكل حركاته وأطواره أنه فى غنى عنهم وعن مشورتهم وما يقدمونه من مناصرة ومعاضدة.

أصبح الآن يتضايق حتى من نفوذ حماه القائد غالب، وقد تمكن أيضا من إبعاده كما أبعد الصحفى من قبل.

هنا فى هذا الموقف لم يبق بينه وبين أن يعيش حر التصرف كما يشاء ويهوى إلا ظل شخص واحد، ذلك الظل هو الأميرة صبيحة.

نعم أصبح لا يهتم كثيراً بمالها من نفوذ ولا يعبأ بسيطرتها، ففكر فى أن يتخلص من نفوذ هذا الظل أيضا، وسعى باحثًا عن الوسائل المؤدية لدفعه حثيثاً إلى أن توفق إلى هذه الغاية أيضا وتكللت مساعيه بالنجاح.

إنه كان مضطرا إلى التظاهر بالاحترام والخضوع لولية نعمته، ولكن نظرات الأميرة كانت تتخلل ما وراء هذه المظاهر من حقيقة مؤلمة، فتشعر بما يخالف هذا الاحترام من فتور واضح. قضى الأمر فليس ثمة داع لإعادة الماضى بذكرياته العذبة وخواطره اللذيذة أمام أبهة الحاضر.

لم يكن المنصور من أولئك الذين يتأثرون بالذكريات الماضية من أيام صباهم وأزمان لهوهم أن الوقائع لتمر به تاركة أثرا خفيفاً فى حياته. إنها لأسطر مكتوبة على

الرمال تعبث بنظامها أخف الرياح هبوبا، فلذلك أمر بأن يقرأ اسمه فى خطب الجمعة مع اسم الخليفة، غير مكترث لنقد الناس وما تلوكه ألسنتهم.

صار الناس يقرأون اسمه على النقود ويشاهدون توقيعه فى ذيل الأوامر والقرارات.

ولكن ألم يعمل على راحة الشعب وطمانينته؟ أليس هو الساعى فى نصب ميزان العدل فى ربوع الاندلس فلا تستكثر عليه إذن طموحه إلى لقب (الملك الكريم) بعد أن كان حاجباً.

الأمة لا تنسى خدماته ومآثره فلا تستغرب سكوتها الآن إزاء هذه المظاهر الجديدة، أما الخليفة هشام فكان فى هذا الوقت العصيب منزويا فى مجاهل القصر، بعيداً عن أضواء السياسة وضجيج الإدارة، منقاداً مخرباً أيام شبابه بلا نفع ولا جدوى. قد تمر عليه فترات يحلو له فيها التجرد عن الماديات والغوص فى لجج الروحانيات فيزهد رؤية الناس كثيراً وينكمش منزويا لمدة طويلة. هذا هو الخليفة هشام ابن صبيحة، وعلى هذا الطراز كان يقضى أيام حياته.

قال مربيه: (ظهرت عليه فى صغره علائم الذكاء والفطنة) إلا أن تربيته التى تلقاها منذ وفاة أبيه لم تكن كافية لإنضاج مداركه وإكمال مواهبه فظل ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن الثالث خاملا وعاش عاجزا جبانا متردداً عاريا عن العزم والإدارة، أقل الملوك شأناً فى أسرة بنى أمية.

هذه الأخلاق الضعيفة، حركت عوامل الطمع فى نفس المنصور وحدت به إلى الطموح نحو العرش وجعلته يعزم على ارتقائه العرش فى بيت الزهراء بدلا من هشام كان (الملك الكريم) فأراد أن يكون الخليفة.

اختلف المؤرخون فى هذا الأمل فى نفس المنصور، وأنه سعى جاهدا، لإخراج مشروعه من دائرةالفكر إلى حيز العمل ولولا خشيته من النتائج لتم له ما أراد اهتم

أولا أن يكون الخليفة منسياً من شعبه دون أن يزعزع أركان الخلافة، فسعى فى أن يقلل خروج الخليفة من قصره، وكانت الظروف فى جانبه لأن هشاما كان لا يراه الناس فى الجامع إلا قليل وإذا خرج من قصر لآخر متنزها خرج وهو ملتف بالبرنس، فكان يرى بعين الخيال وهو مسرور مشرح الفؤاد أن آماله ستتحقق بلا اضطراب ولا شغف.

فهمت صبيحة مراميه وشعرت بأغراضه ومقاصده فأرادت، أن تراقبه عن كثب ولم تطق بعد ذلك استبداده ولم تستطع صبراً على رؤية العرش مهدداً، فزجت بنفسها فى الميدان لتحافظ على كيان ابنها وتنقذ عرشه.

بذلت كل ما فى نفسها من جهد وعزم، إلا أنه لم يكن فى يدها الآن شىء من القوة.

وقد شعرت بهذه الحقيقة عندما تقدمت إلى الميدان ورأت أن رجال المنصور وأعوانه شاغلون أهم المناصب فى أقلام الحكومة وإداراتها فى كل ركن من أركان الإدارة حتى فى قصرها بيت الزهراء. كانت تهم فيصادفها ألف عقبة وعقبة، تتقدم خطوة إلى الأمام فتقابلها عثرات وموانع. لم تكن مالكة لاستقلالها، لقد كبلها المنصور بخيوط دقيقة تخفى على الناظرين ولكنها خيوط قوية يصعب الإفلات منها، فصبرت حتى اشتدت عزيمتها وقام فى أعماق نفسها دافع يسوقها إلى رفع لواء التمرد والعصيان، إذ كانت تقول فى سرها ما هذه الجرأة ومن أين لأبى عامر كل هذا النفوذ أين كنت أنا وكيف أرى ذلك بنفسى آه إن الرجال الشاغلين للوظائف فى قصرى كلهم معروفون لدى ولكننى، أعلم أنهم من أتباع المنصور.

كيف لها أن تعلم ذلك. لم يكن وقتئذ فرق وأحزاب ورجال تتحيز لرجال كانت متحدة مع المنصور فكرا وعقلا، متفقة معه قلبا ولسانا.، كانت يدها مع يده فى كل أمر وكل مشروع، فترى فيمن يعينهم المنصور أنهم رجالها الصادقين فليس سبيل إلى سوء الظن، كان الزمان زمان إخلاص واتحاد أما اليوم وقد زال ما بينهم من طمأنينة فابتدأ يراقبان حركات بعضهما وقد تنقب كل منهما ببرقع النفاق، فهى الآن تنصب له الفخاخ

سرا وقد علمت بآماله وأمانيه فسعت أولا فى جعل رجال القصر محببين منها، وقد أظهرت فى هذا السبيل همة جديرة بالتقدير والإعجاب.

تبدلت الحال بغير الحال وصار قصر الزهراء مسرحا للفتن والدسائس، وصبيحة تراقب ذلك بسرور ولا تألو جهدها لإنقاذ ابنها ونفخ روح الحياة فى نفسه الخامدة.

ما كانت تهتم بذلك قبل الآن وتسعى فى إيقاظه من ذلك الخمول، فقد كان عاجزا خاملا لا يشعر بالحاجة إلى سؤال الوزراء عما يفعلونه أو يديرونه من الأمور.

لم يسبق لصبيحة أن اهتمت بشأن ذلك العاجز المسكين وأن ترجع إليه فى الشئون الخطيرة، أما الآن فإنها تشعر بعد أن وقعت الواقعة ورأت اقتراب العاصفة التى تكاد تقتلع عرش ابنها، أنه محتم عليها أن توقظ هشام من غفلته العميقة وقد تم لها ما أرادت فسعت فى تنفيذ خطتها سرا دون أن تدعو محمداً المنصور يعلم، فإنها كانت تذهب صباح كل يوم لزيارة ابنها فى غرفته الخاصة، وتورد له الأحاديث الطويلة والمباحث المهمة لتزيل ما على قلبه الغافل من صدأ العطالة والخمود.

تعبت فى سبيل غرضها وسهرت الليالى الطوال ترتب الدروس المؤثرة التى تحرك النشاط فى هذا الدماغ العاطل، فشقت وتألمت وكدت، لكن مساعيها أثمرت وظهرت لها نتائج خطيرة ذات بال، فقد حدثت معجزة فى بيت الزهراء، استيقظ هشام من نومه، استيقظ الخليفة المنهمك فى أنواقه من تلك الغفلة، دبت فى نفسه عوامل الحياة، وأراد أن يدخل المعترك ويشترك فى الحكم وأن يفهم ويشعر وتكون له إرادة وسلطان.

استمرت صبيحة تلقى على ابنها دروس الانتباه واليقظة حتى استفاق من سبات غفلته وتذوق طعم الرياسة وحلاوة الأمر والنهى بدرجة استرعت أنظار الملتفين حوله بما فيهم المنصور، وهو أكثرهم دهشة وأشدهم حيرة، وقد علم أن هذه المعجزة الباهرة إنما أثر من آثار صبيحة.

صار الخليفة الآن يشدد النكير ويبحث وينقب ويطلب الايضاحات اللازمة عن حساب بيت المال ويوجه إلى المنصور أسئلة دقيقة ما كانت لتخطر له بال حتى انتهى به الأمر إلى أن يعامله بفتور وبرود.

لم يكلف المنصور نفسه عناء البحث عن سبب ذلك كيف يسأل عن السبب وهو لا يرى مولاه الخليفة ولا يتقابل به إلا بحضور والدته صبيحة؟ أظلمت الدنيا فى وجهه وشرع يتلمس سبيلا لمقاومة الخطر، فصال صولة فى ميدان الكفاح انتهت بطرد وإبعاد بعض من اشتبه فى إخلاصهم من موظفى قصر الزهراء، ولقد غضبت صبيحة لهذه الصدمة غضبة مضرية، كانت سببا فى اشتداد عزيمتها وزيادة همتها، فأعملت فكرها لتنتقم لنفسها من هذا الغريم الشديد البأس واهتدت أخيراً إلى فكرة سديدة، فاستدعت بعض عبيدها المحررين وكلفتهم بالتوجه إلى جهات مختلفة من الأندلس وافريقيا ومراكش لإفهام الشعب بمركز خليفتهم وإذاعة خبر ضعفه وطموح المنصور إلى مقام العلاقة، فراجت اشاعتهم وانتشرت فى طول البلاد وعرضها ومنها علم الناس ان خليفتهم واقع فى أسر ظلم معنوى، وأنه راغب فى التخلص من هذه القيود ليحكم شعبه على سنن العدل ومناهج الإنصاف لولا حيلولة المنصور بينه وبين ما يريد.

أدى رجال صبيحة ما كلفتهم به بأمانة وإخلاص فاجتازوا جبل طارق إلى إفريقية وتمكنوا من اكتساب مودة ومظاهرة والى مراكش لهم وهو يومئذ زيرى بن عطية الشهير، زعيم قبيلة الزبرين وما كاد يسمع بهذه الحوادث ويعلم أن الخليفة تحت أسر المنصور واستبداده المعنوى حتى احتدم غيظا وشرع فى تجريد قوة من رجاله ليرفع لواء العصيان والتمرد فى وجه المنصور، انتصاراً لخليفة البلاد، ولكن كان يعوزه المال لتنفيذ العمل، فسرت صبيحة بهذه النتيجة وبادرت بإسعافه.

كانت خزينة الدولة فى دائرة خاصة داخل قصر الزهراء وبها من الأموال ما يقدر بنحو ستة ملايين دينار وضعته فى مائة جرة مختومة أفمامها بالعسل، دفعا للظنون والشبهات، ودفعت هذه الجرار إلى رجال أمناء لتوصيلها إلى مكان معين،

وبذلك تمكنت من إيصال المال إلى مراكش بأمان وسلام.

كانت صبيحة تعلم قدر والى مراكش، وتعلم أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع مقاومة عدوها المنصور، وبذلك لم تألّ جهداً فى مساعدته. على أن خبر هذه المساعدة اتصلت بمسامع المنصور، فافرغ فى روعه لانه لم يتوقع حدوثها، وكأنى به يقول هل للخليفة علم بذلك والا كيف تمكن وأخرج المال من أبواب القصر؟ اشتدت حيرته واضطرمت احشاؤه بنيران الغيظ والكمد وأصبح ينظر إلى أفق المستقبل فيراه متلبدا بسحب الأكدار وغيوم الاضطرابات، فهل هو الآن أمام عاصفة قريبة تقتعله من مركزه؟ كل هذه أمور فكر المنصور فيها مليا وبعد طول البحث وإجهاد الفكر استدعى وزراء الحكومة ووكلاء الدولة لمجلس عام عقده فى قصره حيث أبلغهم بحدوث سرقة مبالغ كبيرة من مال الدولة، وانه علم بعد البحث والتنقيب أن السرقة تمت بدلالة نساء من قصر الخليفة وعلى أثر دهشة الوزراء بذلك اقترح عليهم نقل الخزينة إلى دائرة أخرى بعيدة عن مكانها الحالى، فأقره المجتمعون على ذلك. وبينما كان الرجال المكلفون بتنفيذ الاقتراح على وشك نقل الأموال المودعة بالخزينة، دخلت عليهم صبيحة وصاحت فيهم تقول: «ما هذه الجرأة: كيف تقدمون على ارتكاب مثل هذا الأمر دون إذن الخليفة. اننى آمركم ألا تمسوا الخزينة لأنه غير راض عن نقلها إلى مكان آخر».

لم يجد أتباع المنصور بدا من إطاعة الأمر أما الملك الكريم أى المنصور فاشتدت حيرته وزادت همومه حينما بلغه الأمر ولكن كتمه فى اعماق نفسه مكرها مرغما، والا فما الذى يستطيعه وكيف يخالف أمر الخليفة جهاراً ويرفع لواء العصيان فى ظروف قاسية لا تسمح بأدنى خلاف بينه وبين العرض، لاسيما، وقد طرقت مسامعه الاشاعات التى اجتهدت صبيحة فى ترويجها بين عموم الشعب؟

لا يعرف الناس شيئاً عن هشام ولا يذكرون الا اسمه ولكن ما زالوا يقدسونه فى نفوسهم لانه ابن الحكم وحفيد عبد الرحمن وسليل الأسرة الاموية. اذن ليس فى الإمكان إظهار التمرد جهاراً بياناً، فما هو الطريق المؤدى إلى تحويل مجرى الحوادث؟

هل يقبل المنصور على نفسه الانكسار والخضوع بعد أن وصل بكده وبسعيه أوج العز والاقبال؟ يخفض الآن جناحيه بعد أن كان يبسطهما لحماية سواه؟ كان لا يحنى رأسه ولا يرضى بالمذلة يوما ما كان سلطان الماضى، وهو الآن امير الحاضر فيجب على المستقبل أيضا أن يطيعه كيف يرضى المنصور، ذلك البطل الذى رفع لنفسه لواء فخر دائم الخفقان فى طول البلاد الإسلامية من أقصاها لاقصاها إذ يذهب ضحية حيلة سياسية أتمتها صبيحة؟ كيف يستطيع صبراً على الاندحار بعد تقدم دام عشرون عاما كان عليه أن يواجه الخليفة بمفرده. إن هشاما لينحنى أمام وزيره إذا تقابلا على حدة دون أن تكون معه والدته، تعضده وتظاهره. كان المنصور يعلم موضع الضعف من مولاه الخليفة، ويعلم أنه لا يستطيع أن يقابله ببرود وان يشدد عليه النكير إلا إذا كانت معه الاميرة اما اذا لم تكن هى بجانبه فكل عزم إلى ضعف وكل شجاعة تنقلب إلى جبن وانهزام، وكانت صبيحة تعلم هذا الامر وترى أن ابنها لا يستطيع الثبات أمام نظرات وزيره الحادة ولا يتمكن من الدفاع عند مايسل عليه لسان طلاقته وسلاح بيانه ولذا كانت تخشى عاقبة تلاقيهما على انفراد، وتخاف أن ينهدم بناء سياستها رأسا على عقب فى لحظة واحدة انما المنصور سعى، واجتهد حتى توصل بمعونة رجال القصر أنفسهم إلى مقابلة مولاه مقابلة سرية دون أن يعلم به أحد. كانت الاميرة صبيحة ملكة ذات سياسة وتدبير حنكتها الظروف والايام وزادتها التجارب خبرة فى الحياة وانما لم تكن سعيدة الحظ مثل المنصور، ولذا كتب عليها الاندحار والفشل فى نهاية الأمر.

عندما مثل المنصور بين يدى الخليفة لم يعبأ بما نال مولاه من الدهشة والاضطراب بل ابتدأ الكلام بما يريده من القول بسلاسة وطلاقة اشتهر بها حتى أثر على الخليفة وضيق دونه المذاهب فنسى أنه الخليفة وأنه صاحب النهى والأمر وأن فى يده قوة غير محدودة، ونسى تعليمات والدته ووصاياها أمام نظرات المنصور وأمام سحر ليانه وطلاقته ولم يتردد فى الاعتراف بعجزه(١) عن الحكم وتدبير الملك، وأنه

(١) دوزى.

سيتنازل له عن كل سيطرة وسلطان ولا يتدخل فى شئون البلاد، وأنه يرضى تنقل الخزينة خارج قصره إذا شاء وزيره المنصور. لم يكتف المنصور بهذا الإقرار بل انتهز هذه الفرصة واستدعى بعض وكلاء الدولة وأشهدهم على هذا الاعتراف بعهده موقع عليه من الخليفة ومدون فيه ما تعهد به لوزيره شفوياً (١) وقد أمضى عليه الوكلاء لإثبات شهادتهم.

حدث هذا الأمر فى العام السابع والثمانين بعد الثلاثمائة من الهجرة وبهذه الحادثة نال المنصور أكثر مما كان يتمناه ويحلم به بسهولة لا تخطر على بال.

أعلن العهد بعد ذلك وعلم الناس بخبره، فأصبح من العبث التمرد والعصيان فى سبيل سلطان عاجز عن الحكم، يعترف بلسانه أنه ضعيف فاتر العزيمة، يكل أمور الدولة ومهام السلطنة إلى وزير صادق هو المنصور - لم يكتف هذا الانتصار بل أراد أن يظهر للناس أن خليفتهم وقع على العهد باختياره وإرادته وأنه لا يوجد ثمة خلاف أو نفور بينهما، فاستصوب أن يخرج إليهم بجانب الخليفة راكبا فرسه فى موكب عظيم لهذا الغرض وقد تم له أراد. ما الذى يستطيع أن يعمله الانسان لأسير لا يشكو من أسره، يعيش باختياره تحت النير، لحاكم يعترف بعجزه عن الحكم، لسلطان لا يتأثر من التنازل عن نفوذه واقتدار لغيره، لخليفة لا يرى بأسا من الخروج إلى شعبه غداة اعترافه المخجل اللهم لا شىء سوى الأسف والتألم، ولقد كان من حسن حظ المسلمين أن وجد فى عصر حاكم عديم الحس مثل هشام. وزير مقتدر مثل المنصور ليستبد بأمور الدولة، فلو بقى زمام الحكم فى يد الخليفة لما تردد من فتح أبواب قلاعه لأمراء الفرنجة، وأن التاريخ لا ينسى قوله للعصاة وهو فى محبسه بعد وفاة المنصور«انقذونى وأنا اعدكم حتى بالعرش»(٢) فهل هناك(٣) أمل فى إنقاذ حاكم هوى بنفسه إلى هذه الدركة ورضى بأن يشرب كأس الهوان حتى الثمالة. لم يكتب المؤرخون شيئا عن حالة الأميرة عند سماعها باعتراف الخليفة وماذا عساها أن تقول فيمن لا يخجل من ترجيح

(١) ابن خالدون (٢) دوزى. (٣) الامير على.

الأسر على الحرية بعد سعيها المتواصل فى سبيل ذلك فإذا استطاعت أن تعمل شيئا بعد ذلك فلمن؟ هل لابنها القائل بنفسه (لا أريد أن أحكم فى بلادى) إن دناءة ابنها كان انكساراً ثانيا لآمالها. لم تكد جراحها التى أدماها المنصور تلتئم حتى أصابها ابنها بجرح آخر فى صميم قلبها أدمى احساسها الوالدى.

مع كل ما مر بها من الآلام وما عانته من المتاعب لم تشأ أن تريح نفسها حتى فى أيامها الأخيرة. انهدمت قصور آمالها وضاع نفوذها وانخفض جناحها، ولكنها مع ذلك لم ترض أن تقبض يد همتها عن شعبها، اهالى قرطبة المحبوبين منها.

همة صبيحة أكبر من أن تكل ونفسها العالية لا ترضى بحياة العطالة والكسل لم تتداخل فى شئون الإدارة ولكنها خدمت أمتها من طريق آخر وعملت على سعادتهم ورفاهتهم من سبيل غير سبيل السياسة، فقد بذلت ما فى وسعها لانشاء المساجد والمستشفيات وبناء المدارس والملاجئ، وبينما كان المنصور يدير حركة البلاد بمهارة وحذق ويختم حروبه بالنصر والظفر، كانت هى تحفر الجداول والعيون وتنشئ القناطر والجسور وتجتهد فى اكتساب حسن الأحدوثة وجميل الذكرى بين قومها، إن أعمالها النافعة وحسناتها العديدة أدهشت حتى جيرانها أمراء الفرنجة الذين لم يتمالكوا من إعظامها وإجلالها والاعتراف بمالها من فضل وخير فأقاموا الحفلات بشرف ذكرها عند إتمام طريق مائى مهم، وقد ركزوا عليه لوحة لتخليد ذكرها بهذه العبارات.

«بنى هذا الطريق المائى بهمة الاميرة صبيحة أم أمير المؤمنين الخليفة هشام جزاها الله خيراً فبمرومتها وفضلها لم تحرم ولايتا (السيجيا وكارمونا)(١) من الماء» أما المنصور فقد وجه همته إلى رفع شأن الاندلس بالغزو والحروبات، فاستتب الأمن داخلا وارتفع شأن البلاد خارجا وأصبح هو حاكمها المعروف بالشجاعة والكرم والمتصف بالعدل وحسن الإدارة. وفى العام الثانى والتسعين بعد الثلاثمائة خرج

(١) كوند.

المنصور غازيا للمرة الثانية والخمسية(١) لقمع فتنة بالقرب من مدينة سليم من ولاية قشتالة، وقد بدى العاصون مقاومة كبيرة واشتد القتال حتى اضطر ابن أبى عامر للوثوب إلى الصفوف الامامية(٢) مستبسلا والسيف بيده لبث روح العزم فى أفراد جيشه وبعد كفاح شديد أحرزوا النصر ولكن بعد أن أصيب قائدهم المنصور بجراح بليغة، استشهد على أثرها فى الخامس والعشرين من شهر رمضان ودفن بمدينة سليم حسب وصيته.

مات محمد المنصور، بموته فقد الاندلسيون ركنا من أركان شوكتهم، توفى رجلهم العظيم وبوفاته انصدع بنيان اتحادهم، فيالهول المستقبل المخيف، المستقبل المظلم الذى يهدد كيان الأندلس لبسوا عليه ثياب الحداد وشقوا الجيوب كأنما كان حزنهم وحدادهم على نحس طالعهم الذى بدا فى أفق السياسة. لم تعش صبيحة كثيراً بعد المنصور فقد توفيت فى العام الثامن والتسعين (٣) بعد الثلاثمائة، أى بعد تلك النكبة بستة أعوام، لقد تصالحا قبل وفاة المنصور ولكن صلحهما كان ظاهريا اقتضته الظروف والا فإن الدموع التى ذرفتها قد جعلت بينهما هوة من الآلام يصعب اجتيازها، فإن الاعوام الاخيرة من حياتها مضت بين جدران النسك والعبادة وقد كان لموتها صدى حزن عميق فى نفس الشعب لا يقل أثراً عن حزنهم لدى موت المنصور، وقد رثاها كثير من الشعراء وفيهم ابن دراج حيث شبهها بنجمة الاندلس. حقاً إن (صبح) كانت من أشد النجوم تألقاً فى سماء الاندلس، كان هناك أمل فى أن تحيل الاندلس حياة رغد ورفاهة طول حياتها أما وقد أفل نجمها ولم يبق أثر لسلطان المنصور ولا بأس الحكم ولا شوكة عبد الرحمن، فلم يبق أمام الاندلس سوى السقوط والاندحار لماذا؟ لان الخلافة انتقلت إلى يد هشام، ذلك الخليفة الجبان العاجز الذى كان الأندلسيون يخشون حكمه، ليس هيبة منه وانما خوفا من عجزه وضعفه.

(١) تاريخ الاندلس لضيا باشا.
(٢) ابن خلدون.
(٣) قاموس الاعلام

لم تر صبيحة بعينها خاتمة قرطبة، تلك الخاتمة السوداء التى تهز حتى اليوم أوتار القلوب فى بلاد الإسلام بضربات الحزن والالم. لو قدر لها أن تعيش بضعة أعوام أخرى لترى تقسيم عاصمتها لانهمرت عيناها بالدم بدل الدموع. ماتت دون أن ترى شيئا من ذلك. ماتت فى بيت الزهراء وهى تنظر فى مساء يوم لطيف حزين مؤلم، وقد كان آخر المشاهد انطباعاً فى نظرها، منظر تلك النجمة التى تستحم مرتعشة فى أحواض بيت الزهراء.

الخاتمة

كتب موسى بن نصير والى المغرب، إلى الخليفة عبد الملك ابن مرون، يصف له الأندلس ترغيباً فى فتحها، فقال:

«الأندلس جنة فيحاء تشابه الشام بحسن موقعها واليمن باعتدال مناخها والهند بأزهارها ونباتها ومصر بخصوبتها ونمائها والصين بأحجارها الكريمة ومعادنها النفيسة» وأعقب ذلك خروج طارق بن زياد لغزوها وتحت إمرته اثنا عشر الفا من المجاهدين، وإن هى إلا أيام قلائل حتى تم فتحها. مضى على هذا العهد عصور ثلاث تمكن الفاتحون أثناءها، من إيقاظ أمة جاهلة خامدة وأخذوا بيدها إلى مناهج العلم والعرفان تحت أشعة النور الإسلامى، فلم يمض إلا القليل حتى اعتلى الأندلسيون، اعتلت تلك الامة التى كان القساوسة تسوقها كالأغنام ويذيقيها الحكام صنوف العسف وألوان الاضطهاد. وأصبحت بعد زمن وجيز مطمع أنظار أوربا وموضع الدهشة والإعجاب من أهلها.

دهشت أوربا من مدينة أسبانيا ثم أخذت تقترب منها على مهل(١) وترد مناهل علمها وعرفانها وحياض مدينتها الوراء لظمئها، وبعد فتح الاندلس وجه العرب همتهم إلى عمرانها وزينتها، وكانت الحروب قاصرة إما على دعوة الأمراء المسيحيين القاطنين فى شمالها إلى الهداية وإما على رد هجماتهم من حين لآخر. إن المسلمين الشغفين بالأمور الزراعية شغفهم بالحروب صيروا الأندلس حديقة جميلة(٢)

الصناعة والتجارة، العلم والعرفان، الشهامة والمروءة كل هذه مزايا كان مسلمو تلك الأيام يتهافتون على التحلى بها واكتسابها، أما أخلاقهم الحسنة وشرف نفوسهم فكانت عالية تفوق أخلاق المسيحيين حسنا حتى أن أعداءهم، أمراء الشمال كانوا لا

(١) رينان. (٢) سلفستر.

يستنكفون من مداواة مرضاهم ومجروحيهم فى البيوت الإسلامية بمعرفة أطباء المسلمين ارتكانا على مروءتهم وشهامتهم.

فى تلك الأيام وقد اتسعت دوائر العلوم والفنون ارتقت الامة تبعاً لذلك، وأصبحت المروءة وعزة النفس غريزة فى نفس كل مسلم. إن الخصال الحميدة التى كان يتصف بها طائفة الفرسان فى أوربا، تلك الخصال التى تقرأ وصفها فى كتب الفرنسيين فتعجب بها، هى خصال المسلمين الحقيقيين، ولو علمنا مقدار ما كان يبذله المسلمون فى تلك الأيام من الاحترام والاعتبار للمخدرات الاسلامية بل لكل النساء مسيحيات كن أو مسلمات(١)، لو علمنا مقدار احترامهم واعتبارهم لهن ثم نظرنا إلى حالتنا اليوم فلا أدرى كم يكون الأسف مراً أليما.

عندما حاصر والى قرطبة مدينة (توليدو) عام ١١٣٩ ميلادية كانت الملكة (برانجر) محصورة فى قلعة (آزاقا) داخل المدينة. وعندما هجم الوالى بعساكره على المدينة يريد فتحها أرسلت الملكة تقول:

«ليس من الشهامة الإسلامية محاصرة امرأة فى مدينة والهجوم على القلعة التى هى بها» فاستصوب الوالى رأيها وغض النظر عن الهجوم وانما طلب أن تظهر نفسها لهم من إحدى شرفات قصرها وبمجرد إظهار نفسها لهم قدم الوالى احترامه وعاد بعسكره إلى قرطبة بعد ان اعتذر لها، فقل لى بربك ألا تستحق أن تضاف هذه الحادثة إلى سجل الشهامات والمروءات؟ هل تقل درجة عن أعمال(بايارا) و(سيدنى).

سمع محمد المنصور بعد رجوعه عن غزوة (قومبوستال) أن امرأة مسلمة محبوسة داخل القلعة، فأمر بإحضار ملك النافار أمامه ليقدم المعذرة على هذا العمل الفظيع وهو على ركبتيه، فحضر الملك وطلب العفو والمعذرة جاثيا على ركبتيه(٢) وبعد أن تم تخليص المرأة المسلمة على هذه الصورة عاد بجنوده إلى العاصمة .

(١) روح الاسلام للامير على.
(٢) لان بول.

كان الزمان، زمان عظمة وقدرة وجلال، وكانت الأخلاق الإسلامية على أصلها لم يتطرق اليها عوامل لا ضعف وبنور الفساد وكان المسلمون أصحاب القوة والسطوة. وكانت الأيام أيام نور وخير ونماء وكانت الأمة المحمدية أمة العلوم والصناعات وصلت مدينة الأندلس أيام عبد الرحمن وابنه الحكم وفى عهد صبيحة والمنصور إلى ذروتها وغايتها حتى أن أسبانيا لم تر قبل أو بعد هذا العهد مثل ما رأته فى أيام هؤلاء الأبطال(١) الزراعة والصناعة والتجارة وزخرفة الذهب والفضة والنسيج والحياكة لم تكن فى قرطبة فقط بل كانت منتشرة فى غرناطة وأشبيلة ومرسيه. وقد كانت هذه المدن أشهر من نار على علم فى صناعة الأسلحة.

كتب (دون بدرو) فى وصية له فى القرن الرابع عشر للميلاد، يقول: بين المخلفات التى أتركها يا بنى سيف مصنوع فى اشبيلية محلى النقوش الذهبية ومرصع بالأحجار الكريمة فأوصيك بالمحافظة عليه» أما اشتغالهم بالصنائع النفيسة وفى العمارات والعلوم الفلكية فقد أوقع أوروبا فى مهاوى الحيرة والإعجاب.

سفراء أوروبا وملوكها وملكاتها والذين أموها للزيارة كانوا يفتنون بأبهة قصور عبد الرحمن ومافيها من آلات النعمة ورياش الترف لم تكن قرطبة زينة الاندلس فحسب بل كانوا يعدونها أعجوبة العالم(٢) لم يبق إنسان لم تدهشه المدارس المنشأة فى عهد الحكم الثانى وما تجلى فى عصره من مظاهر العلوم والفنون(٣) لم يبق إنسان فى ذلك من لا يعرف القراءة والكتابة أما كفاءة المنصور وقدرته وعدله فقد سار بذكرها الركبان حتى أصبحت أسبانيا من أقصاها لا قصاها ترتجف فرقا من صولته وبأسه يذكرون عنه أنه فى غزوة من غزواته لاخضاع إحدى المدن الثائرة، نسى أحد الجنود وكان من حملة اللواء لواءه فى المعسكر أمام المدينة وبعد انتهاء الغزوة وعودة المنصور

(١) رينان.
(٢) لوبون.
(٣) ابن خلدون.

بجنوده ظل اللواء فى مكانه منسياً، وأخذ الأسبانيون يرمقون اللواء ولا يستطيعون الوصول إليه خوفا من عودة المنصور بجنوده ولم يتمكنوا أخذه إلا بعد مضى أيام عديدة واطمئنانهم من عدم رجوع الجيش.

اما سياسة صبيحة ومهارتها فى الاحكام وآثار الرحمة والشفقة التى كانت تبديها للفقراء والمحتاجين وبذل ما فى وسعها لعمران المملكة بانشاء الجسور وحفر الترع وعيون الماء وتأسيس المدارس والجوامع فهذه أمور مسجلة بالفخر والثناء ليس فى التواريخ الإسلامية وحدها بل فى التواريخ الافرنجية، لاسيما ما كان متعلقا منها بتاريخ أسبانيا.

إن ظهور صبيحة فى مثل هذا العصر المنير برهان كاف على فضلها وجميل مزاياها. لو أردت ان أحصى الشهيرت من نابغات الإسلام فى ذلك لاحتاج الأمر إلى عدة صفحات.

كانوا فى هذا العهد شغفين بالعلوم والمعارف حتى أنهم جميعاً، كباراً وصغاراً، رجالا ونساء، وقفوا حياتهم فى سبيل العلم والنور. فى ذلك العهد لم يكن للرجال فضل على النساء فى العلوم والفنون بل أن النساء كن المرشدات الملقنات وكان الرجال يستفيدون من هذا الإرشاد أيما فائدة كان الرجال يخدمون نساءهم فى الأندلس لاقتدارهن وذكائهن وفضلهن وأنهن لجديرات بذلك(١).

هذه هى الأندلس فى عصورها الثلاثة أما وقد ماتت صبيحة وظل هشام على العرش كما يريد ويهوى، فقد ابتدأ أساس السلطنة فى التزلزل وتطرقت اليه عوامل الفساد. أراد كل إنسان أن يستفيد ويعمل لنفسه على حساب هذا الخليفة العاجز وفى النهاية دبت عوامل النزاع والشقاق بين عائلته ووزارائه وأمرائه. وتابعيه وعصفت عواصف الفتن والدسائس فى الزهراء وصار الخليفة ألعوبة بينهم يجلسونه على العرش

(١) روح الاسلام للامير على.

ويخلعونه منه من حين لآخر وصارت غرفة العرش مسرحا يتقاتلون فيه ويتنازعون فى أرجائه وفى مدة وجيزة جلس على العرش عشرون خليفة على التوالى بسرعة يصعب على الإنسان تمييز المدة التى يستغرقونها بين الجلوس والخلع وبين الارتقاء وولى ذلك ظهور القلاقل واندلع لسان اللهب إلى أطراف الأندلس قاطبة فاستقل كل وال بولايته ثم تشاحن الولاة فيما بينهم وتقاتلوا وظهرت على أثرها المذابح فتخربت المدارس والمكاتب وانهدمت المساكن والقصور ثم التجأ بعضهم إلى أمراء الفرنجة وطلبوا معونتهم ولم يمض إلا أشهر قلائل حتى استولى العدو على نحو عشرين مدينة وقلعة(١) أما بيت الزهراء وقصر الظاهرة فأصابهما ما أصاب غيرهما من الخراب والدمار، وأصبحا فى أربعة أيام أثرا بعد عين احترقا، ولم يبق من أنقاضهما إلا الرماد، وتعاقبت فى قرطبة فرق وأحزاب، ولم يبق من آثاره إلا حسرة فى النفس نرددها من حين لاخر.

بينما كان محمد المنصور جالساً فى قصر الظاهرة ذات يوم نظر الى أطرافه بحزن وتأوه يقول: «أيتها الظاهرة التعسة أى يد ستشعل النار فى أطرافك وأى حرص سيسبب خرابك ودمارك» لم يمض على قوله زمن كبير حتى أحرقتها أيدى أحزاب مختلفة فذهبت ضحية الفتن(٢)

فهل خطر مثل ذلك على بال صبيحة أيضا من يدرى ربما تأوهت مثلما تأوه المنصور، وربما قالت تناجى نفسها: «أى يد ظالمة سوف تتحكم فيك يا قصر الزهراء ويا نجمة الغروب فى أى الأحواض تعكسين شعاعك الضئيل وقت حصول هذه الفاجعة؟» ولكن لا لا أنا لا أريد أن أحدثكم بمصائب الأندلس ولا أريد أن أدمى جراحكم بأحزانها لا أستطيع ذلك لأننى لا أملك من الكفاءة أو العرفان مايؤهلنى لدخول هذا الميدان إنما أريد أن أقول أن أبهة الاندلس وبهرجتها ماتت وانطفأت بموت الأميرة صبيحة.

(١) الامير على.
(٢) رينان.

بعد أن مر على قرطبة عاصمة الأندلس المشرقة أزمان خاضت فيها فى الدماء والأحزان، لم يبق للسلطنة ثمة نفس أو روح فانطفأت أنوارها فى قرطبة ولم يظهر فيها قبس من الضوء بعد ذلك، وإنما ظلت عائشة كجمهورية اشبيلة.

وظهـرت بعض الأنوار فى ربوع غـرناطة، ولكن لم يجـد ذلك أى نفع لأن بذور التفرقة كانت قد نمت فى نفوس المسلمين وثمار المصائب كانت قد أينعت فأجبروا على ترك الأندلس بعد حكم دام ستمائة عام

عندما سودت هذه الصفحات من ترجمة حياة صبيحة لم أتمالك نفسى من الخروج عن الصدد ولكن كان لزاماً على إجمال ادوار ثلاث. كنت أستطيع أن أهمل هذه الأدوار ولكن كان لها تماس بشخصية صبيحة ومحيطها، ولذا لم أبال من قيدها بكل فروعها وتفصيلاتها، فالقصة وإن طالت إلا أننى أؤمل أن قرائى وقارئاتى لم يتطرق إليهم الملل أثناء تصفحها.

لا أقصد أن أكتب تاريخاً وإنما الغرض الذى أرمى إليه هو النهضة النسائية فى عصرنا هذا، وهذا الأمر لا يأتى إلا من طريق العظة والعبرة، فسعيت جهد استطاعتى للوصول إلى هذه الغاية والله اسأل سواء القصد.

الشرق محافظ، متمسك بأهداب القديم، وله عادات و تقاليد محبوبة،
ولكنه فرط في محبتها الى حد إنزالها منزلة العقائد والمذاهب، فالنساء لا يتربعن على منصات الحكم فى بلاد الشرق
ولا يوثق بهن إلى حد تسليم أزمة الإدارة لأيديهن،
فلا تكون المرأة سوى كمية مهملة لا يعتد برأيها ولا يقام
لها وزن وقل من يعرف شيئاً عن حالتها الروحية،
فليس لها اليوم منزلة اجتماعية ولذلك لا يكاد
يوجد إنسان يسأل عن منزلتها ويتعرف أحوالها وشئونها في الأزمنة القديمة،
لقد امتزجنا نحن الشرقيات امتزاجاً قليلاً بالمدنية الأوروبية فتمشينا في تيارها ونسينا شخصيتنا
حتى صار مثلنا مثل تارك الصلاة المقيم بين جامعين.
علينا أن نغترف من مناهل المدنية الغربية، ولكنه لا يليق
بنا نحن المسلمات أن نضحي على سبيل هذا الواجب جميع الشرق
وعاداته الجميلة وتقاليده الحسنة.

قدرية حسين

مؤسسة المرأة والذاكرة
THE WOMEN AND MEMORY FORUM